Mngool.com

ظهر الإسلام

الجزء الأول

يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية
من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى

تأليف
أحمد أمين

الطبعة الثالثة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة بـيروت

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وهذه هى المرحلة الثالثة بعد « فجر الإسلام وضحاه » .

ومعذرة إلى القارئ الكريم من طول الفترة بين ظهور هذا الجزء وآخر جزء من ضحى الإسلام ، فإن ما كُلِّفته من عمادة كلية الآداب لم يترك لى زمناً صالحا للسير فى هذه السلسلة ؛ فلما تخليت عنها احتجت إلى زمن آخر أروض فيه عقلى ونفسى على العودة إلى معاناة البحث ، والصبر على الدرس .

واليوم فرغت من إعداد هذا الجزء ، وقد قصدت به أن يكون مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية فى النصف الأخير من القرن الثالث ، وفى القرن الرابع ، وهى أوسع حركة وأخصبها وأعمقها فى تاريخ المسلمين إلى اليوم . وقد حزرت أن يستغرق وصفها خمسة أجزاء ، أحدها للأندلس .

عنيت فى هذا الجزء بناحيتين :

(١) وصف للحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، فليس يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التى نشأت فيها ، والعوامل التى ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين أنتجوها ونحو ذلك .

(٢) ووصف لمراكز الحياة العقلية ، ونوع الحركات العلمية والأدبية التى ظهرت فى كل إقليم وخصائصها ، وأشهر رجالها ، وهو وصف موجز ونظرة شاملة

خاطفة ، أردت منها أن تكون نقطة ارتكاز يتبعها تفصيلها والتوسع فيها فيما يأتى بعدُ من أجزاء إن شاء الله .

وفى سبيل الله ما لقيت من عناء ، وخاصة فى القسم الأخير ؛ فقد تجاهل مؤلفو تاريخ العلوم ومؤلفو كتب التراجم — غالباً — الناحية الإقليمية والزمنية ، فأرخوا الحركة العلمية على أنها وحدة ، وترجموا للمؤلفين من غير مراعاة لأزمنتهم ولا أمكنتهم ، وكل ما راعوا هو ترتيب أسمائهم على حروف الهجاء ، فأحمد فى القرن الثانى فى العراق بجانب « أحمد » فى القرن السادس أو السابع فى مصر ، وهكذا ؛ فمن أراد أن يفرز علماء كل عصر وحدهم ، وفى كل قطر على حدة تحمل من العناء ما لا يقدر . ولم يحملنى على سلوك هذا الملك فى التأليف مجرد الرغبة فى إيضاح الحركة العلمية والأدبية وزمانها ومكانها ؛ بل إن تحديد زمانها ومكانها يعين على تفهم أسباب وجودها وطبيعة تكوينها ، فالموشحات والأزجال لم توجد فى الأندلس دون غيرها اعتباطا ، ولا المقامات نشأت فى إقليم خراسان مصادفة ، ولا الحركة الفلسفية أزهرت فى العراق أول الأمر اتفاقا . وإنما ذلك كله يرجع إلى أسباب طبيعية حتمية ، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك ، فتعيين زمن الحركة ومكانها معين على فهمها فهماً علمياً صحيحاً ، وهذا ما قصدت إليه .

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بسابقه ، وأن يعين على إتمامه .

أحمد أمين

مصر الجديدة — الجمعة { ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٦٤
٣٠ مارس سنة ١٩٤٥

فهرس

الصفحة

الكتاب الأول

الكتاب الثانى

الصفحة

الكتاب الأول

فى الحياة الاجتماعيـــة

من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى



الباب الاول

سكان المملكة الإسلامية

عنصر الأتراك — فى هذا العصر الذى نؤرخه ، ظهر فى المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين — الفرس والعرب — وهو عنصر الأتراك ، وكان له أثر كبير فى تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والاجتماعية .

ذلك أن المعتصم الذى تولى الخلافة سنة ٢١٨ استقدم سنة ٢٢٠ قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التى نسميها « تركستان » وما وراء النهر ، « اشتراهم و بذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، وأمعن فى شرائهم حتى بلغت عِدَّتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقيل ثمانية عشر ألفاً » وهو الأشهر(١) .

وسبب اتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور :

١ — أن أهم عنصر فى الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم الخراسانيين ، وهم فُرس من خراسان ، وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن ، من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم ، كما كانوا حرس الخلفاء ؛ وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب ، من مضر واليمن وربيعة ، ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأناً وأقل حظوة ، وأقل عدداً من الفرس .

ضعفت ثقة الخلفاء بالعرب على مر الأيام ، إذ رأوهم لا يتحمسون للقتال لهم تحمس الفرس . وقد تقدم أن رجلا تعرض للمأمون بالشام وقال له :

---

(١) النجوم الزاهرة ، ٢/٢٣٢ .

« يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان » ! ولكن المعتصم بدأ يشعر أيضاً بضعف ثقته بالفرس ، وذلك أن كثيراً من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس ، لأن أم المأمون فارسية ، فدعتهم عصبيتهم للمأمون — نصف الفارسى — أن يتعصبوا لابنه العباس أيضاً .

وذكر « الطبرى » أن الجند شغبوا لما بويع لأبى إسحاق (المعتصم) بالخلافة ، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه (العباس) ثم خرج العباس إلى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ! قد بايعت عمى ، وسلمت الخلافة إليه . فسكن الجند[٢] .

لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من غير أن تدعوه إلى التفكير العميق حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ففكر أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب ، فهداه تفكيره إلى الترك ، وظل لا يصفو للعباس ولا العباس يصفو له حتى اتهم العباس بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال المعتصم ، فقبض على العباس وسجن ومنع عنه الماء حتى مات .

٢ — وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك ، وهو أن أم المعتصم أصلها من هذه الأصقاع التركية ، فقد كانت من السُّغد ، واسمها ماردة ، وكان فى طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك ، من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ؛ « كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره » . ويقول أحمد بن أبى دُواد : « كان المعتصم يخرج ساعده إلىّ ويقول عض ساعدى بأكثر قوتك ، فأمتنع ، فيقول : إنه لا يضرنى ! فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان »[٢] ! فدعته العصبية التركية والتشابه الخلقى أن يفكر فى استدعاء الأتراك ففعل .

---

(١) طبرى : ١٠/٣٠٤ .　　　(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٣ .

استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملئوا بغداد وضايقوا أهلها ، قال المسعودى : « كانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير ، أو صبي أو ضرير ؛ فعزم المعتصم على النقلة معهم ... فانتهى إلى موضع سامرّا ، فأحضر الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار ، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار ، فجعل للأتراك مواضع متميزة ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية . . . وأقطع أشْناس التركى وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرّا الخ »[1] . كان من هؤلاء الأتراك مسلمون أسلموا على أثر فتح المسلمين لبلادهم فى العصر الأموى ، ومنهم مجوس وثنيون أخذوا يسلمون عند استقدام المعتصم لهم ، وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية ، وقد عرفوا بالشجاعة والصبر على القتال كما عرفوا بخشونة البداوة وقسوة الطبيعة ؛ وحافظ المعتصم على دمائهم أن تبقى متميزة فجلب لهم نساء من جنسهم زوّجهن لهم ، ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهم .

مكن المعتصم للأتراك فى الأرض ، وكانوا فى أول أمرهم قوة للدولة ، و بسببهم — على الأكثر — يرجع انتصارهم على الروم فى وقعة عمورية سنة ٢٢٣ ، فكانت القيادة العليا فى يد الأتراك وعلى رأسهم أشْناس .

☆ ☆ ☆

من ذلك التاريخ دخل فى نزاع العصبية عنصر قوى جديد ، فقد كان النزاع قبلُ بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترك ؛ وكان العرب قد ضعف أمرهم فى نزاعهم مع الفرس ، فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبّالة ، وتوجهت

---

(١) مروج الذهب : ١/٢٧٢ وما بعدها .

قوة الترك — أولا — لإضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان . وأخذ التاريخ الإسلامى يصطبغ بالصبغة التركية ، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس ، كأبى مسلم الخراسانى والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل ، وعبد الله بن طاهر وأمثالهم ، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس ، وإيتاخ ، وبُغَا الكبير ، وبغا الصغير ، وابن طولون وأمثالهم من الأتراك ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فى شؤونها .

وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد ، فقد شكا أهل بغداد للمعتصم وقالوا له : تحول عنا وإلا قاتلنا ! قال : وكيف تقاتلوننى وفى عسكرى ثمانون ألف دارع ؟ ! قالوا : نقاتلك بسهام الليل — يعنون الدعاء — فقال المعتصم : والله مالى بها طاقة ! فبنى لذلك سر من رأى وسكنها[1] .

وهجا دِعْبِلٌ الخُزاعى المعتصم لتعصبه للأتراك وحمايته إياهم فقال :

لقد ضاع أمرُ الناسِ حيث يسوسهم ... وصِيفٌ وأشْنَاسٌ وقد عظم الخطبُ

وإنى لأرجو أن تَرَى من مغيبها ... مطالعُ شمس قد يَغَصُّ بها الشَّرْبُ

وهمُّك تُرْكى عليه مَهَانةٌ ... فأنت له أمٌّ وأنتَ له أبُ

بل يظهر أن المعتصم نفسه — وهو جالب الأتراك — قارن بين خدمة الفرس للخلفاء قبله وخدمة الترك له ، فحمد الأولى وذم الثانية ؛ فقد روى الطبرى أن المعتصم ، دعا أبا الحسين إسحاق بن إبراهيم[2] ، وبعد حديث طويل — قال المعتصم : يا إسحاق ! فى قلبى شىء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . فقال إسحاق : قل ياسيدى فأنا عبدك وابن عبدك . قال المعتصم : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! قال

---

(١) النجوم الزاهرة : ٢/٢٣٣ .

(٢) هو والى بغداد للمأمون .

إسحاق : ومَن الذى اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ؛ وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُر مثله ؛ وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبداً ؛ وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيتَ إلى ما صار أمره ؛ وأشناس ، ففشلٌ أيُّه ؟ و إيتاخ ؛ فلا شىء ؛ ووصيف ، فلا مغنى فيه ! فقال إسحاق : أجيب يا أمير المؤمنين على أمان من غضبك ؟ قال : قل . قال إسحاق : يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب ، إذ لا أصول لها ! قال : يا إسحق ، لَمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل علىّ من هذا الجواب[1] .

وكره أهل بغداد مجيئهم إذ كانوا شؤماً عليهم فى حلهم وترحالهم ، فلما أقاموا بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى ، ولما رحلوا عنهم إلى القاطول[2] ثم سامرا أثر ذلك أثراً سيئاً فى بغداد من حيث تجارتها وحضارتها ، فقال بعضهم فى ذلك يعيِّر المعتصم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامِقة تركتَ ببغداد الكِباشَ البطارِقة

وأخذ المحدّثون يضعون الأحاديث فى ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور الناس ، فرووا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الترك أول من يسلُب أمتى ما خُوِّلوا » وعن ابن عباس أنه قال : « ليكونن الملك — أو قال الخلافة — فى ولدى حتى يغلب على عزهم الحمر الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة » ، وعن أبى هريرة أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يجىء قوم عراض الوجوه صغار

---

(١) طبرى : ١١/٨ .

(٢) القاطول نهر كان فى موضع سامرا قبل أن تعمر .

الأعين ، فطس الأنوف ، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة »[١] .

زاد نفوذ الأتراك شيئاً فشيئاً بكثرة ما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم ، وبما أبدوا من بسالة فى حروبهم ، وبما تزاوجوا وتناسلوا ، وبتأييد الخلفاء لهم ؛ فالواثق بعد المعتصم « استخلف سنة ٢٢٨ على السلطنة أشناس التركى وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهراً . وأظنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا فى أيام أبيه »[٢] .

وفى أيامه نكل قواد الأتراك بكثير من الأعراب فى مواضع مختلفة من جزيرة العرب ، فمرة حول « المدينة » ، ومرة باليمامة ، وكان على رأس الجيش بُغَا الكبير التركى . واحتقر الأعرابُ أول أمرهم هؤلاء الترك وقالوا لمن استنجد بهم : « ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينَّك العبر » ! ولكن هؤلاء العبيد والعلوج انتصروا عليهم ، وكان بغا يُحضر الواحد تلو الواحد من أسرى بنى نمير ويضرب به ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة وأقل من ذلك وأكثر . وعاد بغا ومعه الأسرى من قبائل مختلفة من العرب[٣] ، ولهذه الحادثة وأمثالها أثر فى ضعف نفسية العرب أمام الترك .

وكان مما فعله المعتصم متمما لاعتماده على الأتراك أن كتب إلى واليه على مصر كَيْدُر ، واسمه نصر بن عبد الله ، يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب[٤] وقطع أعطياتهم . فلما قطع العطاء عنهم خرج يحيى بن الوزير الجَرَوِى فى جمع

---

(١) وردت هذه الأحاديث فى معجم ياقوت مادة تركستان .

(٢) الخلفاء : ١٣٥ .

(٣) انظر هذه الأحداث بطولها فى تاريخ الطبرى : ١١/١٢ وما بعدها .

(٤) يراد بإسقاطهم من الديوان حذف أسمائهم من الدفاتر التى يقيد فيها أسماء الجنود الرسميين الذين يأخذون مرتبا .

لَخْم وجذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه[١] لأنه منعنا حقنا وفيئنا » ؛ واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل . فتوجه إليهم مُظَفَّر بن كيدُر فى بحيرة تِنيس ، فأسر يحيى بن الوزير وتفرق عنه أصحابه ، فانقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم ، إلى أن ولى أحمد بن طولون (التركى) فاستكثر من العبيد و بلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق[٢] .

ولا شك أن هذه الحادثة أيضاً أضعفت من شأن العرب وخاصة فى مصر .

وتولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، فكان قد مضى على مجىء الأتراك اثنتا عشرة سنة تمكنوا فيها من الأرض وعرفوا الناس والبلاد ، وخدمتهم الحوادث فى إعلاء سلطانهم ؛ فرأينا إيتاخ التركى هو الذى بيده معظم الأمور . وإيتاخ هذا غلام تركى كان طباخاً فاشتراه المعتصم ، وكان ذا رجولة و بأس « فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة — وكان من أراد المعتصم أو الواثق قَتْله فعند إيتاخ يُقْتل و بيده يحبس ، منهم محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولاد المأمون » . فلما ولى المتوكل كان إيتاخ فى أعلى مرتبته ، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبربر والحجابة ودار الخلافة[٣] ، حتى لقد خرج المتوكل مرة متنزها إلى ناحية القاطول وشرب وعربد على إيتاخ ، فهمّ إيتاخ بقتله ، فلما أصبح أُخبر المتوكل بذلك فاعتذر إلى إيتاخ وقال له : « أنت أبى وربيتنى »[٤] ، نعم إن المتوكل دبر له مكيدة فقتله ، ولكن هذا لم

---

(١) أى لا يوجد سبب يدعو إلى الثورة أفضل منه .

(٢) الولاة للكندى : ١٩٤ والخطط للمقريزى : ١/٩٤ .

(٣) الطبرى : ٣٣/١١ .   (٤) المصدر نفسه .

يضعف شأن الأتراك فى شىء . بل أوغر صدرهم على المتوكل .

أصبحت أمور الدولة فى يد الأتراك ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليسوا فى وفاق بعضهم مع بعض ، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ، وهم كثيرو الطمع فى الأموال لا يشبعون ، وعلى الجملة فقد أصبحت « دار السلام » وما حولها ليست دار سلام .

« لا بد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الخانق بما يثيره الأتراك من شرور ، ولا بد أن يكون قد أحس الخطر على حياته منهم ، ففكر أن ينقل عاصمة الخلافة من العراق إلى دمشق ، وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من العنصر العربى من يغنيه عن العنصر التركى ، ففى سنة ٢٤٣ أى بعد خلافته بإحدى عشرة سنة رحل إلى دمشق ، ولكنه لم يطل مقامه بها ، فلم يستطب جوها كما قالوا . وهو مع هذا لم يسلم من شغب جنود الشام عليه ، « فاجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمى بالنشاب »[1] ، فعاد إلى سامرا . وكان بين خروجه منها وعودته إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام ، وبعد أربع سنوات من عودته قتله الأتراك .

لقد رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى ، ولكن كان ابنه المنتصر يشايعهم ، «فعزم (المتوكل) أن يفتك بالمنتصر ، ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم »[2] ، وعزموا هم على الفتك به . فكان ذلك مفترق الطرق ، فإن نجح زالت دولة الأتراك وعادت غلبة الفرس ، ورجعت الأمور إلى ما كانت عليه . ولكن شاء القدر أن ينجحوا هم ، فتقدم

---

(١) المسعودى : ٢/٢٠٤ .   (٢) الطبرى : ١١/٦٣ .

باغر التركى حارس المتوكل ينفذ مؤامرة من القواد الأتراك على رأسهم بغا الصغير ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم ، وصعدوا على سرير الملك : وضرب باغر « المتوكلَ » بالسيف فقدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح (بن خاقان) يمانعهم فبعجه واحد منهم بالسيف فى بطنه فأخرجه من متنه ، فلفا فى البساط الذى قتلا فيه ، وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارها ، حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأَمر بهما فدفنا .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فكل من كان قبله مات حتف أنفه (إلا الأمين فقد قتل بعد هزيمته فى الحرب) . ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده ، ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الأتراك . وكان فى قتله حياة الأتراك وسلطانهم ، و إنذار عام للبيت المالك أن من أراد أن يلى الخلافة فليذعن إذعاناً تاماً للأتراك ، ومن حدثته نفسه — من الخليفة فمن دونه — أن يناوئهم فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرعَ الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان الخليفة بعده خاتماً فى أصبعهم أو أقل من ذلك ، حتى قنع بالسكة والخطبة ، « وصار يُضرب ذلك مَثلا لمن له ظاهر الأمر ، وليس له من باطنه شىء ، فيقال قنع فلان من الأمر الفلانى بالسكة والخطبة ، يعنى قنع منه بالاسم دون الحقيقة »[(١)] ، وفى هذا المعنى يقول بعضهم فى الخليفة المستعين :

خَليفــــةٌ فى قفَص بين وَصِيفٍ وبُغَا

---

(١) الفخرى : ٣٨ .

يقـــولُ ما قالا له   كما يقـــول الببّغا

لقد شهد البحترى مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه ، وفزع لذلك ، ووصف مقتله فى قصيدته الرائية المشهورة ، يقول فيها :

ولمْ أنس وحشَ القصر إذ ريع سِرْبُهُ   وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذِرُه

وإذ صِيح فيه بالرحيل فهُتِّكتْ   على عجل أستارُه وســتائرُه

وفيها :

حُلومٌ أضلّتها الأمانى ومــدة   تناهت وحتف أوشكتهُ مقادِرُه

ومغتصَبٍ للقتل لم يُخش رَهطُه   ولم تُحتشم أســبابُهُ وأواصرُه

صريع تقاضاه السيوفُ حشاشةً   يجود بها والموت حُمْرٌ أظافرُه

أدافع عنه باليدين ولم يكن   لِيَثْنِيَ الأعادى أعزلُ الليل حاسره

ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى   درى الفاتك العجلان كيف أساوره

حرامٌ علىّ الراح بعدكَ أو أرى   دماً بدم يجرى على الأرض مائره

وهل أرتجى أن يطلب الدم واترٌ   يَدَ الدهر والموتور بالدم واتره ؟ الخ

بل يخيل إلىّ أن البحترى هاله ما فعله الأتراك بسيده المتوكل وهو الذى مجده فى كثير من قصائده ، وأسبغ عليه فيها نوعاً من التقديس :

وشبيه النبى خَلْقًا وخُلقا   ونسيب النبىّ جَدًّا فجَدًّا

يا ابن عم النبى حقاً ويا أز   كى قريش دِيناً ونفسا وعِرْضا

بنْتَ بالفضل والعلو فأصبحـــت سماء وأصبح الناس أرضا

ولم يستطع أن يهجو الأتراك فى صراحة و إقذاع ، وهم الذين بيدهم السلطان ؛ وآلمه ما آل إليه أمر الدولة وقد غلب عليها الأتراك ، وما كانت عليه الدولة أيام

كان السلطان سلطان الفرس ، فحنق على الأولى ، وحمد الأخرى . فيخيل إلىّ أنه قال « بمظاهرة » طريفة يرضى بها شعوره ، وهى أنه حج إلى إيوان كسرى رمز سلطان الفرس ، ووقف أمامه شاكياً باكياً ، وقال سينيته البديعة المشهورة يندب حظه ويبكى أمسه :

حَضرتْ رَحلى الهُموم فوجَّهــتُ إلى أبيضِ المدائن عَنْسى
أتسلَّى عن الحظوظ وآسَى لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس
ذكَّرتْنِيهِمُ الخطوب التوالى ولقد تُذكر الخطوبُ وتُنسى
وهو ينْبيك عن عجائبِ قومٍ لا يُشابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ
ليس يُدْرَى أصنعُ إنسٍ لجنٍّ سَكَنُوهُ أم صُنعُ جنٍّ لإنس
غير أنى أراه يشهد أنْ لم يك بانيه فى الملوك بنِكْسِ

بل هو يصرح بعد ذلك أن الفرس ليسوا قومه ، ولكن لهم فضل على العرب بما أيدوا من ملكهم ، وما خدموا فى دولتهم (أى وليس كذلك الترك) . وفضلا عن ذلك فإنه يألف الأشراف من كل جنس ، ويحب الأصول من كل قوم :

ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجِنس جِنْسى
غير نُعْمَى لأهلها عند أهــلى غرسوا من ذكائها خير غرس
أيَّدُوا مُلكنا وشــدُّوا قواه بكماة تحت السَّنورَ حُمْسِ
وأرانى من بعدُ أكلف بالأشرا ف طُرًّا من كل سِنْخٍ وأسٍّ

فهذه القصيدة ليست نزعة شعوبية من البحترى كما يرى بعضهم ، ولكنها — فيما أرى — حسرة على عهد الفرس بعد أن رأى عهد الأتراك ، وبكاء على عصر كان الفرس فيه يحتفظون بأبهة الخليفة وعظمته ، ويعملون ما عملوا فى

خدمته ، وألمّ من عصر الأتراك الذى محوا فيه سلطة الخليفة وسلبوه سلطانه ، وأخضعوه لإشارتهم ، وجعلوه تابعاً لأمرهم ونهيهم ، وأخيراً فعلوا فعلتهم الشنعاء فقتلوه أشنع قتلة ، ولم يرعوا له ولا للخلافة أية حرمة .

* * *

وقد خلف لنا الجاحظ رسالة فى موضوع العصبية عند مجىء الترك ، وهى رسالة كتبها للفتح بن خاقان التركى فى مناقب الترك ، تمثل لنا أصدق تصوير العصبية بين الجنود المختلفة لمّا جُند الأتراك ، وما يقال عن الجنود يصح أن يقال عن غيرهم . وقد ذكر فى هذه الرسالة أنه ألفها أيام المعتصم جالب الأتراك ، وأنه أراد أن يوصلها إليه فلم تصل ، لأسباب يطول ذكرها ، ولم يبين لنا شيئاً من هذه الأسباب ؛ والظاهر أنها لم تصل إليه لأن من كان فى قصر المعتصم من الفرس والعرب عملوا على ألا تقع فى يده فتعظم عصبيته للترك .

ويظهر أنه أعاد كتابتها من جديد على ضوء ما كان من عظمة الترك ، وقدّمها للفتح بن خاقان وزير المتوكل — وكل قوم من الجند فى ذلك العصر كان لهم أدباء وعلماء ومتحدثون ، يتكلمون فى مناقب قومهم وميزتهم عن غيرهم . أما الأتراك فلم يكن لهم شىء من ذلك ، فتعاون الفتح بن خاقان والجاحظ على أن يسدا هذا النقص ، ويبينا مناقب الترك ؛ فكتب الجاحظ رسالته فى ذلك وحكى فيها بعض أقوال الفتح . وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته فى إعلاء شأن الترك تقرباً لذوى النفوذ ، وإظهاراً لمزيته البلاغية ، بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد .

والرسالة قيمة جدا من ناحية حكاية ما كان يجول بخاطر الجند على اختلاف أنواعهم ونوع عصبيتهم . ويقول فيها إنه لا يريد أن يذكر مناقب الأتراك ويتبعه

بمعايب غيرهم ، بل يكتفى بذكر المناقب قصدا إلى الألفة وتوحيد القلوب . ولكنه بسط مناقب الترك و بالغ فى إعلاء شأنهم ، وأسبغ عليهم — بقلمه السيال وأسلوبه الواسع — عظمة وأبهة تكفيان فى إشعار القارئ أن الترك أعظم جند ، وأشجع قوم ؛ فهو بهذا الأسلوب الماكر رفع من شأن الترك ، ووضع من غيرهم تحت ستار الدعوة إلى الألفة .

حكى فى صدر الرسالة حكاية الفتح بن خاقان من أنه سمع رجلا يَقسم الجند فى عهد المتوكل إلى أقسام : خراسانى ، وتركى ، ومولى ، وعربى ، وبَنَوى [1] . فاعترض عليه الفتح وأبى هذا التقسيم ، ودعا إلى أن ينظر إلى الجند كوحدة لا كأجناس ، وأن هذا الجند مع اختلاف أجناسه متقارب الأنساب ؛ فالخراسانى والتركى متقاربان فى الشبه والصقع ، وأن القرب بينهما أكثر مما بين العدنانيين والقحطانيين مع أن كلهم عرب — وأن البنويين خراسانيون لأن نسب الأبناء نسب الآباء ، وأن الموالى أشبه بالعرب وأقرب إليهم ، وهم عرب فى المدعَى وفى العاقلة وفى الراية وقد جاء : « مولى القوم منهم » و « الولاء كلحمة النسب » وأن الأتراك صاروا من العرب لهذا المعنى ، لأن الأتراك موالى الخلفاء ، فهم موالى لباب قريش . وحكى عن الفتح ، أن هذه الأجناس بهذا المعنى يجب أن يكونوا متوازرين متكاتفين مطيعين محبين للخلفاء الخ الخ .

وهو كلام جيد نظريا ، ولم يكن واقعاً عملياً ، فالدعوة الجنسية كانت بالغة أشدها ، والعداوة بينهم متغلغلة فى أعماق صدورهم .

---

(١) فى الأصل بنونى ولكن فى أثناء الرسالة تأتى نبوى ، والظاهر أن صحتها بنوى . والبنوى نسبة إلى الأبناء ، وهو لفظ كان يطلق فى العصر العباسى على ذرية دعاة الدولة العباسية فى أول نشأتها .

ثم حكى الجاحظ عن « الفتح » أن هذا القائل ذكر مناقب كل جنس من الجنود وألغى ذكر الأتراك ، فذكر أن الخراسانيين يفخرون و يقولون إنا دعاة الدولة العباسية ونحن النقباء والنجباء ، وأبناء النجباء ، وبنا زال ملك بنى أمية ، ونحن الذين تحملوا العذاب وُبضعوا بالسيوف الحداد ، ندين بالطاعة ونقتل فيها ، ونموت عليها ؛ ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ، وجباه عراض ، وسواعد طوال ، وأبداننا أحمل للسلاح ، ونحن أكثر مادة ونحن أكثر عدداً وعدة ، ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا و بنودنا التى لا يحملها غيرنا علمت أنا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان ؛ ونحن أرباب النهى وأهل الحلم والحجى ، وأهل النجابة فى الرأى ، والبعد من الطيش ، وليس فى الأرض صناعة عراقية ولا حجازية ، من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة وارتفاع بناء ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرعت فيها الرؤساء وبذّت فيها العلماء الخ الخ .

والعرب يفخرون بالأنساب وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، و يلوح ما لاح نجم ، وبالكلام المنثور والقول المأثور وتقييد المآثر ، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم — قالوا — ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع فى الشرف والتحاكم إلى كل حَكَم مقنع ، وكاهن شجاع ؛ ونحن أصحاب التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب ، نقاتل رغبة لا رهبة . ثم ردوا على الخراسانيين بأن أكثر النقباء فى الدعوة العباسية كانوا من العرب الخ .

وفخر الموالى بأنهم موضع الثقة عند الشدة ، وأن شرف السادة راجع إليهم ، إذ هم منهم ، ثم لهم الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية — قالوا — ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الدهم ، وهم بنا آنس ، و إلينا أسكن ، و إلى

لقائنا أحنّ ، ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف الخ .

وقال البنوى ، إن أصلنا خراسانى وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدعوة ، ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا ينكر ، من الصبر تحت ظلال السيوف القصار ، والرماح الطوال ، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح ؛ ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الخبرة ، مع حسن القد ، وجودة الخرط ، ثم لنا الخط والكتابة ، والفقه والرواية ، ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنا وتتحرك ما تحركنا ؛ ونحن تربية الخلفاء وجيرانِ الوزراء ، وُلِدْنا فى أفنية ملوكنا ، ونحن أجنحة خلفائنا ، أخذنا بآدابهم ، واحتذينا على مثالهم .

فأخذ الجاحظ بعدُ يشيد بفضل الترك ، فيزعم أن كل الأجناد يرجعون إلى شىء واحد كما قال « الفتح » ؛ فالبنوى خراسانى ، والخراسانى مولى ، والمولى عربى بالولاء ، والأتراك خراسانية (أى بحكم القرب والجوار) ، فصار البنوى والخراسانى والمولى والعربى والتركى شيئاً واحدا ، فصار فضل التركى إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفهم زائدا فى شرفهم ، ورجا أنه إذا عرف سائر الأجناد ذلك تسامحت النفوس ، ومات الضغن وانقطع سبب الاستثقال .

بدأ الجاحظ دفاعه عن الأتراك بحكاية قصها عن قوم أيام المأمون تذاكروا أى الاثنين أشجع : الخارجي أم التركى ؟ (وكان الخوارج معروفين بين الناس إذ ذاك بأنهم أشجع جند وأصبر الناس على قتال) ، وانتهى من هذه القصة بنتيجة هى أن التركى أشجع من الخارجى ، لأن الخوارج عرفوا بعشر مزايا فى القتال ، والتركى يفضلهم فيها جميعاً ، لأنه أثبت عزما حتى لقد عوّد برذونه ألا ينثنى ، وهو أصدق رماية ؛ فالتركى يرمى الوحش والطير والناس فى سرعة و إصابة ؛ والخوارج إذا ولوا فقد ولوا ، ولكن التركى إذا ولى فهو السم الناقع ، لأنه يصيب بسهمه وهو

مدبر كما يصيب بسهمه وهو مقبل ؛ والتركى فى حال شدته معه كل شىء يحتاج إليه لنفسه ولسلاحه ولدابته ، والتركى هو الراعى وهو السائس ، وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار ، وهو الفارس ، وهو أصبر على السير وعلى الصعود فى ذرى الجبال ؛ والتركى فى بلاده لا يقاتل على دين ، ولا على تأويل ، ولا على ملك ، ولا على خراج ، ولا على عداوة ، ولا على وطن ، وإنما يقاتل على السلب ، فكيف إذا انضم إلى ذلك غضب أو تدين ، أو عرض له بعض ما يصحب القاتل من العلل والأسباب ؛ والأتراك قوم وُضع أصل بنيتهم على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب ، وهم أصحاب توقد واشتعال وفطنة ، وهم يرون الاكتفاء بالقليل عجزاً ، وطول المقام بلادة ، والراحة غفلة ، والقناعة من قصر الهمة .

ويقول بعد : إن كل أمة امتازت بشىء ، فأهل الصين فى الصناعات واليونان فى الحكم والآداب ؛ والفرس فى المُلْك والسياسية ؛ والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حُسَّابا ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل والموازين ، ولم يحتملوا ذلاًّ قط فيميت قلوبهم ، ويصغّر عندهم أنفسهم ، وكانوا سكان فياف ، وتربية عراء ، فوجهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللغة ، وتصريف الكلام ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، والبصر بالخيل والسلاح ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب — ومزية الأتراك فى الحروب ، وهم كذلك أصحاب عمد ، وسكان فياف ، وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ، ولا الطب والفلاحة والهندسة ، ولا غراس ولا بنيان ؛ ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد ، وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ،

وطلب الغنائم ، وتدويخ البلاد ، لذتهم فى الحرب ، وهى فخرهم وحديثهم وسمرهم ، وقد اتصفوا بالصفات التى تستتبع النجدة والفروسية ، من الكرم وبعد الهمة وطلب الغاية ، والحزم والعزم والصبر .

وبذلك انتهت رسالته الطويلة التى أوجزناها إيجازاً تاماً .

ومنها نستدل على أن العصبية فى هذا العصر كانت شديدة قوية ، كل عنصر يعدّد مزاياه ، ويُدل بها على من سواه ؛ فعربى يفخر بلسانه وسيفه ، وفارسى يفخر بسياسته ومُلكه الخ ؛ وأن الأتراك كانت مزيتهم حسن القتال وما يستتبعه من صفات ، فلم يفخروا بعلم ولا بسياسة ولا بسابقة دين ولا شىء من ذلك ، فلما كان هذا شأنهم فى قوة القتال ، غلبوا على كل سلطان .

أراد الفتح بن خاقان والجاحظ أن ينشرا عقيدة الوحدة بين الجنود وتناسى الأجناس ، ولكن أنَّى لهما ذلك ، والدين نفسه لم يستطع أن يمحو هذه العصبية ، وعمل الأتراك أنفسهم باستبدادهم وطغيانهم يحيى العصبية ويجعلها وسيلة للدفاع عن النفس ، بل وطريقة الجاحظ التى سلكها فى مناقب الأتراك من شأنها أن تقوى العصبية لا أن تضعفها !

☆ ☆ ☆

كان طبيعياً أن يزداد نفوذ الأتراك بقتلهم المتوكل وتنصيبهم المنتصر . وقد حكى الطبرى (أن المنتصر عزم على أن يُغزِى وصيفا (التركى) الثغر الشامى ، فقال أحمد بن الخصيب للمنتصر : « ومن يجترئ على الموالى (الأتراك) حتى تأمر وصيفا بالشخوص »)[1] — وأمر الأتراك المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد

---

(١) الطبرى : ٧٣/١١ .

من الخلافة خوفاً أن ينتقما — إذ وليا — من قتلة المتوكل ، وكان لذلك كارهاً ، فدعاهما المنتصر والأتراك وقوف وقال : « أترياني خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ؟ والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلى من أنْ يليها بنو عمى ، ولكن هؤلاء — وأومأ إلى سائر الموالى (يريد الأتراك) — ألحوا علىّ فى خلعكما ، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما »[1] .

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر ، وقبل أن يستخلف خليفة بعده ، استُحلف القواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش ، وجميعهم أتراك ؛ وهؤلاء قد اختاروا أحمد بن محمد المعتصم ، ولقبوه المستعين فبايعه سائر الناس .

ضايق الأتراك المستعين بعد ذلك ، وضايقوا الناس حتى ضج وضجوا ، ودبّروا المؤامرات لاغتياله ، فهرب من سامرا إلى بغداد ، فذهبوا إليه يعتذرون ، فقال لهم : « أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ، ألم ترفعوا إلىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم ، وهم نحو من ألفى غلام ؟ ! وفى بناتكم ، فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات ، وهن نحو من أربعة آلاف امرأة ؟ ! وفى المدركين والمولودين ، وكل هذا قد أجبتكم إليه ، وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ؛ ومنعت نفسى لذتها وشهوتها ، كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم ، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً ، وتهدداً وإبعاداً[2] » .

وهاج أهل بغداد « لما بلغهم مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى ، وكانا نابين من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيما غناؤهما عنهم ، فى

---

(١) طبرى : ١١/٧٦ . (٢) طبرى : ١١/٩٨ .

الثغور التى هما بها ، وقرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلاءهم على أمور المسلمين ، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء ، واستخلافهم من أحبوا استخلافه ، من غير رجوع منهم إلى ديانة ، ولا نظر المسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير »[1] .

هذا إلى أن الأتراك أنفسهم انشق بعضهم على بعضهم ، وتكونوا أحزاباً : هذا حزب داغر ، وهـذا حزب بغا ووصيف الخ ، وقتلوا داغرا ، وحارب بعضهم بعضا .

فلما لم يذعن لهم المستعين ، بايعوا المعتز بالله ، وانضم إليه أغلب الأتراك ، وكان مركزه سامرا ؛ وظل أهل بغداد على ولائهم المستعين و بيعتهم له ، ومعه ابن طاهر الفارسى الأصل وقليل من الأتراك ، وكانت سنة شديدة على الناس عذبوا فيها عذاباً شديداً من السلب والنهب والقتال .

وكان من حسن حظ الترك أن غَلبوا أخيراً ، ودخلوا بغداد منتصرين ، وخلعوا المستعين ثم قتلوه ، فكانت هذه خطوة أخرى فى سبيل سيادة الأتراك ؛ وفى ذلك يقول رجل من أهل سامرا وقيل إنها للبحترى :

لله دَرُّ عصـــابة تُركية ... رَدُّوا نوائبَ دهرهم بالسَّيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وطَغَوْا فأصبح مُلكنا متقسَّما ... وإمامُنا فيه شبيهَ الضيف

ومع هذا سرعان ما ضيقوا على المعتز ، وشعر منهم بالشر ، فكان لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفاً من بغا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسى أو رأسه لى ؟ وكان يقول : « إنى لأخاف أن

---

(١) طبرى : ١١/٨٥ .

ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض »[1] . ومن ناحية أخرى عزم المعتز على قتل رؤسائهم ، وأعمل الحيلة فى فنائهم ، فخلعوه وقتلوه .

وقد أكثر الشعراء فى ذلك العصر من وصف ما أصاب البلاد من سوء الحال وتحكم الأتراك فى الخلفاء ، وما عم الناس من الفوضى والاضطراب ، فقال فى ذلك بعض شعراء العصر فى مقتل المعتز :

بكرَ التركُ ناقمين عليه ... خَلَعَتْهُ ، أَفْدِيه من مخلوع
قتلوه ظلماً وجَوراً فألفَو ... ه كريم الأخلاق غير جزوع
لم يَهابوا جيشاً ولا رَهبوا السيف فَلَهْفِي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الأمر ، والعا ... لَمُ ما بين سامع ومطيع
ونرى الله فيهمُ مالك الأمر سيجزيهمُ بقتلٍ ذريع

وقال آخر :

قتلوه ظلماً وجَوراً وغَدْرا ... حين أهدَوْا إليه حتفاً مُريحا
نَضَّر اللهُ ذلك الوجه وجها ... وسَقَى الله ذلك الرُّوح رَوْحا
أيها الترك تُلَقَّون للدهر ... سيوفا لا تَسْتبِلّ الجريحا
فاستعدُّوا للسيف عاقبةَ الأمر ... فقد جئتمُ فَعالاً قبيحا

وقال آخر :

ألزموه ذنباً على غير جُرْمٍ ... فثوى فيهمُ قتيلاً صريعا
وبنو عمه وعم أبيه ... أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصحُّ مُلك ولا يُغْزَى عدو ولا يكون جميعا

ويقول عبد الله بن المعتز فى أرجوزته التاريخية المشهورة :

---

(١) المسعودى : ٢/٣٣٦ .

وكلَّ يوم مَلك مقتول أو خائف مُرَوَّعٌ ذليل
أو خالع للعقد كيما يَغْنَى وذاك أدنَى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش قد نغَّصوا عليه كل عيش
وكل يوم شَغَبٌ وغصب وأنفس مقتولة وحَـرب
وكم فتاةٍ خرجت من منزلِ فغصبوها نفسَها فى المحفِل
ويطلبون كلَّ يوم رِزْقا يرونه دَيْناً لهم وحَقا
كذاك حتى أفقروا الخلافه وعَوَّدُوها الرعب والمخافه الخ

* * *

شعر الناس بسوء الحالة العامة من سلطة الأتراك ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، وقويت هذه الفكرة عند الخليفة المهتدى ، وقد كان شجاعا قوياً ، مثله الأعلى عمر بن الخطاب ؛ فظن أنه يستطيع القضاء على سلطة الأتراك ، وأن الشعب يؤيده ، ولـكنه لم ينجح .

لقد أكثر الترك من مصادرة الناس فى أموالهم ، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنياً ؛ صادروا الـكتّاب وصادروا الأمراء الـكبار ، وأخيراً صادروا زوجة المتوكل وهى أم المعتز بعد أن قتلوا ابنها ، وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافوراً ، وكان لها أموال كثيرة ، وهربت إلى مكة ، وسُمعت وهى تدعو بصوت عال تقول : اللهم اخز صالحا[1] كما هتك سترى ، وقتل ولدى ، وشتت شملى ، وأخذ مالى ، وغرّبنى عن بلدى وركب الفاحشة منى[2] .

دبّر الأتراك مؤامرة لقتل المهتدى لأنه لم يعجبهم فى نزعته . وانتشر الخبر فى العامة أنهم قد اتفقوا على خلع المهتدى والفتك به ، وأنهم قد أرهقوه ،

(١) هو صالح بن وصيف التركى . (٢) ابن الأثير : ٧/٧٠ .

فكتب العامة الرقاع ورموها فى الطرق والمساجد مكتوبا فيها : « يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه » .

ولما وصل خبر المؤامرة إلى المهتدى تحول من مجلسه متقلداً سيفاً ، وقد لبس ثياباً نظافا وتطيب ، ثم أمر بإدخال هؤلاء الأتراك المتآمرين عليه ، فقال لهم : « بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى . وهذا سيفى . والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى ، والله لئن سقطت منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . أما دين ! أما حياء ! أما رِعْيَة ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله ، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسروراً بمكروهكم وحباً لبواركم ، خبرونى عنكم هل تعلمون أنه وصل إلىّ من دنياكم هذه شيء ؟ أما أنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتى وولدى ؟ ! تَعَرَّف ذلك — فانظر هل ترى فى منازلهم فرشا ، أو وصائف أو خدما أو جوارى أو لهم ضياع أو غلات ؟ سوأة لكم ! »(1) ولكن ماذا يغنى إشهار سيفه ، والتهديد بخطبته ، وقد أراد أن يضرب الأتراك بعضهم ببعض حتى يخلص منهم جميعاً ؛ ولكنه لم ينجح فى هذا أيضاً ، ودارت الدائرة عليه فقتلوه .

ومع هذا فقد كان لحركة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، وكان من أسباب ذلك أيضاً انتقال الخليفة من سامرا ، وهى حصن

---

(١) الطبرى : ١٩٤/١١ .

الأتراك ، إلى بغداد ، وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمى الخلافة من شرورهم . ولذلك رأينا سلسلة من الخلفاء بعده يقبضون على كثير من السلطان ، ويموتون حتف أنوفهم . فقد تولى بعد المهتدى المعتمد ؛ نعم إنه كان مسلوب السلطان محجوراً عليه . وقال فى ذلك أبياته المشهورة :

أليس من العجائب أنّ مِثْلِى يرى ما قَلَّ ممتنِعاً عليه
وتُوكَلُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تُحمل الأموال طرًّا ويُمنع بعضَ ما يُجْبَى إليه

ولكن الذى كان يحجر عليه هذه المرة هو أخوه الموفق ، لانصراف المعتمد إلى لهوه وملذاته ؛ والموفق فى أيامه كان بطلا ، ترك لأخيه المعتمد الخطة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، وأمسك هو بزمام الأمر والنهى ، وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ؛ ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء ، وكبح غير قليل من جماح الأتراك .

فلما جاء المعتضد بن الموفق سار سيرة أبيه ، وزاد فى رفع شأن الخلافة ، والأخذ على يد الأتراك بقدر ما يستطيع ؛ قال الفخرى : « كان المعتضد شهما عاقلا فاضلا ، حُمدت سيرته ، ولِىَ والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور ؛ وكان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى رعيته ، محسناً إلى بنى عمه من آل أبى طالب »[1] . وقد كثرت الفتن والأحداث فى أيامه نتيجة للفساد الذى كان قبل أيامه ، فجاهد فيها ما استطاع .

وقد نظم فيه « ابن المعتز » ابن عمه قصيدة طويلة هى صورة مصغرة لنمط

(١) ص ٣٦٢ .

الملاحم كالإلياذة والشاهنامه ، سدت بعض النقص فى الشعر العربى من هـذا النوع ؛ بدأها بذم الأتراك وما جنوا على البلاد ، ذكرنا طرفا منه فيما سبق ، ثم عدّد أعمال المعتضد ، وما قام به من حروب وما أتى به من إصلاح . وهى تعدّ بجانب مزيتها الأدبية وثيقة تاريخية هامة للأحداث فى عهد المعتضد .

واستبشر الشعراء بهمته ، فقال ابن الرومى :

هنيئاً بنى العباس إنّ إمامَـكم إمامُ الهُدَى والناسِ والجودِ أحمدُ

كما بأبى العباس أنشئ مُلـكـكم كذا بأبى العباسِ أيضاً يُجدّد

وقال ابن المعتز .

أما ترى مُلك بنى هاشم عاد عزيزاً بعـــد ما ذلَّلا

يا طالباً الملك كن مِثْله تســـتوجب المُلك وإلاَّ فلا

وعلى الجملة ، فقد مات بعد نحو عشر سنوات من حكمه ، خاف فيها الخلافة على حال أحسن بكثير مما كانت منذ وفاة الواثق .

وسار ابنه المكتفى بسيرة أبيه ، ولـكن الفتن التى بدأت فى عهد أسلافه استفحلت ، وعظم أمرها ، من إسماعيلية ، وقرامطة ، وفاطمية ؛ وانتهى القرن الثالث الهجرى والفتن قائمة ، والثورات مشتعلة ، وعلى الخلافة المقتدر بن المعتضد ، فعادت الخلافة إلى ضعفها الأول ، وعاد الأتراك إلى قوتهم .

و يظهر أن الأتراك والوزراء سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء ، أمثال المهتدى ، والمعتضد ، والمـكتفى ، فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنّة ويولوا عديم الـكفاية ، ولذلك طال اجتماعهم وتفـكيرهم بعد موت المـكتفى ؛ وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وهو كفء عالم أديب قادر ، فانصرفوا عنه إلى المقتدر ، وهو طفل عاجز ، فولوه حتى تتم لهم الرياسة . حكى مسكويه

أن وزير المكتفى العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلى الخلافة ، فقال له : « اتق الله ولا تنصّب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وفرس هـذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وتحنّك وحسب حساب نعم الناس[1] . قال الوزير : فبمن تشير ؟ قال ابن الفرات بجعفر بن المعتضد (هو المقتدر) . فقال الوزير : جعفر صبى ! قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد : ولِمَ تجىء برجل يأمر وينهى ، ويعرف مالنا ، وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ، ولم لا تسلم هـذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟ » .

وحكى الصُّولى « أنه عُهد إليه بتربية الراضى بالله وأخيه هارون ، فـكان يلقاهما مرتين فى الأسبوع وقد رآهما فطنين عاقلين ، إلا أنهما خاليان من العلوم . قال الصولى : « فحبّبت العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا فى ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لـكتبه ، وقرآ علىّ الأخبار والأشعار » . فـكان مما قرأه لهما الصولى كتاب « خلق الإنسان » للأصمعى ، فوشى الخدم . وقالوا : « إن الصولى يعلّمهما أسماء الفرج والذكر » ، فاجتهد الصولى فى نفى هذه التهمة ، وأراهم الـكتاب .

ثم لمـا تقدم الصولى فى تعليمهما ، وتطلع إلى مكافأته على ما عمل ، قيل له على لسان أهل القصر : « ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء . وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم » ؛ فلما سمع الصولى أتى نصراً الحاجب وأخبره بما قيل ، فبكى ، وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم[2] ؟ !

---

(١) يشير بهذا القول إلى ابن المعتز .

(٢) انظر الأوراق فى أخبار الراضى والمعتز ص ٢٦

وحكى فى موضع آخر ، أن الراضى بالله ، قبل أن يلى الخلافة ، كان يقرأ عليه (على الصولى) شيئاً من شعر بشار ، و بين يديه كتب لغة ، فجاء خدم من خدم جدته فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه فى منديل ؛ فغضب الراضى ، فسكنت غضبه وقلت : ليس ينبغى أن ينكر الأمير هذا ، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر فى كتب لا ينبغى أن ينظر فى مثلها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم ، إن هذه الكتب إنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار ، وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور والفار[١] .

فترى من هذا كيف كانوا يريدون الحجر على من يرشح للخلافة لينشأ جاهلا غراً ، فينصرف إلى لهوه ولذته ، و يترك لهم زمام الأمور والتصرف فى شؤون الدولة .

وكان من المؤيدين لتولية هذا الطفل مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن ، وغيرهما من الأتراك .

نعم كان مع ابن المعتز بعض الأتراك ، ولكن الغلبة والقوة كانتا فى جانب الذين مع المقتدر ، فتم الأمر للمقتدر ، وقتل ابن المعتز[٢] .

روى أنه لما اختلف أمر الناس ، و بايع بعضهم لابن المعتز ، سأل ابنُ جرير المؤرخ الكبير ، وكان فى آخر أيامه ، ما الخبر ؟ قالوا : بو يع ابن المعتز ، قال : فمن رشح للوزارة ، قالوا : محمد بن داود ، قال : فمن ذُكِر للقضاء ، قالوا : أبو المثنّى ، فأطرق ؛ ثم قال : هذا الأمر لايتم ، قيل له وكيف ؟ قال : كل واحد

(١) المصدر نفسه ص ٦ .

(٢) تجارب الأمم : ٥/٢ ، ٣ طبعة مصر .

ممن سميتموهم متقدم فى معناه ، عالى الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا[١] .

كان المقتدر صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، ومع ذلك لقبوه بالمقتدر ! ولما شب عكف على لذائذه ، وتوفر على المغنين والنساء ، وترك أمور الدولة لغيره وعلى رأسهم مؤنس التركى ، فبلغت الحال من بله الخليفة وسوء رجاله أقصى حد .

وأخيراً بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة ، قتل المقتَدرَ رجل من أصحاب مؤنس ، أضجعه فذبحه وسلب ثيابه حتى سراويله ، وتركه مكشوف العورة ، إلى أن مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش ، ثم حفر له فى الموضع ، ودفن حتى عفا أثره[٢] .

قال المسعودى فى المقتدر : « أفضت الخلافة إليه وهو صغير غِرّ تَرِف ، لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك ، فكان الأمراء والوزراء والكتّاب يدبرون الأمور ليس له فى ذلك حل ولا عقد ، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم ، فذهب ما كان فى خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع فى المملكة فأداه ذلك إلى سفك دمه ؛ واضطربت الأمور بعده ، وزال كثير من رسوم الخلافة[٣] ... وكانت فى أيامه أمور لم يكن مثلها فى الإسلام ، منها : أنه ولى الخلافة ولم يل أحد قبله من الخلفاء وملوك الإسلام فى مثل سنه ، لأن الأمر أفضى إليه وله ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام ؛ ومنها أنه ملك خمساً وعشرين سنة إلا خمسة عشر

(١) تاريخ الخلفاء : ١٥٢ .
(٢) تجارب الأمم : ٥/٢٣٧ .
(٣) التنبيه والإشراف ٣٧٧ .

يوماً ، ولم يملك هذا أحد من الخلفاء وملوك الإسلام قبله ؛ ومنها أنه استوزر اثنى عشر وزيراً ، فيهم من وزر له المرتين والثلاث ، ولم يعرف فيما قبله أحد استوزر هذه العدة ؛ ومنها غلبة النساء على الملك والتدبير ، حتى إن جارية لأمه تعرف بثَمِل القهرمانة كانت تجلس للنظر فى مظالم الخاصة والعامة ، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم[1] .

ولم تكن خلافة القاهر خيراً من خلافة المقتدر . وأخيراً اجتمع بعض قواد الجند وقبضوا على القاهر وهو سكران ، واستحضروا بختيشوع بن يحيى المتطبّب وسألوه أن يدلهم على من يُحسن أن يَسمُل ، فذكر لهم رجلا ، فأحضر وسَمَل[2] عينى القاهر ؛ ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء ، وقد سملوا بعده الخليفة المتقى واسمه إبراهيم ، فقال القاهر :

صرت وإبراهيمُ شيخَىْ عَمًى لا بد للشيخين من مُصْدِرِ
ما دام تُوزُونُ له إمرة مُطاعة فالميـــلُ فى المِجْمَرِ

وقد وقف القاهر يوماً — بعد أن سُمل وحبس وبويع غيره ثم أطلق — فى جامع المنصور بين الصفوف وعليه مبطنة بيضاء ، وقال : تصدَّقوا علىَّ فأنا من قد عرفتم[3] .

وحدّث أبو الحسن العروضى مؤدب الخليفة الراضى ، قال : اجتزت فى يوم مهرجان بدجلة بدار بَجْكم[4] التركى ، فرأيت من الهرج والملاهى واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله ؛ ثم دخلت إلى الراضى بالله ، فوجدته خالياً بنفسه

---

(١) التنبيه والإشراف : ٢٧٨ .

(٢) سمل العين : فقؤها بحديدة محماة وقلعها . وقد نقلوا هذه العادة عن البيزنطيين .

(٣) كان ذلك فى أيام المستكفى ليشنع عليه .

(٤) فى الأصل يحكم وهو خطأ

قد اعتراه همّ ، فوقفت بين يديه ، فقال لى : ادْنُ ، فدنوت ، فإذا بيده دينار ودرهم ؛ فى الدينار نحو من مثاقيل ، وفى الدرهم كذلك ، عليه صورة « بجكم » شاك فى سلاحه ، وحوله مكتوب :

إنما العز فاعلم ، للأمير المعظَّمْ ، سيد الناس بَجْكَمْ

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها ، جالس فى مجلسه كالمفكر المطرِق .

فقال الراضى : أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته ، وما تحدِّثه به نفسه ؟ ! فلم أجبه بشىء ، وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس وغيرها ، وما كانت تلقى من أتباعها ، وصبرهم عليهم ، وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فسلا عما عرض لنفسه . ثم قلت : يمتع الله أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون فى هذا الوقت حيث يقول :

صِلِ النُّدمان يومَ المِهْرَجان ... بصافٍ من مُعَتَّقَه الدِّنان

بكاسٍ خُسْرُوانِيٍّ عتيق ... فإن العيد عيد خُسْرُوانى

وجنِّبنى الزَّبيبِيِّين طرًّا ... فشأنُ ذوى الزبيب خلاف شانى

فأشربها وأزعمها حراما ... وأرجو عفو ربٍّ ذى امتنان

ويشربها ويزعمها حلالا ... وتلك على الشقىِّ خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية وقال لى : صدقت ، ترك الفرح فى مثل هذا اليوم عجز ! وأمر بإحضار الجلساء ، وقعد فى مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوماً كان أحسن منه فى الفرح والسرور[1] .

* * *

هذا فى إيجاز تام — حال الأتراك من حيث علاقتهم بالخليفة والخلافة وشؤونها .

(١) مروج الذهب : ٢/١١٤ .

وللأتراك فى هذا العصر ناحية أخرى اجتماعية لها أثر كبير فى حياة المسلمين ، فقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر فى دخول كثير منهم فى الإسلام وانتشارهم فى المملكة الإسلامية . فمسكويه يذكر فى حوادث سنة ٣٤٩ أنه فى هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتى ألف خِرْكَاه[1] ، والخركاه هى الخيمة التى تسكنها الأسرة ، أى أن من أسلم نحو مائتى ألف أسرة ، فإذا كان متوسط الأسرة خمسة أشخاص كان مجموع ذلك نحو ألف ألف شخص ، ولا شك أن هذا العدد ، ومن أسلم قبله ، ومن أسلم بعده ، فى اندماجهم فى المسلمين يؤثر أثراً كبيراً .

كان هؤلاء الأتراك أقوياء أشداء أصحاء كما تستلزمه طبيعة بلادهم ، وبداوة معيشتهم . وقد ذكر لنا الجاحظ فيما سبق أنه أطلق على الأتراك « أعراب العجم » ، ويعنى بالأعرابية البداوة ، وهذه البداوة تكسبهم قوة فى البدن وخشونة فى الطبع ؛ وقد تجلى هذا فى معاملتهم الناس ، فضج منهم أهل بغداد فى عصر المعتصم . ولكن مرور الأزمان عليهم ، واستيلاءهم على البلاد المنعمة المترفة ، وكثرة الأموال فى أيديهم ، حضّرهم ، وعلمهم النعيم والبذخ ، وحمل بعضهم على العبث بالأخلاق . حكى التنوخى أن شيخاً من التجار كان له على بعض القواد مال جليل يماطله به ، ولم يستطع الظلامة إلى الخليفة المعتضد ، لأنه كان إذا جاء حجبه القائد واستخف به غلمانه ، فدلّوه على خياط فى سوق الثلاثاء ، فأمر الخياطُ القائد بدفع ما عليه للتاجر ففعل ؛ فعجب التاجر من هذا الذى رأى ، وألح عليه فى السؤال عن سبب خضوع القائد ! فقص عليه أنه مر مرة فى الطريق فرأى تركيا على داره ، وقد اجتازت امرأة جميلة عليه فتعلق بها وهو سكران

(١) تجارب الأمم : ١٨١/٦ .

ليدخلها داره ، وهى ممتنعة تستغيث ، وليس أحد يغيثها ، وتقول إن زوجى قد حلف بالطلاق ألا أبيت خارج بيته ، فإن بيّتنى هذا أخرب بيتى مع ما يرتكبه منى من المعصية ، و يلحقه بى من العار .

قال الخياط : فجئت إلى التركى ورفقت به وسألته تركها ، فضرب رأسى بدبوس كان فى يده فشجنى وآلمنى ، وأدخل المرأة داره ، فجمعت جمعاً وجئنا فضججنا على بابه ، فخرج إلينا فى عدة من غلمانه فأوقع بنا الضرب ، وذهبت إلى بيتى ولم أزل أفكر فى هذه المرأة حتى انتصف الليل ، فقلت هذا التركى قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات ، فإن أذّنت لوقع له أن الفجر قد طلع ، فيُطْلِق المرأة فتلحق بيتها قبل الفجر فتسلم من أحد المكروهَين ، ولا يخرب بيتها مع ما قد جرى عليها . فخرجْتُ إلى المسجد وصعدت المنارة فأذّنت ، وجعلت أتطلع منها إلى الطريق أترقب خروج المرأة فلم تخرج ، وإذا الشارع امتلأ خيلا ورجالا ومشاعل ، وهم يقولون من هذا الذى أذّن الساعة ؟ ! ففزعت ، ثم صحت من المنارة أنا أذنت . فقالوا لى انزل ، فأجب أمير المؤمنين . ثم ذهب بى إلى المعتضد ، وقص عليه القصة ، فأحضر التركى والمرأة ؛ فلما تحقق من صحة قولى أمر برد المرأة إلى زوجها وأن يتمسك بها ويحسن إليها ، وقال للتركى : كم عطاؤك ؟ قال كذا وكذا . قال : وكم وظائفك ؟ قال كذا وكذا ، وجعل المعتضد يعدد ما يصل إليه ، والتركى يقر بشىء عظيم ، ثم قال له : فكم جارية لك ؟ قال كذا وكذا . قال أفما كان فيهن وفى هذه النعمة العريضة كفاية عن ارتكاب معاصى الله ، وخرق هيبة السلطان ! ثم أمر به فقتل . قال الخياط : وأمرنى المعتضد إذ رأيت مثل هذا العمل أن أؤذن . وانتشر الخبر فما سألنا أحداً منهم بعدها إنصافاً إلا فعل[1] .

---

(١) الحكاية بطولها فى نشوار المحاضرة : ١/١٥٢ ، وما بعدها .

ورأينا كثيراً من قواد الأتراك — عند استيلائهم على الدولة — شرهين ، وكان مظهر شرههم كثرة مطالبتهم للخلفاء بالأموال من حين لحين ؛ فإذا نصبوا خليفة فسرعان ما ينقلبون عليه يطالبونه بالأموال ، فإن أعطاهم سكتوا قليلا ثم عادوا إلى المطالبة وإلا قتلوه ؛ ومن أجل ذلك كثر إخفاء المال فى سرداب أو حفرة فى الأرض ، أو بناء حوائط عليه أو نحو ذلك خوفاً من إلحاحهم . نسوق مثلا لذلك ما فعلوه مع المعتز ، « فقد هجم قوادهم عليه وقالوا أعطنا أرزاقنا ، فطلب من أمه مالا فأبت عليه ، ولم يكن فى بيوت المال شىء ، فاجتمع الأتراك حينئذ على خلعه » .

ومظهر آخر من إفراطهم فى حب المال ، وهو ما نقرأ فى تاريخ ذلك العصر من كثرة المصادرة للأموال — نعم كان قبل ذلك فى العصر العباسى الأول شىء من هذا القبيل ، ولكنه قليل ؛ أما فى هذا العصر فأصبح العادةَ المتبعة . وكان أول مظهر لهذه الكثرة فى عهد المتوكل ، وهو أول عهد استيلاء الأتراك ؛ فقد صادر محمدَ بن عبد الملك الزيات ، وأخذ ما فى منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان ، وكذلك فعل مع أهل بيته ؛ وقبض على عمر بن فرج الرُّخَّجى ، وكتب فى قبض ضياعه وأمواله ؛ وغضب على أبى الوزير وأخذ منه ستين ألف دينار ؛ وضرب إبراهيم بن الجنيد النصرانى حتى أقر بسبعين ألف دينار فأخذها منه ؛ وعزل يحيى بن أكثم وقبض منه ما كان له ببغداد ، ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار ؛ وغضب على بختيشوع وقبض ماله . وصادر أموال أحمد بن أبى دواد ، مع أنه سبب خلافته ، واستصفى أمواله وأموال أبنائه ، فحمل إليه من ذلك مائة ألف درهم ، وعشرون ألف دينار ، وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار[1] . وهكذا افتُتح عهد الأتراك بكثرة المصادرات ، واستمرت طوال

(١) انظر هذه الأحداث كلها فى تاريخ الطبرى فى خلافة المتوكل .

هذا العصر ، حتى لم يرحموا قبيحة أم المعتز فسلبوها كل مالها ، وكانت خبأته . وكان الخليفة أحياناً يضطر إلى كثرة المصادرات لتلبية مطالب القواد .

وكان كثير من أمراء البلدان فى هذا العصر من الأتراك ، كما هو الشأن فى مصر ؛ فمن سنة ٢٤٢ هجرية وحكام مصر أتراك ، وذلك منذ ولّى على مصر يزيد ابن عبد الله بن دينار التركى . وقبل ذلك بنحو عشرين عاماً كانت مصر تُمنح لحاكم تركى فى الغالب يقيم فى بغداد ، ويستخلف عنه أميراً يقيم فى مصر ويديرها نيابة عنه كأشناس وإيتاخ . واستمرت سيادة الأتراك فى مصر طول مدة الطولونيين الأتراك والإخشيديين الأتراك أيضاً ، فكان بيد هؤلاء الولاة الأتراك السلطان والقوة والمال .

وهناك لون آخر مما لونوا به الحياة الاجتماعية ، وهو ما عرف عنهم من جمال ونظافة ، فكان ذلك سبباً فى كثرة الجوارى المماليك الأتراك فى قصور الخلفاء والعظماء والأغنياء ، حتى إن بعض الخلفاء أنفسهم فى هذا العصر كانت أمه جارية تركية ؛ فالمعتصم أمه تركية ، والمتوكل كذلك أمه خوارزمية ، والمكتفى بالله أمه تركية اسمها چيچك ، والمقتدر بالله أمه أم ولد قيل تركية وقيل رومية الخ .

كما اشتهر فى بيوت الأمراء جوار تركيات ، واشتهرت سمرقند بأنها مركز هام لتجارة الرقيق الأبيض . وقد وصف ابن بطلان فى رسالته فى الرقيق الجوارى التركيات فقال : إن « التركيات قد جمعن الحسن والبياض ، ووجوهن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة ، وقدودهن ما بين الربع والقصر ، والطول فيهن قليل ؛ ومليحتهن غاية ، وقبيحتهن آية ؛ وهن كنوز الأولاد ، ومعادن النسل ، فلما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردىء التركيب ، فيهن نظافة ولباقة . . . لا يكاد يوجد فيهن نكهة

متغيرة . . . وفيهن أخلاق سمجة ، وقلة وفاء » .

وتغزل الشعراء فى ذلك بغلمان من الأتراك ، وكان منهم فى القصور ودور العظماء كثيرون . فرووا أنه فى وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة البويهيَّيْن أسر غلام تركى لعز الدولة ، فجن عليه واشتد حزنه وامتنع من الأكل ، وأخذ فى البكاء واحتجب عن الناس ، وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرد الغلام إليه ، فصار ضحكة بين الناس ، وعوتب فما ارعوى لذلك ، وبذل فى فداء الغلام جاريتين عُوديتين كان قد بذل له فى الواحدة مائة ألف ، وقال للرسول إن توقف عليك فى رده فزد ما رأيت ولا تفكر ، فقد رضيت أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض ! فرده عضد الدولة عليه[1] .

وروى أبو إسحاق الصابى أنه كان لمعز الدولة غلام تركى يدعى تكيز الجامدار ، أمرد رومى الوجه ، منهمك فى الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به ، جعله رئيس سَرِية جردها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ، ويرى أنه من عُدَد الهوى لا من عُدد الوغى ، فقال فيه :

ظَبْىٌ يرقّ الماء فى وَجَناته ويروق عُوده
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومِنْطَقَةً تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

فما أسرع أن كانت الدائرة على هذا القائد[2] .

وكان لسيف الدولة الحمدانى مملوك تركى جندى اسمه يَمَاك ، مات بحلب

(١) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ .
(٢) نزهة الجليس : ٢/٥٦

سنة ٣٤٠ فحزن عليه حزناً شديداً ، وقال المتنبي قصيدة يعزيه فيها مطلعها :

لا يُحْزِنِ اللهُ الأمير فإنني ... سآخذ من حالاته بنصيب

وفيها :

لَأَبقَى يمَاكٌ فى حشاى صبابة ... إلى كل تُرْكى النِّجار جَليب

وما كلُّ وجه أبيضٍ بمبارَك ... ولا كل جفن ضيّق بنَجيب

وفيها :

وإن الذى أمست نزارٌ عبيدَه ... غنىٌّ عن استعباده لغريب

وقال أبو تمام — وقد أهدى له الحسن بن وهب — غلاماً خزرياً :

قد جاءنا الرَشأُ الذى أهديتَه ... خِرْقاً[1] ولو شئنا لقلنا المركبُ

لدْنُ البَنان له لسانٌ أعجمٌ ... خُرْس معانيه ووجه مُعْرَبُ

يرنو فيثلمُ فى القلوب بطَرفه ... ويعَنّ للنظر الحَرُون فيُصْحِبُ[2]

قد صرّف الراءون خمرة خده ... وأظنها بالريق منه ستُقْطَبُ[3]

وأحب مهذب الدين الطرابلسى غلاماً مملوكا له اسمه « تتر » ، فبعث مرة هدايا إلى الشريف المرتضى نقيبِ الأشراف مع هذا الغلام ، فتوهم الشريف أنه من جملة الهدايا ، فأخذه ، فساءت حال مهذب الدين وكان شيعياً ، فقال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

عذّبتَ طَرفى بالسهر ... وأذبت قلبى بالفِكَر

ومزجتَ صفْو مودّتى ... من بعد بُعدك بالكدر

وفيها :

نفسى الفداء لشادنٍ ... أنا من هواه على خَطر

---

(١) الخرق : الفتى الحسن الخلقة .

(٢) النظر الحرون : الشارد . وأصحب انقاد بعد صعوبة . يريد أنه لو نظر إليه الخلى لوقع فى شراكه . (٣) صرف : شرب صرفا . وتقطب : تمزج .

عـــذل العذول وما رآ ه فحينَ عاينـــه عَذَر

وقد كان مهذب الدين هذا شيعياً ، فهدد الشريفَ بأنه إن لم يرسل الغلام يهجر التشيع و يدخل فى مذهب أهل السنة ، وفى ذلك يقول :

لئن الشريف الموسوى (م) ابن الشريف أبى مضر
أبدى الجحود ولم يَرُدَّ (م) إلىّ مـــــلوكى تتر
وَالَيْتُ آل أميـة الطهـــر الميامين الغُـــــرر
وجحدت بَيْعة حيدر وعَدلت عنه إلى عمر[1]

وأخيراً قال الشاعر :

الله أكبر ليس الحُسن فى العرب كم تحت لِمَّةِ ذا التركى من عجب

* * *

أما من الناحيـة العقلية — وهى التى تهمنا هنا — فإنا نرى أن ابتداء سلطان الأتراك — وكان ذلك فى عهد المتوكل — مصحوب بمظاهر جديدة تخالف كل المخالفة ما كان من قبل ، أهمها ثلاث :

(١) إلغاء سلطان المعتزلة و إعلاء شأن المحدِّثين ، فنهى المتوكل عن القول بخلق القرآن والجدال فى الكلام ، «وأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وذلك فى سنة ٢٣٤ ؛ واستقدم المحدّثين إلى سامَرّا ، وأجزل عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية »[2] .

وكتب كتابا إلى الأمصار يأمر بترك الجدال فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة وضيّق عليهم ؛ فرئيس الاعتزال فى مصر وهو محمد بن أبى الليث ،

(١) القصيدة بطولها فى تزيين الأسواق لداود الأنطاكى : ٢/٢١ .
(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٨ .

جاء كتاب المتوكل بحلق رأسه ولحيته وضرب به بالسوط ، وحمله على حمار بإكاف وتطوافه الفسطاط ، ثم أخرج إلى العراق[١] ؛ وأحمد بن أبى دواد رأس الاعتزال فى العراق قد غضب عليه المتوكل وعلى ابنه محمد وصادر أموالهما — وما أظن أن الجاحظ المعتزلى نجا من النكبة إلا لأنه مَرِن ، وقد دفع عنه الشر بمرونته ، وبما قدم من رسالته فى إعلاء شأن الأتراك ، واتصاله بالفتح بن خاقان — وفى الوقت نفسه أعلى المتوكل شأن المحدّثين ، فكرّم أحمد بن حنبل . وفى عهده جلس أبو بكر بن أبى شيبة فى جامع الرصافة يحدث الناس ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ؛ وجلس أخوه عثمان فى جامع المنصور ، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس[٢] .

وتبلور عداء الناس للمعتزلة فى أبى الحسن الأشعرى ، فقد ولد بعد المتوكل بنحو اثنى عشر عاما ، وتثقف ثقافة المعتزلة ، ثم عاداهم وأعلن الحرب عليهم ، ودعا إلى مذهب كلامى اعتنقه جمهور كبير من المسلمين ، كما سيأتى . فالأشعرى يمثل لموجة الحديثة التى أتت فى عهد المتوكل تهاجم المعتزلة وتنصر المحدّثين وأهل السنة ، وهو ليس إلا معبّراً عن ميول عصره ، وصدى لصوت زمانه . رجع عن الاعتزال « ورقى كرسياً فى المسجد الجامع بالبصرة ، ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، مقتعد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم »[٣] . وقال أبو بكر الصيرفى : « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فجحرهم فى أقماع السمسم » . ولكن الحق أنه ما كان له هذا لولا ما كان من المتوكل

---

(١) تاريخ الولاة والقضاة : ٤٦٥ . (٢) الخلفاء : ١٣٨ .

(٣) ابن خلكان : ٤٦٤/١ .

من الحجر عليهم ، والتنكيل بهم ، وتأييد الجمهور — بتأثير المحدّثين — لهذه الحركة .

والواقع أن هذه الحركة ، وأعنى بها اضطهاد المعتزلة ونصرة المحدّثين ، كان لها أثر كبير فى حياة المسلمين من ذلك العهد إلى اليوم ؛ فقد لونت حياتهم بلون خاص ، ظلوا يحافظون عليه طوال العصور المختلفة .

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل فى مناح شتى من الحياة ، وتحريره من كثير من القيود بعد الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان بالقرآن ، وحصر الحديث فى دائرة ضيقة — كما تقدم — وإشعار الإنسان بالمسئولية لأن أعماله صادرة عنه ، ولكنهم — مع الأسف — آمنوا بهذه الحرية وأرادوا أن ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان ، فكانت حرية بالإكراه .

وطبيعة المحدّثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها ، وتضييق دائرة العقل ، واحترام الرواية إلى أقصى حد ، والبحث وراء ألفاظ الحديث ومعانيه وأسانيده ؛ وهذا — مع اعترافنا بما له من مزايا — يستتبع نمطاً فى التفكير خاصاً يسود فيه تقديس النقل أكثر من تقديس العقل ، والتقليد دون الاجتهاد ، والوقوف عند النصوص دون التعمق فى مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلى فى الكليات نظر البغض والكراهة ، وعد المفكر على هذا النمط ملحداً أو زنديقاً الخ . وهذا هو الذى ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترم نقد العقل ، واحترم العالم واسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية ، أكثر مما احترم قليل الحفظ واسع أفق العقل ، وأكرم العالم المقلد أكثر مما أكرم العالم المجتهد ، ونظر إلى المحدث والفقيه بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد ، وضاقت دائرة

التفلسف إذا قيست بدوائر العلم فى الفروع الأخرى .

كل هذا وأكثر منه كان نتيجة لهذه الحركة . وأعتقد أن الأتراك فى ذلك العصر مسئولون لدرجة كبيرة عن هـذا ؛ فطبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الـكلامى ، ولا كثرة المذاهب الدينية . فالأتراك فى جميع عصورهم قلّ أن نرى منهم من اعتنق مذهباً فى الأصول غير مذهب أهل السنة وفى الفروع غير مذهب أبى حنيفة ، وقل أن نرى بين علمائهم خصومة فى المذاهب كالتى كنا نراها فى العراق من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، ونحو ذلك ؛ إنما هو مذهب واحد يسود — غالباً — ويتوارث . ومع هذا فلسنا ننكر أن فيهم أفذاذاً فى سعة النظر وقوة التفكير — كما سيأتى بيانه — ولـكن هذا هو النظر العام .

(٢) الإيقاع بالشيعة إيقاعا بالغاً : ففى سنة ٢٣٦ « أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يُبْذَر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ؛ فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه فى المطبق ، فهرب الناس وتركوا زيارته ، وخرب وزرع . وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب ولأهل بيته ، وكان يقصد من يبْلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم . وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث ، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلح ، ويرقص بين يدى المتوكل والمغنّون يغنون : قد أقبـل الأصلع البطين ، خليفة المسلمين ، يحكى بذلك علياً عليه السـلام ، والمتوكل يشرب ويضحك »[١] ، « وقيل إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء — المأمون والمعتصم والواثق — فى محبة علىّ وأهل بيته ، وإنما كان ينادمه ويجالسه

---

(١) ابن الأثير : ١٩/٧ .

جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ ، منهم على بن الجهم الشاعر الشامى ... وعمرو بن فرج الرُّخَّجِى ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة ... وابن أترجة ، وكانوا يخوفونه من العلويين ، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان ، فغطت هذه السيئة جميع حسناته»[١]

ورووا أن المتوكل كان قد اتصل به يعقوب بن إسحاق النحوى المعروف بابن السكِّيت ، فسأله المتوكل أيما أحب إليك ، المعتز والمؤيد (ابنا المتوكل) ، أو الحسن والحسين ؟ فتنقّص ابنيه ، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما أهل له ، فأمر الأتراك فداسوا بطنه ، فحمل إلى داره فمات[٢] .

وهذه الحوادث وأمثالها فى التنكيل بالشيعة قد كان لها مثيل من قبل فى العهدين الأموى والعباسى الأول ، إلا أنا نريد أن نثبت هنا أن سلطان الأتراك لما ظهر صحبه عودة التنكيل بالشيعة ، وكان قد هدأ فى عهد المأمون والمتعصم والواثق . .

وهذه الظاهرة أيضاً لازمت الأتراك طول عهدهم ، فكل تاريخهم مملوء بكراهيتهم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم — وهم سنيّون — وبين الفرس ، وهم شيعة .

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سبباً كبيراً من أسباب تدبير الشيعة للمؤامرات والدسائس والفتن للخروج على الدولة العباسية فى بغداد ، وإقامة حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق كما سيأتى .

(٣) المظهر الثالث : اضطهاد اليهود والنصارى . فقد « أمر المتوكل بأخذ

---

(١) ابن الأثير : ٧/٢٠ . (٢) ابن الأثير ٧/٣١ .

النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير ، وركوب السروج بركب الخشب ، وبتصيير زِرَّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٍ لونهما لون الثوب الظاهر عليه ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى منهما خلف ظهره ، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسلياً ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسل ، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا فى إزار عسلى . . . وأمر بهدم بيعهم المحدَثة ، وبأخذ العُشْر من منازلهم ، وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً ، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء . وأمر بأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى فيها أحكامهم على المسلمين ، ونهى أن يتعلم أولادهم فى مكاتب المسلمين ؛ ولا يعلّمهم مسلم . . . وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ؛ وكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك »[1] . وقد علل عمله هذا فى كتابه بأنه يريد إعزاز الإسلام ، وإذلال الكفر ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزى فى الدنيا والآخرة على الكافرين . وقال على بن الجهم فى ذلك :

العَسَليات التى فَرَّقَتْ بين ذوى الرُّشْدَةِ والغَىْ
وما على العاقل إن يكثروا فإنه أكثر للفَىْء[2]

نعم ، ربما كان هذا نتيجة لسوء العلاقة بين المسلمين والروم ، ومهاجمة الروم لبلاد المسلمين من حين لحين ، ولكن مهما كان الأمر فهى حالة سيئة تدل على

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٦/١١ ، وفيه نص هذا الكتاب الذى أرسله المتوكل للأمصار .
(٢) يريد الفىء .

ضيق العقل ، ومخالفته للنظر الواسع الحكيم الذى أمر به الإسلام ، ونفذه خلفاء المسلمين الأولون ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب فى حكمة ورفق ! وكان هذا أيضاً مما أفسد قلوب عدد كبير من الرعية كان يُستخدم من قبل فى مصلحة الدولة ، وحرك عدداً منهم للثورة ، كثورة نصارى أرمينية على محمد بن يوسف عامل المتوكل على أرمينية وأذربيجان ، وقتلهم إياه[1] ونحو ذلك .

* * *

وقد أراد بعض من أتى بعد المتوكل من الخلفاء أن يزيلوا هذه المظاهر أو بعضها ، كالذى فعل المنتصر ، فقد أراد أن يعيد الاعتزال إلى سلطانه ، وأراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ، ولكن لم تطل مدته ، ولم يمكنه الزمان ولا حالة الناس من تنفيذ ما أراد .

* * *

لم يكن لهذا النوع من الأتراك مدنية وحضارة قديمة ، إذ كانوا بدواً أو أشبه بالبدو ، فلم يكن شأنهم عند ما اندمجوا فى المملكة الإسلامية شأن الفرس ؛ فالفرس عندما فتحت بلادهم ، وأسلم كثير منهم واندمجوا فى المملكة الإسلامية ، أعطوا وأخذوا ، وانتفع بهم المسلمون من ناحية الثقافة : بمثل الكتب التى نقلت من الفارسية إلى العربية ، ومثل الألفاظ الفارسية التى نقلت إلى العربية ، ومثل نظم الحكم التى أتقنوها فى مملكتهم ، إلى غير ذلك مما شرحناه قبل ؛ كما أخذوا هم عن العرب اللغة والدين . وكان من الفرس رجال مثقفون ثقافات واسعة كالبرامكة ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وابن المقفع ، فأثروا فى الثقافة الإسلامية أثراً كبيراً بما مزجوا من الثقافتين الفارسية والعربية . أما الأتراك

---

(١) انظرها فى تاريخ ابن العبرى ص ٢٤٧ .

فجاءوا بشجاعتهم وقوة أبدانهم ، وبعاداتهم وتقاليدهم لا بحضارتهم وثقافتهم ، فكانوا من ناحية الحضارة والثقافة قابلين لا فاعلين ؛ جاءا لا يعرفون اللغة العربية فتعلموها فى بطء ، ولم يتقنها بعضهم إلا بعد ذهاب الجيل الأول منهم ، فكانوا يتخاطبون بترجمان .

ويحدثنا الصُّولى أن «بجكم» أمير الأمراء فى عهد الراضى والمتقى ، كان يحسن العربية فهماً ولا يحسنها كلاماً ، « وكان يقول أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ فى لفظى ، والخطأ من الرئيس قبيح ، فلذلك أدع الكلام »[1] .

ولم يتقنوها فى سرعة ومهارة كما فعل الفرس ، فما أتى الجيل الثانى والثالث على الفرس حتى رأيناهم قد أمسكوا بزمام الأدب شعراً وكتابة وتأليفاً علمياً ، وليس كذلك الأتراك ، فقلّ أن نرى منهم شاعراً أو ناثراً بالعربية ، وعلى الأخص فى الأجيال الأولى من إسلامهم — وأسلم الأتراك الأولون فكان إسلامهم ذا لون خاص ، فيه نواحى قوة ونواحى ضعف ، فهو دين شديد لا يقبل جدالا ولا مناقشة ، ولا يقبل مذاهب مختلفة ؛ وعلى العكس من ذلك الفرس ، فكان إسلامهم فيه الجدل الشيعى وغير الشيعى ، وفيه المقارنة بينه وبين المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وفيه التزندق أحياناً والتفلسف أحياناً ، وفيه المذاهب المختلفة التى ظهر أثرها فى العراق أيام سلطانهم . أما مؤرخ الإسلام عند هؤلاء الأتراك فلا يرى مجال القول فسيحاً كما يراه عند الفرس ، ولكل من هذين النوعين من التدين مزاياه ومضاره ، كالفرق بين إيمان العجائز وإيمان الفلاسفة .

أخذت طائفة من الأتراك يتعلمون اللغة العربية والدين ، وربما كان خير مثل لتعلم الطبقة الممتازة من الأتراك ما كان من أحمد بن طولون ، فقد أخذ يتعلم

---

(١) الصولى ، أخبار الراضى والمتقى : ١٩٤ .

على حين أن كثيراً من أمثاله لا يعنون بالتعلم . قال المقريزى : « نشأ أحمد بن طولون نَشْأً جميلا غير نشء أولاد العجم (يريد الترك) ، فوصف بعلو الهمة ، وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما كان يترامى إليه أهل طبقته »[1] ، فدرس العربية ، وحفظ القرآن ، وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وكان ذلك كله وهو فى بغداد ، ثم خرج إلى طرسوس مراراً ، وأخذ الحديث عن كبار المحدثين فيها ، « فظهر فضله واشتهر عند الأولياء ، وتميز عن الأتراك »[2] . فكان فى هذا من خير الأتراك ، بل كان هو نفسه « شديد الإزراء على الأتراك وأولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء ، غير راض بذلك ، ويستقل عقولهم ، ويقول حرمة الدين عندهم منهوكة »[3] .

فإذا كانت ثقافة أحمد بن طولون هذه تعد ثقافة ممتازة بين الأتراك ، استطعنا أن نستنتج ضيق ثقافة الأتراك عامة فى هذا العصر .

ومع هذا فإنا نرى بعض الأتراك من أوائل هذا العصر وبعده نبغوا فى فنون مختلفة على قلة فيهم .

فنرى مثلا « الفتح بن خاقان » التركى قال فيه ابن النديم : « كان فى نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، واتخذه المتوكل أخا ، وكان يقدمه على جميع أولاده ، قتل مع المتوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ » . وكانت له خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء الكوفيين والبصريين ؛ وروى المبرد شيئاً من شعره — وكان يتعشق غلاما له اسمه شاهك ، وله فيه أشعار ، منها :

---

(١) الخطط : ١/٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه .   (٣) النجوم الزاهرة : ٣/٤ .

أشاهِكُ ، ليلى مذ هجرتَ طويل وعينى دماً بعد الدموع تسيل
وبى منك — والرحمنِ — ما لا أُطيقه وليس إلى شكوى إليك سبيل
أَشاهِكُ لو يُجزَى الحِبُّ ، بودّه جَزَيْتَ ولكن الوفاء قليل

ويروى له :

وإنى وإيّاها لكالخمر ، والفتى متى يستطع منها الزيادة يَزْدَدِ
إذا ازددتُ منها ازددت وَجداً بقربها فكيف احتراسى من هوًى متجدِّدِ

وقد روى له فى كتب الأدب أبيات من هذا القبيل ، وجمل ظريفة وأجوبة سديدة تدل على منزلته فى الأدب[1] . وهو الذى قدم له الجاحظ رسالته فى مدح الأتراك التى تقدم وصفها .

ونبغ من الأتراك أبو نصر الفارابى الفيلسوف الإسلامى الكبير ، وأستاذ كل فيلسوف إسلامى بعده ، فإنه من فاراب ، وهى مدينة من مدن الترك نبغ منها جماعة كثيرة من العلماء . ونبوغ الفارابى من بين الأتراك مفخرة كبيرة لهم ، فقد عنى بفلسفة أرسطو ، وأخرجها للمسلمين فى شكل جديد ، وكان له فضل على كل من اشتغل بالفلسفة من المسلمين بعده ؛ فظهوره من الترك رجح من كفتهم وكانت شائلة ، وأثقل ميزانهم وكان خفيفاً . وسيأتى بسط لقيمته وفلسفته فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله ، وقد مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ .

كما نبغ من الأتراك فى القرن الرابع إسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابى أيضاً ، صاحب كتاب الصحاح من أهم كتب اللغة وأصولها ؛ كان إماماً فى علم اللغة والأدب ، كما كان يضرب به المثل فى جودة الخط .

أخذ علم العربية عن أشهر علماء العراق ، مثل أبى على الفارسى ، وأبى سعيد

---

(١) انظر معجم الأدباء : ٦/١١٦ وما بعدها

السيرافى ، ثم سافر إلى الحجاز يأخذ اللغة عن أهلها بالسماع والمشافهة ، وطوّف فى بلاد ربيعة ومضر ، وحقق ما يشك فيه مما يرويه العلماء ، فيقول — مثلا — سألت أعرابياً بنجد من بنى تميم ، وهو يستقى ، وبكرته نَخِيس ، فوضعت إصبعى على النِّخَاس[1] فقلت : ما هذا ؟ وأردت أن أتعرف منه الخاء من الحاء ، فقال : نِخَاس بخاء معجمة ، فقلت أليس قال الشاعر :

* وبَكْرة نِخاسُها نُحَاس *

فقال ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

فلما استكمل دراسته ومشافهته وضع فى اللغة كتابه الصحاح الذى يعد — بحق — من أسس كتب اللغة .

وكما اجتهد فى تصحيح الألفاظ وضبطها كان له الفضل فى اختراع الطريقة التى ألّف عليها كتابه ، وحذا حذوه فيها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما من حصر الكلمات فى أبواب حسب أواخرها ، وتقسيم الأبواب إلى فصول حسب أوائلها ؛ وكانت كتب اللغة قبله ترتب ترتيباً مهوّشاً ، فتذكر الكلمة ثم يذكر مقلوبها ، كما فعل صاحب كتاب العين والجمهرة ، وقد مات نحو سنة ٤٠٠ هـ[2] .

وعلى الجملة ، فلئن كان أكثر العنصر التركى فى المملكة الإسلامية إنما يمتاز بالجندية والخشونة مع ضعف الثقافة ؛ فقد نبغ منهم علماء فى فروع مختلفة حصلوا ما كان من الثقافة فى عصرهم ، وابتكروا بعقولهم .

* * *

(١) النخاس : شىء يلقمه خرق البكرة إذا اتسعت وقلق محورها ، ويقال بكرة نخيس اتسع ثقب محورها فنخست بنخاس ، فيظهر أن بعض علماء اللغة رواها بالحاء المهملة ، فحققها الجوهرى بالخاء المعجمة .

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت : ٢/٢٦٦ .

العنصر الفارسي :

لم يهدأ الفرس منذ رأوا الأتراك تحتل مراكزهم فى الدولة العباسية وتستبد بالسلطان دونهم ، وتقصيهم عن أماكنهم . لقد كان الفرس فى العصر العباسى الأول هم عماد الدولة ، وبيدهم تصريف شؤونها ، وكان الخليفة يعتمد عليهم فى أهم الأمور ، وهم يحتفظون له بمظهر الأبهة والجلالة ، ثم ينشرون سلطانهم ؛ فإذا أحس الخليفة منهم استبداداً أوقع بهم ، كما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بابن سهل ، ولكنهم سرعان ما يستردون نفوذهم . فلما جاء الأتراك أبعدوهم عن منزلتهم ، وغَلبوا على الخليفة دونهم ، فانكمش الفرس على حنق ، ولعبت بهم العصبية الفارسية ، وأخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات ، ويحصنون أنفسهم بالرجال والسلاح ، ويرمون إلى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها — وخصوصاً بلادهم الفارسية — والاستقلال بها عن خلفاء بغداد ، فإذا سنحت لهم فرصة بعد فليستولوا على العراق وعلى الخليفة ، وليتسلطوا هم عليه ، ويقضوا على سلطة الأتراك ، وكذلك كان .

كانت هذه العصبيات تلعب فى عقول الفرس والترك ، كل يريد الغلبة ويريد القضاء على صاحبه ؛ وكانت بغداد ساحة فى كثير من الأوقات للقتال بين الديالمة والأتراك . ولعل خير ما يمثل هذا ما روى الصُّولى فى حوادث سنة ٣٢٣ من أن « مَرْداويج الفارسى الأصل (أمير الرى وطبرستان ، ومؤسس الدولة الزِّيَارِيّة) جعل عسكره صنفين : صنف منهم جِيل وديلم[1] ، وهم خواصه ، وأهل بلده

---

(١) الجيل : سكان جيلان ، وهى اسم بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، والنسبة إليها جيلى وجيلانى ، والعجم ينطقونها بالكاف . والديلم اسم يطلق على القسم الجبلى من جيلان وعلى سكان هذا القسم أيضا . ولم يكن بنو بويه من الديلم ، ولكن كان الديالمة أنصارهم ، ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية والبويهية .

الذين فتح بهم الرى ونواحيها ؛ ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان ؛ ثم استخص نفراً من الأتراك ، فوجد الديلم من ذلك ، وعاتبوه عليه . فقال : إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم ، وأقدمهم يحاربون بين أيديكم ، وأنتم خاصتى وأنا بكم ولكم . فبلغ ذلك الأتراك ، فأجمع رأيهم على قتله ، فأوصوا الغلمان الصغار الذين فى خدمته ، ووكدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به ، فقتلوه فى حمام ؛ وجاءهم الذين واطؤوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار . وركبوا دوابه وساروا فاضطربوا ، فقالوا : نجعل علينا رئيساً ، فرضوا ببَجْكَم ، وأخذوا من داره مالا عظيما ، وآنية فضة وذهب . وكان (أى مرداويج) قد تكبر وتجبر ، ووضع التاج على رأسه مكللا بأحسن الحب والياقوت ، وجلس على سرير فضة حواليه ذهب ، وكان مرصعاً بجوهر ، وقال : « أنا أرُدّ دولة العجم ، وأبطل دولة العرب »[1] .

٭ ٭ ٭

نجح الفرس إلى حد كبير فى اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها ، واستبدادهم بها ، وقصر سلطة الخليفة على المظهر الاسمِىّ ؛ فمن قديم استولى الطاهرية على خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩) ، والصَّفَّارية على فارس (٢٥٤ — ٢٩٠) ، والسامانية على فارس وما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩) ، والزِّيَارية على جرجان (٣١٦ — ٤٣٤) ، ثم دولة بنى بويه الفارسية أيضاً (٣٢٠ — ٤٤٧) فقد استولوا على فارس ثم على العراق ، وأخضعوا الخليفة لأمرهم ، وأزالوا ولاية الترك عليه ، وأقاموا سلطانهم ، فكان شأن الخليفة منهم شأنه مع الترك قبلهم ، مظهر ولا عمل ، ولقب ولا أمر ولا نهى .

والواقع أن سلوك البويهيين الفرس مع الخلفاء لم يكن كسلوك آبائهم الفرس مع الخلفاء فى العصر العباسى الأول . لقد كان الأولون من الفرس يأتمرون بأمر

---

(١) أخبار الراضى والمتقى : ٦٢ .

الخليفة ، ويرعون ولاءهم له وطاعتهم إياه ، فلما جاء خلفهم من بنى بويه لم يرعوا ولاء ولا قلدوا سلفهم ، إنما قلدوا الأتراك فى التنكيل بالخليفة والاستهانة به ، واستقلوا ضعفه فلم يعلوا شأنه بل زادوه ضعفاً .

ففى سنة ٣٣٤ سار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد فى خلافة المستكفى فملكها ، ومنحه المستكفى إمرة الأمراء ، « وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم »[1] .

فما أن استتب أمر معز الدولة ببغداد وقوى أمره حتى حجر على الخليفة المستكفى ، وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته .

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفى ، فدخل معز الدولة عليه فوقف والناس وقوف على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فمد يده إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته ؛ وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق منها شيء . ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفى ماشياً إليه وخُلع وسملت عيناه ، وولوا المطيع لله خليفة ، وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط لنفقته .

وكان معز الدولة يخرج للقتال ومعه المطيع كأسير — ولما ماتت أخت معز الدولة نزل المطيع إلى داره يعزيه .

ومات معز الدولة فأقيم ابنه بختيار مكانه ، فكان مع المطيع كأبيه ، وزاد على ذلك أنه صادر المطيع ، فقال المطيع أنا ليس لى غير الخطبة ، فإن أحببتم اعتزلت ، فشدد عليه بختيار حتى باع قماشه ، وأخذ منه أربعمائة ألف درهم .

---

(١) الفخرى : ٣٣٤ .

وأخيراً خلع المطيع نفسه ، وولى ابنه الطائع .

فاستجمع الأتراك قوتهم ، وتجمعوا حول سُبُكْتِكين التركى ، وتجمع الديلم والفرس حول معز الدولة ؛ فقدم عضد الدولة البويهى بغداد لنصرة عز الدولة على سبكتكين فتم لعضد الدولة النصر ، وملك بغداد . وأخيراً خلع الطائعُ على عضد الدولة خلعة السلطنة ، وتوّجه بتاج مجوهر ، وطوقه وسوره وقلده سيفاً ، وعقد له لواءين بيده ، أحدهما مفضض على رسم الأمراء ، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله ، وكتب له عهداً وقرئ بحضرته .

وفى سنة ٣٦٨ أمر الطائع أن يضرب الدبادب[1] على باب عضد الدولة فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له على منابر الحضرة[2] وزاد فى ألقابه . وجمع الطائع رجال الدولة ودخل عضد الدولة على الطائع وقبل الأرض بين يديه ، ثم قبّل وجل الطائع ، ثم أعلن الطائع إسناد الأمور كلها إلى عضد الدولة ، فقال له : « قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إلىّ من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها ، وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى » ؛ فقال عضد الدولة : « يعيننى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته » .

وفى سنة ٣٧٠ خرج عضد الدولة من همذان يريد بغداد ، فخرج الخليفة الطائع للقائه ولم تجر العادة بذلك .

بل قد جرى خلاف بين الطائع وعضد الدولة فقطع عضد الدولة الخطبة للطائع فى بغداد وغيرها ، واستمر ذلك نحو شهرين ، ثم سوى الخلاف وأعيدت الخطبة للطائع .

بل طمع عضد الدوله فى الخلافة لنسله ، فزوج الطائعَ ابنته وعقد العقد

---

(١) الدبادب : الطبلخانات . (٢) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ .

بحضرة الطائع لله و بمشهد من أعيان الدولة ؛ وكان الوكيل عن عضد الدولة أبا على الفارسى النحوى ، والذى خطب خطبة الزواج القاضى أبا على المحسِّن التنوخى ، وكان المهر مائة ألف دينار — ورمى عضد الدولة بذلك أن يرزق الطائع ولداً من ابنته فيولَّى العهد وتصير الخلافة فى بيت بنى بو يه ، و يصير الملك والخلافة فى الدولة الديلمية(1) .

وأخيراً بعد كل هـذا لم يرض البو يهيون عن الطائع ، فإن بهاء الدولة البويهى احتاج إلى مال فدبر خلع الطائع وأَخْذَ أمواله ، فأرسل إلى الطائع يسأله الإذن فى الحضور ليجدد العهد به ، فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة ؛ فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبوه وأنزلوه عن سريره وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد ، وأخذوا ما فى داره ، وتهب الناس بعضهم بعضاً . ثم أمروه أن يخلع نفسه ففعل بعد أن نزل للبو يهيين عن كل شىء .

وقد كان الشريف الرضى حاضراً فى المجلس الذى قبض فيه على الطائع ، وقد خاف أن يعيد الفرس تمثيل دور الترك مع المتوكل فأسرع فى الخروج ، وكان أول خارج من الدار ، ومكث من مكث من القضاة والأشراف فسلبوا ثيابهم وامتهنوا ، وفى ذلك يقول قصيدته التى مطلعها :

لواعجُ الشوق تُخْطيهم وتُصميني ‏ ‏ ‏ ‏ واللوم فى الحب ينهاهم و يغرينى

وفيهـا يقول :

اعجبْ لمُسْكة نفسى بعدما رُميتْ ‏ ‏ ‏ ‏ من النوائب بالأبكار والعُون

ومن نجائىَ يوم الدار حين هوى ‏ ‏ ‏ ‏ غيرى ولم أخلُ من حزم ينجِّينى

---

(١) انظر تجارب الأمم : ٦/٤١٤ .

مرقت منها مروق النجم منكدِرا وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنتُ أول طلّاع ثنيَّتهـــا ومن ورائى شرٌّ غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك[1] مبتسما إلىَّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهُون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى !
هيهات أغترّ بالسلطان ثانيــــة قد ضل ولّاج أبواب السلاطين

وجاء القادر بالله بعد الطائع فظل سلطان بنى بويه على الخليفة كما كان ، قال الذهبى : « فى سنة ولايته عقد مجلس عظيم حَلف فيه القادر وبهاء الدولة (البويهى) كل منهما لصاحبه بالوفاء ، وقلده القادر ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة » .

من كل هذا نرى أن البويهيين من الفرس سلكوا مع الخلفاء ما سلكه الأتراك من قبلهم ، بل زادوا عليه أحياناً ؛ ولكن أكبر التبعة تقع على الترك فإنهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة ، فلم يكن من اليسير بعدُ إعادة ما لها من جلال .

وزاد الأمرَ سوءاً فى عهد البويهيين النزاع بين الشيعة والسنِّية ؛ فقد كان الخليفة سنياً ، والبويهيون شيعيين ، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع . ففى سنة ٣٥١ فى عهد المطيع — مثلا — كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد بلعن معاوية ، ولعن من غصب فاطمة حقها من فَدَك ومن منع الحَسَن أن يدفن مع جده ، ولعن من نفى أبا ذر ، فمحاه أهل السنة بالليل ؛ فأراد معز الدولة أن يعيده فأشار عليه الوزير المهلبى أن يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين لآل رسول الله (ص) . وصرحوا بلعن معاوية فقط .

(١) يعنى الخليفة الطائع .

وفى سنة ٣٥٢ ألزم معز الدولة النـاس يوم عاشوراء بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق ، وعلقوا عليها المسوح ، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ويقمن المأتم على الحسين ؛ وهذه أول مرة نيح فيها على الحسين ببغداد ، واستمر هذا سنين . وفى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة عمل عيد غدير خُمّ ، وضربت الدبادب .

وفى سنة ٣٩٨ ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة فى بغداد ، فأرسل الخليفة القادر الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة وهكذا .

وتعصَّب بعض شعراء الفرس فى ذلك العهد لفارسيتهم ، ومن أشهر هؤلاء مهيار الديلمى ، فنرى ديوانه قد ملئ بالتهنئة بيوم النيروز ، ويوم المهرجان ، وبمراسلة بعض البويهيين للقدوم إلى بغداد والاستيلاء عليها ، وبالعصبية الفارسية من مثل قوله :

أُعْجِبت بى بين نادى قومها ... « أمُّ سعد » فمضت تَسْأَل بى

سرَّها ما علمت من خُلقى ... فأرادت علمَهـا ما حسَبى

لا تخـالى نسباً يخفضنى ... أنا من يُرضيكِ عند النسب

قومىَ استولوا على الدهر فتى ... ومشَوْا فوق رءوس الحِقب

عمَّموا بالشمس هاماتِهمُ ... وبنـوا أبياتهم بالشهب

وأبِى كسرى على إيوانه ... أين فى الناس أبٌ مثل أبى ؟

قد قبست المجد من خير أبٍ ... وقبست الدين من خـير نبى

وضممت الفخـر من أطرافه ... سؤدد الفُرس ودين العرب

وقد شرحنا أثر الفرس الاجتماعى فى « ضحى الإسلام » ، غير أنا نذكر هنا أن هـذه الحروب بين الترك والبويهيين الفرس ، وبين البويهيين بعضهم

مع بعض ، أثرت كثيراً من الخراب فى العراق وما حولها ، حتى جاء عضد الدولة فاستقرت الأمور بعض الاستقرار ، ومكنه ذلك وحبه للعمران أن يصلح بعض ما خرب .

قال مسكويه : « وكان ببغداد أنهار كثيرة ... وكان منها مرافق للناس لسقى البساتين ولشرب الشَّفَة فى الأطراف البعيدة من دجلة ، فاندفنت مجاريها ، وعفت رسومها ، ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها ، واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة ، أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة فى المسافة الطويلة ، فأمر (عضد الدولة) بحفر عمدانها ورواضعها ، وقد كانت على عمدانها الكبار قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها ، وقلّ الفكر فيها ، فربما انقطعت بها السبل ، وربما عمرتها الرعية عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم ، فلم تكن تخلو من أن تجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبنيت كلها جديدة وثيقة ، وعملت عملا محكماً . وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه ، وتزاحم الناس عليه ، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعرّض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدرابزينات ، ووكل به الحفظة والحراس »[1] !

كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة ، وأذن للوزير نصر بن هارون فى عمارة البِيَع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقرائهم .

كما أنشأ فى بغداد سنة ٣٧١ ، بيمارستاناً للمرضى سمى بعده بالبيمارستان العضدى ، وأحضر له كل ما يلزم من الأدوية والآلات ، ورتب له أربعة وعشرين طبيباً ، منهم الجراحون والكحالون والمجبرون ، وكان فيه دراسة للطب

---

(١) تجارب الأمم : ٤٠٦/٦ .

أيضاً ، وممن كان يدرس فيه إبراهيم بن بكس[1] .

و بعد نحو مائتى سنة من بنائه زاره ابن جبير الرحالة ، وقال : « إنه على نهر دجلة ، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، و يطالعون أحوال المرضى به ، و يرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، و بين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ، وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من « دجلة » ، وعلى الجملة فكان مستشفى كبيراً ومدرسة للطب ، ولكن عاد الأمر بعده إلى الفساد والخراب .

أما الحركة العقلية والأدبية فى دولة بنى بويه ، فبلغت الغاية فى التحصيل والإنتاج ، وسنتكلم فيها فى محلها من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

عنصر العرب :

بجانب هذا النفوذ التركى والنفوذ الفارسى ، كان هناك النفوذ العربى ، وأظهر ما كان ذلك فى الشام والجزيرة ، فالعرب الذين هاجروا من جزيرة العرب إلى الشام والعراق كانوا — دائما — قوة سياسية تحسب الخلفاء حسابها . نعم إنهم كانوا كل شىء فى العهد الأموى وضعف سلطانهم فى العهد العباسى ، ولكنهم كانوا فى كل الأحوال قوة لا يستهان بها . ولما ضعفت القوة المركزية فى بغداد شرعت هذه القبائل الهائمة فى صحراء الشام ووادى الفرات تحت رحالها ، وتنشئ مستعمرات ثابتة ، وتحتل المدن والقلاع ، وتكوّن دويلات — فكونت قبيلة تَغْلِب دولة الحَمْدانيين فى الموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤) ، وكونت قبيلة

(١) ترجم له طبقات الأطباء .

كِلَاب دولة المِرْداسيين فى حلب (٤١٤ — ٤٧٢) ، وكوّن بنو عُقَيل العقيليين فى ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ — ٤٨٩) ، وكوّن بنو أسد دولة المَزْيَديين فى الحِلّة (٤٠٣ — ٥٤٥) .

وهؤلاء العرب مع استيلائهم على المدن والقلاع لم ينبذوا عاداتهم القومية من البداوة وما إليها ، واعتزازهم ببداوتهم واحتقارهم لأهل الحضر . ومن طريف ما يروى فى ذلك أن قرواشاً العقيلى صاحب الموصل (من الدولة العقيلية) . قال مرة : « ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم ، وأما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم » .

وأهم هـذه الدول العربية التى تجلت فيها العصبية العربية ، واشتبكت مع العصبية التركية والفارسية هى دولة بنى حمدان التغلبية ؛ فقد عظم نفوذها بالموصل وحلب ، وأرادت الاستيلاء على بغداد وطرد النفوذ التركى والفارسى ، واستخلاص الخليفة لهم ، وجرت فى ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقى بالله ، احتمى بناصر الدولة بن حمدان وقلده إمرة الأمراء ، وخلع عليـه وعلى أخيه سيف الدولة بن حمدان ، ودخل ناصر الدولة بغداد باحتفال عظيم . ولـكن ثورة الأتراك وعلى رأسهم « توزون » تغلبت على ابن حمدان ، وولى الخليفة إمرة الأمراء لتوزون ، واستمر العداء والقتال بين العرب وعلى رأسهم ابن حمدان ، و بين الترك وعلى رأسهم توزون .

فلمـا استولى البويهيون الفرس على بغداد لم ينقطع الخلاف والقتال بين الحمدانيين والبويهيين . ولما رأى ناصر الدولة بن حمدان استيلاء معز الدولة على بغداد وسلبهم جميع حقوق الخليفة ، جهز جيشاً لقتال البويهيين ، وساعده على ذلك فرق من الجيش التركى ، ودام القتال طويلا ؛ وتقدم الحمدانيون إلى بغداد

واستولوا على جانبها الشرقى ، وأخيراً انهزم ناصر الدولة الحمدانى وعاد إلى مقره .

وكذلك اشتبك الحمدانيون فى قتال مع البويهيين أيام عضد الدولة فهُزم الحمدانيون أيضاً .

وكانت حياة بنى حمدان ، مظهراً من مظاهر الحياة البدوية المتحضرة : حب للحرب ، واستبداد السادة بالرعية ، وكرم ومروءة ، وشهامة ونجدة ، وعصبية للعربية ضد الفرس والترك ، وعصبية للقبيلة ضد بنى كلاب و بنى عقيل ، وعصبية للإسلام ضد الروم . وصف الأزدى سيف الدولة الحمدانى فقال : « كان معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً فى السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه ، والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً فى حروبه ، جائراً على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه » .

ظهرت عصبية الحمدانيين لعربيتهم فى قتالهم المتواصل للترك وللفرس فى العراق ، وتغنّى شعرائهم كالمتنبى فى الاعتزاز بعربيته وعربيتهم ، فيقول وقد تساءلوا عن أيهم أفضل : آلعرب أم الأكراد ؟ :

إن كنتَ عن خير الأنام سائلا   فخيرُهم أكثرهم فضائلا
مَن أنت منهم يا همامُ وائلا   الطاعنين فى الوغى أوائلا
والعاذلين فى الندى العواذلا   قد فضَلوا بفضلك القبائلا

ويقول و يأسف لحكم غير العرب العرب :

وإنما الناس بالملوك وما   تفتح عُرْبٌ ملوكها عَجَم
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ   ولا عهودٌ لهم ولا ذمم
بكل أرض وَطَئتها أمم   تُرعى بعبدٍ كأنها غنم

و يدل على عصبيتهم القبلية ما فعله سيف الدولة من إيقاعه ببنى كلاب و بنى

عقيل ، وقُشَير و بنى عجلان ، و بطشه ببنى حبيب حتى خرجوا بذراريهم إلى الروم فى اثنى عشر ألف فارس وتنصروا بأجمعهم ، ووقوف المتنبى بجانبه يشيد بذكره فى حروبه هـذه ، فيقول حينما أوقع ببنى كلاب قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بغيرِكَ راعياً عَبِثَ الذئابُ وغيرِكَ صارما ثَلَمَ الضِّراب

و يذكر إيقاعه ببنى عقيل وقشير ، و بنى العجلان فى قصيدته التى مطلعها :

تذكرت ما بين العُذَيب و بارق مجرّ عوالينا ومجرَى السوابق

و يدل على عصبيتهم الإسلامية قتالهم للروم ، وصدهم عن بلاد الإسلام وحمايتهم للثغور ، حتى غزا سيف الدولة الروم أربعين غزوة ، ولولاه لاستولوا على الشام فى غفلة العباسيين . وقد رووا أنه جمع من الغبار الذى أصابه فى غزواته ما صنع منه لبنة بقدر الكف أوصى أن يوضع خده عليها فى لحده .

* * *

بين هذه العصبيات الثلاث التركية والفارسية والعربية تقسمت المملكة الإسلامية ، ولأجلها وقعت الحروب وسادت الفتن ، فلا تكاد تخلو سنة من حروب بين فرس وترك وعرب ، وأحياناً ينضم بعض إلى بعض ؛ فقد كان فى جيش بنى حمدان أحيانا فرق من الجيش التركى ، كما كان مع بعض بنى بويه بعض الأتراك ، والبلاد تخرب من القتال ، والروم ينتهزون فرصة اشتباك أمراء المسلمين بعضهم مع بعض للإغارة على الثغور الإسلامية والتنكيل بها .

وقد اتخذت العصبيات فى هذا العصر شكلا واضحاً غير الذى كان فى العصر العباسى الأول ، فقد كان قبلُ عصبية فارسية وعصبية عربية ، ولكنها كانت تعمل فى الخفاء غالباً ، وكانت قوة الخلفاء تحول دون الطغيان ، فإذا أحس الخليفة

طغياناً من الفرس نكل بهم ، وردّهم إلى حدودهم ؛ فلما ضعفت الخلافة ، وقتل المتوكل بيد الأتراك ، لم يكن للخليفة من النفوذ ما يستطيع أن يصد به هذا الطغيان ، فانكشفت العصبيات وأصبحت تعمل جهاراً ، ووسيلتها الحروب .

وكان من نتيجة هذه العصبيات الثلاث ، واستعمالها السيف فى بسط نفوذها ، وضعف الخلفاء عن كبح جماحها ، انقسام المملكة إلى مناطق نفوذ ، فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثالث وفى القرن الرابع الهجرى ، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب ، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب ، وبعض قبائل البربر ، والفاطمية وهم عرب ، ومصر والشام يحكمها الطولونيون والإخشيدون ، وهم أتراك ، ثم الفاطميون وهم عرب ، والحمدانيون فى الموصل وحلب وهم عرب ، والعراق يحكمه الأتراك باسم الخليفة العباسى وينازعهم السلطان عليه الحمدانيون وهم عرب ، ثم يستولى عليه البويهيون وهم فرس — وفارس تتقسمها دول مختلفة : الدُّلَفِية فى كردستان وهم عرب ، والصَّفَّارية فى فارس كلها وهم فرس ، والسامانية فى فارس ، وما وراء النهر وهم فرس ، والزيارية فى جرجان وهم فرس ، والحسنوية فى كردستان وهم أكراد ، والبويهية فى جنوبى فارس وهم فرس ، والغزنوية بأفغانستان والهند وهم أتراك .

وكان كل جنس من هذه الأجناس يطبع البلاد التى يحكمها بطابعه الخاص ؛ فطابع التركية حب للجندية والفروسية ، والاستكثار من الجنود من جنسهم لتقوية حكمهم ، ثم كثرة الخلافة فيما بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد كالبدو فى تعصبهم للقبائل واعتزازهم بقبيلهم ، ونظرهم فى شىء من الاحتقار إلى أهل البلاد المحكومة بهم ، وانتصارهم لمذهب أهل السنة ، وعدم ميلهم إلى الفلسفة والجدل فى الدين ، وتقريبهم علماء الدين وخاصة علماء التفسير والحديث ، وحبهم

للأموال يأخذونها من الرعية فى غير حكمة وأناة ونظر بعيد ، فبدل أن يعنوا بموارد المال من رى ، ونظام ضرائب ، و إصلاح أراض ، وتنظيم تجارة ، واستغلال منابع الثروة يجيلون أبصارهم فى الناس و يتعرفون ذوى الثروة ، فينتهزون الفرصة لمصادرتهم أو التنكيل بهم أو نحو ذلك ، ثم ينفقون ما تصل إليه أيديهم فى الترف والنعيم ، فإذا أسرفوا وخلت أيديهم من ثاروا على من لديه المال — ترى تاريخهم — فى العراق فى ذلك العهد سلسلة مطالبات للخليفة بالأموال ، فإذا لم يعطهم خلعوه ، و إن أعطاهم سكتوا عنه إلى أن يفرُغ مالهم ، ثم أعادوا الكرة ، وهكذا فعلوا فى الوزراء والكبراء والتجار ، وهم مع كل هذا لا ينظرون إلى وسائل المال ليصلحوها ، ولذلك سرعان ما ينضب معين الدولة — لقد كان لدى الخلفاء ثروة هائلة تقدر بالملايين ، فما زالوا يلحون عليهم فى طلب المال ، والخلفاء يفتدون أرواحهم بالعطاء حتى تركوهم ولا شىء فى أيديهم . ومن أجل هذا نقرأ كثيراً فى تاريخ هذه العصور دفن الأموال فى الأرض ، و بناء الحوائط عليها ، وتظاهر الأغنياء بالفقر ، ونحو ذلك .

وطابع الفرس حب الفخفخة والظهور ، قد ورثوا مدنية قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع ، فطُبعوا عليها بمحاسنها ومساويها ؛ فلهم قدرة على تنظيم الحكم ، ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها ، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب والعلم وتهتز لها ، فهم يشجعون العلم لا بالمعنى الضيق الذى يشجعه التركى ، ولكن بمعناه الواسع الذى يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة — قد كثرت المذاهب الدينية القديمة عندهم من مانوية وزرادشتية ومزدكية ، فكثرت فى الإسلام مذاهبهم من زيدية واثنى عشرية وسبْعية وغير ذلك ، وورثوا ما يرثه أبناء كل أمة تحضرت وهرمت من ميل إلى الترف والنعيم ، وانهماك فى الملذائذ . وأورثهم ضغط الدولة

الأموية عليهم وتحقيرهم ميلا كامنا إلى الانتقام من العرب والأخذ بالثأر منهم فى لين وهوادة ، وعلّمهم التشيعُ التقية ، فمكروا وعملوا فى الخفاء وتستروا ، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحياناً ، وبالدعوة المقنعة بالعلم أحياناً ، إلى غير ذلك .

وطابع العرب ميل إلى البداوة ، وحكم بالقبيلة ، واعتزاز بدمهم ، واحتقار لغير جنسهم ، وزهوهم بسيفهم ولسانهم ، وقلقهم واضطرابهم ، فإذا أحسوا ضعف رئيسهم فما أسرع ثورتهم ؛ ثم هم أسرع ما يكون قبولا للتأقلم والتحضر ، فإذا تحضروا انغمسوا فى النعيم ، ومالوا إلى خصب العيش ، وتأنقوا فى المأكل والملبس والمشرب ، كما كان شأن الفاطميين بعد انتقالهم من المغرب إلى مصر ، وكما كان شأن من نزل من العرب فى الأندلس ، وكما كان شأن العرب الفاتحين لبلاد فارس والروم ؛ وهم فى أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء ، فإذا انغمسوا فى النعيم ، وقعوا فى سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم و بساطتهم ؛ أحب إليهم الأدب والشعر لا الفلسفة والعلم ، إلا أن يستعينوا بغيرهم من الموالى فى تجميل دولتهم بالفلسفة والعلم .

وكثيراً ما كان يتعاقب على القطر الواحد هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان منها ، فتعاقب على العراق العرب والفرس والترك ، وعلى مصر العرب والترك ، و إذ ذاك يسقيه كل جنس بكأسه ، و يتكوّن لكل قطر مزاج هو نتيجة طبع الأمة مع من تعاقب عليها من الأجناس .

* * *

وهناك عنصران آخران كان لهما أثر فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، و إن كان هذا الأثر فى المنزلة الثانية ، وأعنى بهما الروم والزنج .

الروم :

كان العرب يطلقون على المملكة البيزنطية « بلاد الروم ، ومن ثم أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط « بحر الروم » . وعلى مر الزمان كان أكثر ما يطلق اسم الروم على بلاد النصارى المتاخمين للمملكة الإسلامية ، ولهذا كان أكثر ما يطلق على بلاد النصارى فى آسيا الصغرى ؛ وكانت تسمى الحدود التى بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية « الثغور » ممتدة من ملطية إلى أعلى الفرات وإلى طرسوس ، وكانت هذه الثور محصنة من الجانبين ، ومنقسمة إلى قسمين : ثغور الجزيرة ، وثغور الشام ؛ فمن الأول مَلْطية ، وزِبَطْرة ، وحصن منصور ، والحَدَث ، ومرعش ، والهارونية ، والكنيسة ، وعين زَرْبَة ؛ ومن الثانى : المصيصة ؛ وأَذَنة ؛ وطرسوس .

ومنذ فُتح الشام ومصر فى عهد عمر بن الخطاب ، والحروب قائمة بين المسلمين والروم ، والذى نريد أن نعرض له الآن ما كان يين الروم والمسلمين فى العصر الذى نؤرخه ؛ فقد كثرت الحروب بين الفريقين ، وكانت هذه الثغور بين حركتى مد وجزر باستمرار . فمن ابتداء هذا العصر حدثت وقعة عمورية المشهورة فى عهد المعتصم ، واستمرت بعد ذلك واشتدت بين الروم والحمدانين ، وعلى الأخص أيام سيف الدولة الحمدانى .

وليس يهمنا هنا تاريخ هذه الحروب ، ولا جانبها السياسى ، وإنما يهمنا ما كان لها من أثر اجتماعى أو عقلى .

فقد كانت هذه الحروب سبباً فى أسر عدد كبير من الروم ؛ واسترقاق كثير منهم ، ففى وقعة عمورية « أقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ، وقتل من سواهم ؛ وأمر ببيع المغانم فى عدة

مواضع . . . وكان لا ينادى على شىء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلباً للسرعة ، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة ، عشرة عشرة ، طلباً للسرعة »[1] . وكانت حرب بين الروم والمسلمين فى صقلية سنة ٣٥٣ ، فتقدم المسلمون إلى « رَمْطة » « وملكوها عنوة وقتلوا من فيها ، وسَبَوْا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيما »[2] . وفى سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة الروم « فقتل وأسر وسبى وغنم » ، فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم ، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته »[3] ، ومثل هذا كثير فالحروب تكاد تكون متصلة ، والأسر من الجانبين متتابع . أنتجت هذه الوقائع نتائج كثيرة :

فمنها أنها خلفت لنا أدباً عربياً حربياً قويا ، كقصيدة أبى تمام فى فتح عمورية : « السيف أصدق أنباء من الكتب » ؛ وقصائد المتنبى فى حروب سيف الدولة للروم ، كقصيدته يذكر الوقعة التى نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحَدَث : « غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع » ، وقصيدته لما سار سيف الدولة يريد الدمستق : « نزور دياراً ما نحب لها مغنى » الخ الخ ؛ وكالقصائد الروميات لأبى فراس ، وهى قصائد من غرر شعره ، قالها — لما أسره الروم — فى الحنين إلى أهله وأصحابه ، والتبرم بحاله من أسر ومرض وغربة إلى غير ذلك .

ومنها ما كان من انتشار الروم من رجال ونساء وغلمان فى بيوت الناس والخلفاء والأغنياء كماليك ، حتى إن بعض الخلفاء فى هذا العصر كانت أمهم رومية ؛ فالمنتصر بالله ابن المتوكل أمه رومية ، والمعتز بالله أمه رومية اسمها

(١) ابن الأثير : ١٨٠/٦ (٢) ابن الأثير : ٢٠٠/٨ .
(٣) ابن الأثير : ١٨٣/٨

« قبيحة » ، وقد اشتهرت فى التاريخ بغناها وثروتها وتغلبها على عقل المتوكل ؛ والمعتمد على الله أمه رومية اسمها « فتيان » ؛ والمقتدر بالله أمه رومية على بعض الأقوال ، وكان لها فى أيام ابنها سلطان فى تدبير الأمور ، حتى أمرت قهرمانتها أن تجلس للمظالم وتنظر فى رقاع الناس ؛ وأم الراضى بالله رومية اسمها ظلوم الخ .

واستكثر الخليفة المقتدر من الخدم والمماليك من الروم والسودان ، حتى قالوا إنه بلغ عددهم أحد عشر ألفاً ، وكانوا فى أول عهده ألفاً ومائة .

وفى المقريزى أن أحمد بن طولون (لما ولى مصر) اشترى العبيد من الروم والسودان . . . وصار من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق بها داره ولا يتسع له . . . فبنى القصر والميدان ، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا . . . ثم قطعت القطائع ، وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم »[1] . « وكانت كل قطيعة لسكنى جماعات بمنزلة الحارات التى فى القاهرة »[2] .

ولما اختطت القاهرة اختطت الروم حارتين . « وفى سنة ٣٩٩ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت »[3] .

كما كان فى بغداد دار تسمى دار الروم بالشماسية ، وكان لهم بهذا الحى كنيسة على مذهب النسطورية ، ودير يسمى دير الروم .

وانتشرت الجوارى الروميات فى القصور ، وكانت لهن ميزات . قال ابن بطلان : « الروميات بيض شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ، ومناصحة ووفاء وأمانة ومحافظة ، يصلحن للخَزْن لضبطهن وقلة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة » .

---

(١) خطط ١/٣١٥ . (٢) ١/٣١٣ . (٣) ٢/٨ .

وتعشق بعض الشعراء الغلمان الروم ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه « نسيم » ، « كان قد جعله باباً من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه ويعتمد أن يصير إلى مِلْك بعض أهل المروءات ومن يَنفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبّب به وتشوق ومدح مولاه ، حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره »[١] . وفى نسيم يقول البحترى :

دعا عَبرتى تجرى على الجور والقصد أظن نسيما قارف الهجر من بعدى
خلا ناظرى من طَيفه بعد شخصه فواعجبا للدهر فقداً على فقد

وقد أنجب هذا العنصر الرومى أدباء وعلماء ، كان لهم فى فنهم وعلمهم طابع خاص لم يكن مألوفا فى العقلية العربية والفارسية ، من أشهر هؤلاء ابن الرومى الشاعر ، وابن جنى النحوى .

فابن الرومى من أصل رومى كما يدل عليه اسمه ، فهو على بن العباس بن جريج ، وله فى الشعر ميزات قلما اجتمعت لغيره من شعراء العربية ، هى أشبه شىء بالروح الرومى ؛ فهو طويل النفس فى قصائده طولا قلما يجارى ، وهو يقع على المعنى فلا يزال يستقصى فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية ؛ وهو كثير التعليل لما يقول كما يفعل بالنظرية الهندسية والبرهان عليها من مثل قوله :

لِمَـا تؤذن الدنيا به من صُروفها يكون بكاء الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسحُ مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه بما سوف يلقَى من أذاها يهدَّد

وقوله فى مليح رمدت عيناه :

قالوا اشتكت عينهُ فقلت لهم من كثرة القتل مسّها الوصب

---

(١) معاهد التنصيص ١١٠ .

حُمْرتها من دماء من قَتَلَتْ والدم فى النَّصل شاهد عجب

ومثل ذلك كثير لا نطيل به .

وهو يصوّر المهجُوّ صورة فنية تستخرج عجبك وتستثير ضحكك ، كقوله فى بخيل :

يقتِّر عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفّس من مِنْخَرٍ واحد

وقوله فى ثقيل :

إذا بدا وجهه لقوم لاذت بأجفانها العيون
كأنه عندهم غَريم حلّت عليهم له ديون

وقوله :

معشر فيهم نكول إن نَوَوْا فعل خير ، وعلى الشر مرودْ
ليتهم كانوا قروداً فحكوا شيمِ الناس كما تحكى القرودْ

أما ابن جنى ، فهو كذلك رومى ، أبوه جِنِّى كان مملوكا رومياً لسليمان بن فهد الأزدى ، ولعل أصل « جنى » Jonah [1] فعربها العرب إلى جنى . وكان ابن جنى هذا غريباً فى تصوره النحو والصرف ، فهو ماهر فى التصريف ماهر فى التعليل والقياس . قال الباخرزى فى دمية القصر : « ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له وسيما فى علم الإعراب » ، وكان المتنبي يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » .

وقد قال هو نفسه فى خصائصه :

وحُلْو شمائل الأدبِ منيفُ مراتب الحسب

* * *

---

(١) وفى بغية الوعاة أنها معرب كنى .

له كَلَفٌ بما كلِفتْ ... به العلماء مِلْعَرب
يبيت يفاتش الأنقا ... ب عن أسرارها الغَيَبِ[1]
فمن جَدَد إلى جَلَد ... إلى صعد إلى صَبَب
ويفرع فكرُه الأبكا ... رَ منها من حِمَى الحجب
فيُبردها كأن لها ... وإن خفيت سنى لهب

* * *

يجدّ بها وتحسبه ... للطف الفكر فى لعب
سَبَاطة[2] مذهب سُبكت ... عليه ماءة الذهب

* * *

وطرداً للفروع على ... أصول وُطَّدٍ رتب
إذا ما انحط غائرها ... سما فرعاً على الرتب
قياساً مثل ما وقدت ... بليلٍ بَرزة الشهب

ومنها فى أصله الرومى :

فإن أصبح بلا نسب ... فعلمى فى الورى نسبى
على أنّى أؤول إلى ... فروم سادة نُجُب
قياصرة إذا نطقوا ... أرمَّ[3] الدهر ذو الخطب

فابن الرومى وابن جنى وأمثالهما كانوا عرباً فى المنشأ والمَرْبَى ، وكانوا روما بعقلهم الموروث ، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع ، وأنتجوا منهما نتاجا صالحا ذا طعم خاص .

* * *

(١) الغيب بفتحتين يقال قوم غيب أى غائبون .
(٢) سباطة المطر : سعته وكثرته . (٣) أرم : سكت .

السود :

ومن العناصر التى كثرت فى هذا العصر وكان لها أثر كبير الزنج الذين كانوا يجلبون فى الأكثر من سواحل إفريقا الشرقية ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التى قاموا بها قرب البصرة ، وهددوا بها الدولة العباسية ودوخوها أربعة عشر عاما وأربعة أشهر (من ٢٥٥ هـ إلى ٢٧٠) وكانت حربا بين الأجناس ، بين السود والبيض ، دعا إليها رجل ادعى نسبته إلى على بن أبى طالب ، فزعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وأكثر المؤرخين يرون أنه دعىّ وأن أصله عربى من عبد القيس ، وقد توجه هذا الرجل إلى البصرة وحرض الزنوج « الذين كانوا يكسحون السباخ » فى أراضيها ، فإن ملاك هذه الأراضى كانوا يملكون سوداً من السودان يعملون لهم فى أرضهم فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المالحة ليصلوا إلى الأرض الخالية من الأملاح الصالحة للزراعة ، وهو عمل شاق جدا فى هذه المنطقة ؛ فاستطاع هذا الذى لقب بعد بصاحب الزنج أن يؤلب هؤلاء العمال الزنوج بعد أن درس حالتهم وبؤسهم وأجورهم ونفسيتهم فأتاهم من الناحية الدينية فهى أفعل فى نفوسهم ، فادعى أنه متصل بالله على نحو ما ، فاجتمع إليه خلق كثير ، فوصف لهم بؤسهم وظلم سادتهم لهم ، ورثى لعيشهم على السويق والتمر ، ودعاهم إلى الخروج على هؤلاء الظالمين ، « ومَنَّاهم ووعدهم أن يقوِّدهم ويرأسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدِرَ بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم » ومن وقع فى يده من هؤلاء السادة ما لكى العبيد كان يسلمه لغلمانه ويأمر بضربه . فكانت حركته الأولى حركة ضد الملاك ، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة ، وأن الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله ، ودعا إلى مذهب

الخوارج . قال المسعودى : « إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج ؛ لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه ؛ وله خطبة يقول فى أولها : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، ألا لا حُكم إلا لله ؛ وكان يرى الذنوب كلها شركا »[1] . وكان عدد هؤلاء الزنوج كثيراً ، وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال . وفى بعض الوقائع الحربية انضمت الفرقة السودانية فى الجيش العباسى إلى إخوانهم الزنوج فزادوهم قوة . وقد تملكوا فى بعض الأحيان «الأبلة» و «عَبَّادَان» ، والأهواز ثم البصرة ، وواسط والنعمانة ، ورامهرمز ؛ وكانوا يهزمون الجيوش العباسية المرة بعد المرة ، واغتنوا ، وأصبح الزنوج يملكون البيض بل خير البيض . يقول المسعودى : « وقد بلغ من أمر عسكره (أى عسكر صاحب الزنج) أنه كان ينادَى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم عن سائر العرب ، وأبناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلانى ، لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تَخْدُم الوصائفُ . ولقد استغاثت إلى على بن محمد (صاحب الزنج) امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه ، فقال : هو مولاكِ وأولى بك من غيره »[2] .

وأخيراً تغلب عليهم الموفق (أخو الخليفة المعتمد على الله) وابنه أبو العباس (الذى صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد) ، وقتل صاحب الزنج بعد أن خرب الزنج كثيراً من البلاد ، وأفنوا كثيراً من الناس . وقد قتلوا من أهل البصرة وحدها فى وقعة

---

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٤ . (٢) مروج الذهب ٢/٣٥٠ .

واحدة ثلثمائة ألف . « وقد تكلم الناس فى قدر ما قتل (على يد الزنج) فى هذه السنين (الأربع عشرة) من الناس فمكثر ومقل ؛ فأما المكثر فإنه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العد ، ولا يقع عليه الإحصاء ، ولا يعلم ذلك إلا عالم الغيب . . . والمقلّ يقول أفنى من النـاس خمسمائة ألف ، وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظناً وحدسا إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط[1] .

وقد سقنا هذا كله للدلالة على قوة هذا العنصر الزنجى وخطره فى ذلك العصر ؛ وبجانب هذا كانت لهم ناحية اجتماعية لها قيمتها . وكانوا يطلقون كلمة السودان على ما يشمل الأحباش ، وقديماً اتصل هؤلاء السودان بالعرب فكان منهم بلال الحبشى مؤذن رسول الله ؛ ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذى قتله الحجاج ؛ وكان من أشعر شعرائهم فى العصر الأموى الحَيْقُطَان ؛ وقد هجا جريراً ونخر عليه بالزّنج ، فقال :

والزّنج لو لاقيتهم فى صَفِّهم   لاقَيْت ثَمَّ جَحَاجِحًا أبطالا

وكان الزنج يفخرون بطلاقة اللسان ، وكثرة الكلام ، وشدة الأبدان ، والسخاء ، وقلة الأذى ، وطيب النفَس ، وضحك السن ، وحسن الظن[2] . وقد عُيِّروا بصغر عقولهم ، وضعف ذكائهم ، وقلة علمهم ، فأجابوا بأنكم لم تروا الزنج الحقيقيين ، وإنما رأيتم السبى يجىء من السواحل ، وأهل السواحل هؤلاء ليس لهم جمال ولا عقول ، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل ؛ قالوا : واعتبروا فى ذلك بمن تَسْبُونهم من أهل السند والهند ، فإنه لم يتفق لكم واحد ممن سبيتموهم له عقل وعلم مع ما اشتهر به أهل السند والهند من العلم

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٥٠ .

(٢) الجاحظ فى رسائله .

بالحساب والنجوم ، وأسرار الطب ، والتصاوير والصناعات العجيبة[١] .

وكانت طائفة من الجند من الزنج كما رأينا قبل ، وكان منهم الكثير فى خدمة القصر . وقد نبغ منهم كافور الإخشيدى الذى ملك مصر والشام ، وخطب له على المنابر بمكة والحجاز ، وكان عبداً أسود أتى به من بلاد السودان واشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً ؛ وقد مدح المتنبى سواده فقال :

فجاءت به إنسان عين زمانه　　وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ثم ذمّ سواده حين هجاه فقال :

من علّم الأسود المخصىّ مكرمة　　أقومُه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخّاس داميـــةً　　أم قَدره وهو بالفَلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة　　عن الجميل فكيف الخصية السود

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم كانت له دنانير بنت كعبويه الزنجى ، وكانت زنجية ؛ وقد رآها تكتحل فقال :

كأنهـــا والكحل فى مِرْوَدها　　تكحل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية ، وترك ما عنده من النساء من أجلها . وقال فيها :

* يا ربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنْجِ *[٢]

وكثر ذلك فى العصر العباسى ، فامتلأت بهن القصور وبيوت الأوساط والفقراء ؛ فقد كان الجوارى البيض أغلى ثمناً ، فكانت أكثر ما تكون فى بيوت الأغنياء ، أما السود فكثيرات ورخيصات .

---

(١) انظر الرسالة الثانية للجاحظ من الرسائل الثلاث التى نشرها ڤان ڤلوتن ص ٧٦، ٧٧ .
(٢) انظرها فى الأغانى جزء ١٩ ص ٢١ .

وقد ذكر ابن بطلان خصائص السود فقال :

« الزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقلّ الانتفاع بهن ؛ وخيفت المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس فى خلقهن الغم ، والرقص والإيقاع فطرة لهن ، وطبع فيهن . . . ويقال لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ؛ وفيهن جَلَد على الكد ، فالزنجى إذا شبع فصب العذاب عليه صباً فإنه لا يتألم له . وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها ، يعتادهن السل ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها ، وفيهن خيرية ، ومياسرة وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس . . . قصار الأعمار لسوء الهضم » .

* * *

وكما تقاسمت المملكة الإسلامية العناصر الجنسية المختلفة ، كذلك تقاسمتها المذاهب الإسلامية المختلفة والديانات المختلفة . ولنذكر فى ذلك كلمة مجملة تصور هذه الحال .

فقد كان الخلفاء سنيين ، والأتراك سنيين غالباً ، والفرس شيعيين غالباً ، والعرب بين سنى وشيعى ؛ فالفاطميون شيعة ، والحمدانيون يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التى وصلت إلينا درهم لناصر الدولة الحمدانى على أحد وجهيه :

لا إله إلا الله

المطيع لله

ناصر الدولة

وعلى الآخر : محمـــــد

رسول الله

علىّ ولى الله

ويروى المؤرخون أن سيف الدولة عثر فى حلب على قبر المحَسِّن بن الحسين فبنى عليه ، وكتب على حَجَره :

« عمّر هـذا المشهد المبارك — ابتغاء لوجه الله وقربة إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب — الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان .

ورووا أن سيف الدولة زوج ابنته ست الناس لأبى تغلب الحمدانى ، وضرب لهذا الحادث دنانير على أحد وجهيها :

محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب — فاطمة الزهراء — الحسن والحسين — جبريل .

وعلى الآخر :

أمير المؤمنين المطيع لله — الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة — الأميران أبو تغلب ، وأبو المـكارم .

فهذا يرجح أن دولة الحمدانيين كانت شيعية .

فـكانت المملـكة الإسلامية مسرحا للعصبيات الجنسـية والعصبيات المذهبية . وأوضح الأمثلة لذلك حالة العراق فى عهد الدولة البويهية ؛ فقد كان مملوءاً بالأتراك والديلم ، والأولون سنيون ، والآخرون فرس شيعيون ، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما . وقد ذهب فى سبيل ذلك

ضحايا كثيرة من الوزراء والكتاب والعلماء ، حتى حكى مسكويه فى حوادث سنة ٣٦٠ أن بختيار البويهى « رأى لمعالجة (هذه الفتن) أن يعقد بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التى نشأت بينهم ، فابتدأ بعقد مصاهرة بين المرزبان بن عز الدولة (البويهى) ، و بين بختكين (التركى) ، وفعل مثل ذلك بجماعة ، وأصلح بين الديلم والأتراك ، واستحلف كل فريق منهما لصاحبه ، فحلفوا جميعاً . . . فزال الظاهر ولم يزل الباطن »[1] . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٣ : « فى هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة ، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً ، وسببها أن أهل الكرخ عملوا أبراجا كتبوا عليها بالذهب : «محمد وعلىّ خير البشر» ، وأنكر السنية ذلك ، وادعوا أن المكتوب محمد وعلىّ خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر ؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة ؛ فانتدب الخليفة القائم بأمر الله من حقق ، فكتبوا بتصديق أهل الكرخ . وحمل الحنابلة العامة على الإغراق فى الفتنة . وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحوا « خير البشر » ، فقالت السنية لا نرضى إلا أن يقلع الآجر الذى عليه محمد وعلىّ ، وألا يؤذّن « حى على خير العمل » ، وامتنع الشيعة عن ذلك . وقتل رجل هاشمى من السنية ، فحمله أهله على نعش وطافوا به فى الحربية وباب البصرة وسائر محلة السنية ، واستنفروا الناس للأخذ بثأره ، ثم دفنوه عند أحمد ابن حنبل ؛ فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه ، ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة ؛ فلما كان الغد اجتمعوا وأضرموا حريقاً ، فاحترق كثير من قبور الأئمة وما يجاورها من قبور بنى بويه ؛ وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه ، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد

---

(١) تجارب الأمم : ٦/٢٨٢ .

السرخسى وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، وامتدت الفتنة إلى الجانب الشرقى »[1] .
وقال فى سنة ٤٤٤ : « فى هذه السنة زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنية ، وكان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤ ؛ فلما كان الآن عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان ، واختلط بالفريقين طائفة من الأتراك ؛ فلما اشتد الأمر اجتمع القواد ، واتفقوا على الركوب إلى المحال ، و إقامة السياسة بأهل الشر والفساد ، وأخذوا من الكرخ إنسانا علوياً وقتلوه ، فثار نساؤه ونشرن شعورهن واستغثن ، فتبعهن العامة من أهل الكرخ ، وجرى بينهم و بين القواد ومن معهم من العامة قتال شديد ، وطرح الأتراك النار فى أسواق الكوخ فاحترق كثير منها وألحقتها بالأرض » .

* * *

وقد اشتهرت الكوفة بالتشيع والبصرة بالتسنن[2] ، فقال الجاحظ : إن الكوفة علوية ، والبصرة عثمانية ، ثم انتشر بعد الجاحظ التشيع فى البصرة حتى كان فيها فى القرن الخامس ما لا يقل عن ثلاثة عشر مشهداً للعلويين . أما الشام فمن قديم عرفت بالسنية ، ويقول النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ : دخلت دمشق والمنحرف عن على رضى الله عنه كثير ، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب » يعنى كتاب « الخصائص » فى فضل على بن أبى طالب . وسئل وهو بدمشق عن معاوية وما روى من فضائله ، فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟ ! فما زال أهل دمشق يدفعون فى حضنه حتى أخرجوه من المسجد ، ثم حمل إلى الرملة فمات بها[3] .

---

(١) ابن الأثير : ٩/٢١٥ باختصار .
(٢) هذه صيغة اصطنعناها نسبة إلى أهل السنة .
(٣) ابن خلكان : ١/٢٩ .

وتقسمت البلاد الشيعة والسنية ، بل تقسم البلد الواحد التشيع والتسنن ؛ فبلدة نابلس فى النصف الثانى من القرن الرابع كان نصفها سنيين ونصفها شيعيين ، قال المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ : « ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة » .

وجزيرة العرب نفسها كذلك ، « فمذاهبهم فى مكة وتهامة وصنعاء وقَرْح سنّية ؛ وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شُرَاة غالية ؛ وبقية الحجاز وأهل الرى بعمان وهجر وصعدة شيعة »[١] ، « ونصف الأهواز شيعة »[٢] « وأهل قُمْ شيعة غالية قد تركوا الجماعات وعطلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه »[٣] . وحكى ياقوت أنه ولّى عليهم رجل سنى متشدد ، فبلغه أن أهل « قم » لبغضهم الصحابة لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر أو عمر ، فجمع رؤساءهم وقال لهم : إن لم تأتونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر لأفعلن بكم ولأصنعن ، فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا فلم يجدوا إلا رجلا صعلوكا حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك ، فجاءوا به فشتمهم الخ[٤] .

وهكذا سادت العالمَ الإسلامى هاتان النزعتان — السنية والشيعة — تتماديان وتتقاتلان . هـذا عدا ما قام به الشيعة من مؤامرات لقلب الدول والاستيلاء عليها ، وسيأتى الكلام على ذلك فى حينه .

وهناك نزاع آخر ، وهو النزاع بين المذاهب الفقهية — قد كان الخلاف، أيام أصحاب المذاهب ، كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، خلافا فى الرأى والبرهان ؛ غاية التعصب أن يعتقد أن مذهبه حق يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره

---

(١) المقدسى : ٩٦ . (٢) ص : ٤١٥ .

(٣) ٣٩٥ . (٤) معجم ياقوت فى مادة « قم » .

خطأ يحتمل الصواب ، وقلّ أن نرى بين أئمة المذاهب عداء حادا إلا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وازداد بعض الشيء أيام أتباعهم ، ولكنه قلّ أن يتعدى ذلك إلى ضرب أو قتال . فلما انتهى هذا الطور أخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال ؛ ففي القرن الثالث والرابع نرى أن الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة ، من أمثلة ذلك ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٣ إذ قال : « وفيها عظم أمر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ومشْي الرجل مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذى معه من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأرهجوا بغداد[1] . وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد لا يجتمع من الحنابلة اثنان ، ولا يناظَرون في مذهبهم ، ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين ، فلم يفد فيهم ، وزاد شرهم وفتنتهم ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد . وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان حتى يكاد يموت ؛ فخرج توقيع (الخليفة) الراضى بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره . [فمما جاء في هذا التوقيع] : تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهّبين ، والشعر القطط ، والصعود إلى السماء ، والنزول إلى الدنيا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا ؛ ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد (ص) إلى الكفر

---

(١) أصل أرهج أثار الغبار ثم استعمل لإثارة الفتن .

والضلال ، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة ، والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن ، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله (ص) ، وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فلعن الله شيطانا زيّن لكم هذه المنكرات وما أغواه ! وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهراً يلزمه الوفاء به ، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوجّ طريقتكم ليوسِعَنَّكم ضربا وتشديداً ، وقتلا وتبديداً ، وليستعمان السيف فى رقابكم ، والنار فى منازلكم ومحالكم »[1] .

وأمثال هذه الحادثة كثير فى كتب التاريخ .

ثم الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية ، حتى كان يؤول الأمر فى بعض الأحيان إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف . يقول « ياقوت » عند الكلام على « أصفهان » بعد أن ذكر مجدها القديم : « وقد فشا فيها الخراب فى هذا الوقت وقبله فى نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، والحروب المتصلة بين الحزبين ، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها ، لا يأخذهم فى ذلك إلّ ولا ذمة ؛ ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيصلح فاسدها ، وكذلك الأمر فى رساتيقها وقراها التى كل واحدة منها كالمدينة » .

ويقول عند الكلام على « الرّىّ » : كان أهل المدينة ثلاث طوائف : شافعية وهم الأقل ، وحنفية وهم الأكثر ، وشيعة وهم السواد الأعظم ، لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة ، وأما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من

---

(١) ابن الأثير : ٨/١٠٦ .

الحنفية ، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد ، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتظافر عليهم الحنفية والشافعية ، وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يُعرف ؛ فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ، ووقعت بينهم حروب كان الظفر فى جميعها للشافعية ؛ هذا مع قلة عدد الشافعية ، إلا أن الله نصرهم عليهم . وكان أهل الرستاق — وهم حنفية — يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك و يساعدون أهل نحلتهم ، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى أفنوهم[1] إلى غير ذلك .

اليهود والنصارى :

وربما كانت الدولة الإسلامية فى هذا العصر أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لها فى الأديان ، وخاصة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رغم ما كان يبدو بعض الأحيان من ظلم وعسف كالذى كان فى عصر المتوكل ، وقد سبق ذكره ؛ وربما وقع على المسلمين من هذا الظلم ما وقع على غيرهم .

وقديماً كان الامتزاج بين المسلمين واليهود والنصارى حتى فى الأسرة الواحدة بما أباح الله المسلمين أن يتزوجوا بالكتابيات .

ونرى فى هذا العصر حركة اليهود والنصارى قد اتسعت عما كانت بسبب كثرة الاتصال التجارى والحربى والعلمى — والمسلمون فى كثير من مواقفهم يعدلون بينهم ويقرّبون بعضهم ، حتى لقد عفوا عن المال الذى يتركه النصرانى من غير وارث وردّوه إلى أهل ملته ؛ فالخليفة المعتضد « أمر أن يرد تركة من مات من أهل الذمة — ولم يخلف وارثا — على أهل ملته » ، استناداً إلى ما أفتى به يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضيان كانا بمدينة السلام :

---

(١) معجم ياقوت : ٤/٣٥٦

من أن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورِّثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذى رَحِمه[١] .

وانتشر اليهود والنصارى فى نواحى المملكة الإسلامية وأطرافها وداخلها ، فبلغ عدد اليهود فى العراق وحدها حول سنة ١١٨٥ م = سنة ٥٨١ هـ على حسب تعداد بعض المؤرخين ستمائة ألف ، وانتشروا فى دمشق وحلب ، وعلى شاطئ دجلة والفرات ، وفى جزيرة ابن عُمَر والموصل والحلة والكوفة والبصرة وهمذان وأصفهان وشيراز وسمرقند . ويقول المقدسى : فى خراسان يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ؛ وكذلك يقول فى همذان .

ويقول الرحالة بنيامين الذى رحل سنة ١١٦٥م = سنة ٥٦١ هـ : إن فى القاهرة سبعة آلاف يهودى ، وفى الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وفى الوجه البحرى ثلاثة آلاف ، وفى الوجه القبلى ستمائة[٢] .

وفى أوائل القرن الرابع كان فى بغداد وحدها نحو من خمسين ألفاً من النصارى . ويقول المقدسى فى الشام : « إن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى »[٣] .

وانتشرت أديار النصارى فى أنحاء المملكة ، وكانت غنية ببساتينها وخمورها ، واتصل الأدباء بها وأكثروا من القول فيها .

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير فى بعض الدول فى هذا العصر . وكان المسلمون فى أول أمرهم لا يرضون باستخدامهم فى شؤون الدولة ؛ فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من الحِيرة ، وكان نصرانياً ، فقيل

---

(١) كتاب الوزراء للصابى : ص ٢٤٨ .

(٢) نقلا عن متز .　　　(٣) ص ١٨٣ .

له . لو اتخذته كاتباً » ؟ فقال : « لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين »[١] .

فعمر بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم فى الأعمال ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فاستخدموا فى الأعمال من عهد معاوية . وفى عصرنا هذا الذى نؤرخه كثر استخدامهم ، وزاد سلطانهم ؛ فيقول المقدسى : « وقلما ترى به (بالشام) فقيها له بدعة ، أو مسلماً له كتابة ، إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرج الكتّاب ، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى »[٢] . وفى القرن الثالث وَلِىَ فى بعض الأحيان ديوان الجيش نصرانى ، وكان المسلمون يقبّلون يده ، قال الصابى فى كتابه الوزراء : « إن على بن عيسى قال لابن الفرات : ما اتقيت الله فى تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانياً ، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره ؟ ! فقال له ابن الفرات : ما هذا شىء ابتدأته ولا ابتدعته ، وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش إسرائيل النصرانى كاتبه ، وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصرانى كاتب بدر ! ! فقال على بن عيسى ، ما فعلا صوابا ؛ فقال ابن الفرات : حسبى الأسوة بهما وإن أخطآ على زعمك »[٣]

وذكر « عريب » فى كتابه « صلة تاريخ الطبرى » فى حوادث سنة ٣٢٠ أن « أبا الجمال الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كان يسعى دهرَه فى طلب الوزارة ، ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته ويصانعهم حتى جاز عندهم وملأ عيونهم ، وكان يتقرّب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم إن أهلى منكم ، وأجدادى من كبارکم ، وإن صليبياً سقط من يد عبيد الله بن سليمان جده فى أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال هذا شىء تتبرك به عجائزنا فتجعله فى ثيابنا

(١) عيون الأخبار : ٤٣/١ . (٢) ص ١٨٣ .
(٣) الوزراء : ٩٥ .

من حيث لا نعلم — تقرباً إليهم بهذا وشبهه — يعني إلى مؤنس وأصحابه »[١] .

وكان لعضد الدولة البويهي في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون ؛ وقد أذن له عضد الدولة في عمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقراء النصارى[٢] .

وثارت لذلك مسألة فقهية ، وهي : هل يجوز أن يكون الوزير من أهل الذمة أم لا ؟ فقال صاحب « العقد الفريد للملك السعيد » : وهل يشترط في هـذا الوزير (أي وزير التنفيذ لا وزير التفويض « الإسلام » ، حتى لو أقام السلطان وزير تنفيذ من أهل الذمة كان جائزاً أم لا ؟ اختلفت آراء الأئمة في ذلك ؛ فذهب عالم العراق الإمام أبو الحسن على بن حبيب البصري رحمه الله إلى جوازه ؛ وذهب عالم خراسان إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيني إلى منعه ، وعد تجويز ذلك من عالم العراق عثرة لن تقال ، وخطأ فيما قال ؛ وهذا بخلاف وزارة التفويض فإن هذه الشروط معتـبرة من جملة ما تقدم بيانه من الأوصاف في حق المباشر لها[٣] » . واتسعت سلطة اليهود والنصارى في أيام الفاطميين بمصر ، فمن أشهرهم يعقوب بن كِلِّس . قال ابن عساكر : « إنه كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر ، وله حيل ودهاء ، وفيه فطنة وذكاء . ونزل مصر أيام كافور الإخشيدي فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع ؛ فقال : لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيراً ! فطمع في الوزارة فأسلم ... ثم هرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع المعز وخرج معه إلى مصر » ، « وولى الوزارة للعزيز نزار بن المعز وعظمت منزلته عنده ، وأقبلت عليه الدنيا ، وانثال الناس عليه ولازموا بابه ؛ ومهد قواعد

---

(١) عريب : ٨٥ .   (٢) ابن الأثير : ٨/٢٥٥ .

(٣) ص ١٤٧ ، والفرق بين الوزارتين أن وزير التفويض هو أن يفوض السلطان إلى الوزير تدبير المملكة والدولة برأيه ، ويجعل إليه إمضاء أمورها بمقتضى نظره ؛ وأما وزير التنفيذ فسلطته تنفيذ ما يأمر به السلطان ، والأولى بالبداهة أهم .

الدولة وساس أمرها أحسن سياسة ، ولم يبق لأحد معه كلام »[1] .

وكان ابن كِلّس يأخذ من العزيز فى كل سنة مائة ألف دينار ، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار ، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار[2] . وأكثر الشعراء مدائحه ؛ قال ابن خلكان : ولقد نظرت فى ديوان أبى الرقَعْمَق الشاعر فوجدت أكثر مديحه فى الوزير المذكور ، وفيه يقول من قصيدة :

كل يوم له على نُوَبِ الدهـــر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يدٍ شأنها الفرار من البخـــل وفى حومة الندى كرّاره
فاستجِرْه فليس يأمن إلا من تفيّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقا يُعـــمل فيما يُريده أفكاره
لم يدَع بالذكاء والذهن شيئاً فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعاً من الأرض إلا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكَفَاهُ خوفَه من زمانه وحِذاره

« وفى أيام العزيز نزار كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى ، وكان كثير الهجاء ، فهجا يعقوب بن كِلّس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى :

قل لأبى نصر صاحبِ القصر والمتأتى لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز منــه بحسن الثناء والذِكر
وأعط وامنع ولا تَخَف أحداً فصاحب القصر ليس فى القصر

---

(١) ابن خلكان : ٤٩١/٢ وما بعدها

(٢) ابن خلكان : ٤٤٩/٢ .

وليس يدرى ماذا يُراد به   وهو إذا ما درى فما يدرى

ثم قال أيضاً وعرّض بالفضل القائد :

تنصّر فالتنصُّرُ دين حقٍّ   عليه زماننا هــذا يَدُلُّ

وقلْ بثلاثة عزّوا وجَلّوا   وعَطِّل ما سواهم فهو عُطْل

فيعقوب الوزير أبٌ وهذا الـ   عزيز ابنٌ وروح القدس فضل[١]

وقد وَلّى العزيز نزار أيضاً عيسى بن نسطورس النصرانى كتابته ، واستناب بالشام يهوديا اسمه مَنَشّا ، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها فى صورة عملوها من قراطيس ، فيها : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى ؛ وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ؛ فلما رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليهود شيئاً كثيراً »[٢] . ولكن الحاكم بأمر الله اضطهد النصارى واليهود فى بعض نزواته ، فأمرهم بشد الزنّار ولبس الغيار ، « وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين فى سفينة ، وألا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ، ولا يدخلوا مع المسلمين حمّاما ، وجعل لهم حمامات على حدة ؛ ولم يبق فى ولايته دوراً ولا كنيسة إلا هدمها »[٣] ، « وأمر النصارى بأن تعلق فى أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة أرطال بالمصرى ؛ وأمر اليهود أن يحملوا فى أعناقهم قَرَامِيَ الخشب فى زنة الصلبان »[٤] ، « ومنع النصارى من ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم

---

(١) ابن الأثير : ٩/٤٣ .   (٢) ابن الأثير : ٩/٤٢ .
(٣) النجوم الزاهرة : ٤/١٧٧ .   (٤) ١٧٨ .

البغال والحمير بسروج الخشب ، والسيور السود بغير حلية ، وأن يشدوا الزنانير ، ولا يستخدموا مسلماً ، ولا يشتروا عبداً ولا أمة ، وتُتُبِّعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة »[1] ؟ ومع هذا فكان الكتّاب والأطباء فى قصره من النصارى .

وتولى الوزارة سنة ٤٣٦ للمستنصر بمصر « صدقة بين يوسف » وكان يهودياً فأسلم ، وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدبر الدولة ؛ فقال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد مَلَكوا

العزّ فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشار والمَلِكُ

يا أهل مصر إنى نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك[2]

* * *

هذه العناصر الجنسية من الأتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم ، وما تستلزم من عصبيات ؛ وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع ، ومن حنابلة وشافعية وحنفية ، ومن مسلمين ويهود ونصارى ، وغير ذلك كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية ، تتعاون حيناً ، وتتفاعل حيناً ، وتؤثر فى السياسة وفى الدين وفى العلم ، وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحيانا ، والقتال الصريح أحيانا ؛ وكان لها كلها أثر واضح فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية :

قد أثرت فى الحالة المالية إما مباشرة وإما من طريق الحكم والسياسة ، فعمّرت فى ناحية وخربت فى أخرى ، وعدلت فى ناحية وظلمت فى أخرى .

وأثرت فى اللغة والأدب بدخول الأعاجم يتكلمون بلغاتهم ، ويتعلمون اللغة العربية ويحمّلونها أفكارهم وآدابهم .

---

(١) خطط المقريزى : ٢٨٧/٢ .

(٢) حسن المحاضرة : ١١٧/٢ ؛ وقد استفدت من إشارات للأستاذ متز إلى كثير من هذه المصادر .

وأثرت فى المرأة بكثرة الأجناس المختلفة ذوات الخصائص المختلفة ، وقد حملَ النساء من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح فى المظهر وفى الأخلاق وفى العادات ، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخاسون منهن فى سوق الرقيق ، وبما كان يحمله الغزاة معهم فى حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج ، وما كانوا يوزعونه على الجنود وعلى الأهل والأقارب ، وما كانوا يتخلَّون عنه فيعرضونه فى الأسواق .

وأثرت فى الدين من كثرة الجدل بين الفقهاء ، ومن إثارة مسائل يدعو إليها هذا الجدل لم تكن معروفة من قبل ؛ ومن تدخل السياسة فى الأمور الدينية والالتجاء إلى الفقهاء يسألونهم الحلول الفقهية فيما يعرض لهم من مشاكل سياسية واجتماعية ؛ وبما أثاره النزاع الشديد بين السنية والشيعة ، وغلبة التشيع فى بعض الأماكن وتكوين دول شيعية لم تكن فى العصور الماضية ، فدعاها ذلك إلى أن تبلور التشيع وتستعمل عقولها فى إيجاد نظام الحكم والدعوة التى تتفق وأصول الشيعة كما حصل ذلك فى الدولة الفاطمية — وبما كان من الاحتكاك الشديد بين المسلمين واليهود والنصارى ، وما كان بينهم من تسامح أحياناً ، وخصومة أحياناً ، وما كان من جدل دينى بين هذه الطوائف ، وما أثارته هذه الظروف المختلفة من مسائل طائفية تعرض على الفقهاء فيبدون فيها آراءهم فى ضوء الحوادث الجديدة .

وأثرت فى العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم آبائهم ، وجدهم فى تقديم هذه الذخائر إلى الأمة الإسلامية باللغة العربية مما مكن الناطقين باللسان العربى أن يأخذ كل منهم حظه منها ، ويهضمه ما استطاع ويزيد عليه ما استطاع . وتتعاون على الاستفادة منها وترقيتها العقول العربية والتركية والفارسية والرومية والهندية ، ويؤلف بينهـا العلم بعد أن فرقت بينها

العصبيات الجنسية والمذهبية ؛ فيأخذ اليهودى والنصرانى من العالم المسلم ، ويأخذ المسلم من العالم اليهودى والنصرانى ، ويجلس الفارسى والتركى والهندى فى حلقة العربى ، ويتعاون الجميع فى بناء الدولة العلمية غير آبهين بما كان من الساسة فى تهديم الدولة من ناحيتها السياسية .

كل هذا وأمثاله كان من آثار هذه الحركات المختلفة ، وكل ما ذكرته إشارة خاطفة لما كان لها من أثر قوى فعّال سنحاول بعدُ شرح بعضه .

الباب الثانى

أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر

(١) انقسام الدولة — أهم مظهر يأخذ بالأبصار فى ذلك العصر ما حصل للدولة الإسلامية من الانقسام ؛ فقد كانت المملكة الإسلامية كلها فى العصر العباسى الأول — إذا استثنينا الأندلس وبعض بلاد المغرب — تكوّن كتلة واحدة ، وتخضع خضوعا تاما للخليفة فى بغداد ؛ هو الذى يعين ولاتها ، وإليه يجبى خراجها ، وإليه ترجع فى إدارتها وقضائها وجندها وحل مشاكلها ، وتدعو له على المنابر وتضرب السكّة باسمه ، ونحو ذلك من مظاهر السلطان . ثم أخذ هذا السلطان يقل شيئاً فشيئاً بضعف الخلافة حتى تمزقت المملكة كل ممزق ، وأخذت الأقطار الإسلامية تستقل عن بغداد شيئاً فشيئاً ، وأخذ يخشى ولاتها وأمراؤها بعضهم بأس بعض ، ويضرب بعضهم بعضاً ؛ فصارت المملكة الإسلامية عبارة عن دول متعددة مستقلة ، علاقة بعضها مع بعض علاقة مخالفة أحيانا وعداء غالباً ؛ وأصبح لكل دولة مالها وجندها وإدارتها وقضاؤها وسكّتها وأميرها ، إن اعترف بعضها بالخليفة فى بغداد حيناً من الزمن ، فاعتراف ظاهرى ليس له أثر فعلى ! وسوّدت صحف التاريخ بالقتال المستمر بين هذه الدول ، وشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوهم ؛ ومن أجل هذا طمع فيهم الروم يغزونهم كل حين ويستولون على بلادهم شيئاً فشيئاً ، حتى الزنج والحبشة كانوا يغيرون على الدولة الفينة بعد الفينة فينهبون ويسلبون ، ولم تعد المملكة الإسلامية مخشية الجانب كما كانت أيام وحدتها .

ففي سنة ٣٢٤ هـ كانت البصرة في يد ابن رائق ؛ وفارس في يد على بن بويه ؛ وأصبهان والرى والجبل في يد أبي على الحسن بن بويه ؛ والموصل وديار بكر وربيعة في أيدى بنى حمدان ؛ ومصر والشام في يد الإخشيديين ؛ وإفريقية والمغرب في يد الفاطميين ؛ وخراسان وما وراء النهر في يد السامانيين ؛ وطبرستان وجرجان في يد الديلم ؛ وخوزستان بيد البريدى ؛ والبحرين واليمامة وهَجَر بيد القرامطة ، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وما حولها ، وحتى هـذه لم يكن له فيها إلا الاسم .

وقد أجاد المسعودى في ملاحظته وجه الشبه بين حالة المملكة الإسلامية بعد هذا الانقسام ، ومملكة الإسكندر المقدونى بعد وفاته فقال : « ولم نعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكفى والمطيع ومذاهبهم إذ كانوا كالمولَّى عليهم ، لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلّب على أكثرها المتغلبون ، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم ؛ وأما بالحضرة (بغداد) فتفرد بالأمور غيرُهم فصاروا مقهورين خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة . وما أشبّه أمور الناس في الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الملك الإسكندر بن فيلبس دَارَا ملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك ، كلّ قد غلب على صقعه يحامى عنه ، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العمارة وانقطاع السبل ، وخراب كثير من البلاد ، وذهاب الأطراف ، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه »[1] .

كان كثير من الدول يعترف بالخلافة وسلطتها الدينية ، فهى إذا استقلت سياسياً ومدنياً رأت مما يزيدها سلطة وقوة اعترافها بالخليفة واعتراف الخليفة بها ،

---

(١) المسعودى في كتابه التنبيه والإشراف ص ٤٠٠ .

كما فعل عضد الدولة بن بويه مثلا لما فتح كِرْمان ، فقد استرضى الخليفة فأنفذ إليه الخليفة عهده وخِلَعه من الطوق والسوارين[1] .

ومع مضى الزمن وضعف الخلافة قطعوا هـذه الصلة أيضاً وتلقبوا بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء . وأول من فعل ذلك الفاطميون ، فبعد أن فتحوا القيروان سـنة ٢٩٧ تلقبوا بالخلفاء ، وشجعهم على ذلك أنهم شيعيون يقولون باغتصاب الأمويين والعباسيين حقهم فى الخلافة ، فلما تملـكوا حققوا نظريتهم فى أحقيتهم فتسمَّوا بالخلفاء — فلما رأى الأندلسيون ذلك قلدوهم مع أنهم سنيون ، فتلقب عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس بأمير المؤمنين نحو سنة ٣٥٠ ، وكانوا يلقبون من قبله بالأمراء ، وبنى الخلفاء . قال المقّرى : « هو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣١٧ ، فتلقب بألقاب الخلافة »[2]

وهنا يصح لنا أن نتساءل سؤالين : الأول : هل كان انقسام المملكة الإسلامية إلى أقسام على النحو الذى أبنّا فى مصلحة الأقطار الإسلامية أو فى غير مصلحتها ؟ قد يبدو هذا السؤال غريباً ، لأن الناس اعتادوا أن يقيسوا رقى المملـكة الإسلامية بوحدتها وضعفها بانقسامها ، وبعبارة أخرى ربطوا رقى المملـكة الإسلامية بحال الخليفة ؛ فإذا كان الخليفة قوياً باسطاً سلطانه على الأقطار كلها ، فالدولة قوية ، وإلا فهى ضعيفة .

وفى رأيى أن هذا مقياس غير صحيح ؛ فقد يضعف الخليفة وتصلح الأقطار

---

(١) تجارب الأمم : ٢٥٣/٦ .

(٢) نفح الطيب : ١٦٦/٢ ، ويلاحظ عليه أن قتل المقتدر كان سنة ٣٢٠ لا سنة ٣١٧ كما ذكره .

والعكس . وهذا ما حدث فعلا ، ففي رأيي أن كثيراً من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة فى بغداد خيراً منها قبله ؛ فيظهر لى أن مصر تحت حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاة بغداد قبل الطولونيين ؛ وكذلك حكم السامانيين لفارس وما وراء النهر كان خيراً من حكم من سبقهم من ولاة العباسيين ، وربما كان شر أيام بغداد هو هذه الأيام التى كانت تخضع فيها للخلفاء ، وما حولها مستقل عنها .

فإذا قسنا الأمور بمصلحة المحكومين لا الخلفاء — وهو فى نظرى أصح مقياس — كان هذا الانقسام فى مصلحة الأقطار المستقلة فى أغلب الأحوال ، وعلى الأقل كان فى مصلحتهم نسبياً ، أعنى بالنسبة للحالة السيئة التى كانوا عليها قبل استقلالهم ، فالإدارة وانتفاع كل قطر بماله يصرفه فى مصالحه والعدالة النسبية فى توزيع الثروة ونحو ذلك ، كلها كانت خيراً منها أيام سلطة الخلفاء الضعفاء ومن يتولاهم من الأتراك الأقوياء .

والأندلس لما أتيح لها الاستقلال فى بدء العصر العباسى ، ومَنَعَتْها قوتها وبعدها من أن يخضعها العباسيون لحكمهم ، أزهرت وتمدنت وساهمت فى بناء المدنية ، فى العلم والأدب والحضارة ، وما أظن أنها كانت تبلغ هذا المبلغ لو عاشت فى أحضان الدولة العباسية .

نعم ! إنهم — وقد تفرقوا — أصبحوا أضعف أمام العدو الخارجي كالروم ، وصار يحمل العبء كله دويلة مستقلة كدولة الحمدانيين ، وكان يحمل العبء قبلُ المملكةُ الإسلامية كلها ، فمن هذه الناحية كان هذا مظهر ضعف للدولة ، خصوصاً والدول المستقلة لم تستطع أن تتفاهم ، وترتب بينها نظاما مشتركا يضمن دفع غارة الأعداء الخارجين ، لأن هذا النظام يتطلب رقياً فى الفكر ، وضبطا للعواطف ،

وتقديماً للمصلحة العامة على الخاصة ؛ وهى درجة لم يستطع المسلمون الوصول إليها حتى الآن ! إنما كانت علاقة كل دولة مسلمة بجارتها المسلمة علاقة عداء غالباً ، فلم يتمكنوا من التفاهم على مصالحهم الداخلية فضلا عن المصالح الخارجية ، ولو استطاعوا — مع استقلالهم — أن ينظموا شؤونهم مع من بجوارهم ، وينظموا صفوفهم أمام عدوهم الخارجي لبلغوا الغاية . ولـكنى مع هذه الشرور كلها أرى أن حالة كثير من البلدان الإسلامية نالت باستقلالها من الطمأنينة والرخاء ما لم تنعم به فى الأيام الأخيرة لتبعتها بغداد .

والسؤال الثانى : ما موقف العلم والأدب بعد هذا الانقسام ، هل أثر فيهما أثراً حسناً أو سيئاً ؟ وهل انحط العلم والأدب بانحطاط خلفاء بغداد أو رَقِيا باستقلال الأقطار ؟

أرى أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه قبل ، وأنه لم يؤثر فيهما كثيراً ضعف خلفاء بغداد ؛ ذلك أن حركة الترجمة التى نقلت ذخائر الأمم المختلفة وخصوصاً الأمة اليونانية ، وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربى ، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها ؛ وهذا ما فعله عصرنا هذا كما سيأتى بيانه . ومن جهة أخرى كان وضع السلطة كلها فى يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمى الوحيد ، أو على الأقل المركز العلمى والأدبى الهام وما عداه فاتر ضعيف ، فكان من تفوّق فى علم أو أدب فلا أمل فى شهرته ونبوغه ، وذيوع صيته وثروته ، إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها ؛ فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزاً هاما لحركة علمية وأدبية ، فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد ، ويُحَلّون عاصمتهم بالعلماء والأدباء ، ويفاخرون

أمراء الأقطار الأخرى فى الثروة العلمية والأدبية ، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المبانى . فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لها مراكز هامة متعددة ، وأصبح علماء مصر — مثلا — يساجلون علماء بغداد ، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق ، وهـذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقويها ويرقيها .

وحتى نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزين قصورهم بالعلماء والأدباء .

ومن ظريف ما يحكى فى ذلك أن بجكم التركى كان بواسط ، وكان من المقربين إليه أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولى ؛ وكان بجكم لا يحسن العربية ، فاستدعى يوماً الصولىّ وقال له : إن أصحاب الأخبار رفعوا إلىّ أنى لما طلبتك من المسجد (وكان الصولى يقرأ درساً فى المسجد) قال الناس : أعْجَلَه الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث ؟ (يقولون ذلك تهكماً ببجكم لأنه لا يحسن العربية) ؛ ثم قال بجكم رداً على هـذا : « أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبتى وتحت اصطناعى وبين يدىّ لا يفارقنى »[1] .

ولعله بهذا القول يعبر عما فى نفس كل أمير فى كل إقليم .

ومن أجل هـذا كان مؤرخ العلم والأدب قبل الاستقلال يجد نفسه أمام ثروة كبيرة علمية وأدبية فى العراق ، ثم لا يجد إلا نتفاً قليلة منها فى تاريخ غيره ؛ أما بعد الانقسام فلكل إقليم شخصية متميزة فى علمها وأدبها ، وإن كانت على

---

(١) الأوراق : أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٩٥ .

على أنا إن سلمنا فرضاً أن الحياة السياسية بعد الانقسام كانت شراً منها قبله ، فلا نسلم ذلك فى العلم والأدب . والتاريخ يرينا أن الحالة العلمية لا تتبع الحالة السياسية ضعفاً وقوة ؛ فقد تسوء الحالة السياسية إلى حد ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية ؛ ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس ، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوى العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسى إلى العمل العلمى ، لأنهم يجدون العمل السياسى يعرضهم لمصادرة أموالهم ، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم ، على حين أن العمل العلمى يحيطهم بجو خاص هادئ مطمئن ، ولو كان الجو العام مائجاً مضطرباً . وكذلك كان الحال فى تاريخ كثير من علماء المسلمين ، جربوا الوزارة وولاية الأعمال فتعرضوا للخطر فهربوا إلى العلم فنجحوا — وأيضاً فقد وقر فى نفوس الخلفاء والأمراء حرمة العلماء ، متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا بعيد ، وهذا يمكنهم من بحثهم العلمى فى هدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بهم من فوضى واضطراب . لقد كان الفارابى مثلا فى جو سياسى مضطرب سواء كان فى حلب بين الحمدانيين ، أو فى بغداد فى حكم الأتراك ، ومع ذلك خلق لنفسه ، ولمن حوله من تلاميذه حِمًى يُرَقَّى فيه علمه وبحثه ، وإذا عصفت العواصف كانت حول حماه ، ولا تغشاه ، لا يهمه فى حياته إلا علمه ؛ أما ما عداه من أفانين السياسة وألاعيبها ، وشؤون الدنيا وشهواتها فلا يأبه بها ويقول :

أخى خَلِّ حَيِّزَ ذى باطل وكن للحقيقة فى حيِّز
فما الدار دار مُقامٍ لنا وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجَز
محيط السماوات أولى بنا فماذا التنافس فى مركز ؟!

وأبو العلاء المعرى يترك الدنيا مضطربة فى المعرة وما حولها ، وفى بغداد وما حولها ، ويخلق لنفسه جواً علمياً فكريا هادئا لا نزاع فيه إلا على مسألة علمية أو مشكلة لغوية ؛ أو فكرة فلسفية ، لا علاقة له بأمير إلا أن يتشفّع عنده فى بلده فيشفع ، ولا علاقة له بوزير إلا أن يستفتيه فى مسألة علمية فيجيب — وهكذا سيرة كثير من العلماء ، فلم لا يرقى العلم فى هذه الأجواء الهادئة مهما أحاط بها من ظروف عاصفة ؟ !

وحتى الذين اكتووا بالسياسة من قرب أو بعد ، كالصُّولى والصابى وابن العميد ، قد أفادوا العلم والأدب بانغماسهم فى الحياة السياسية ، وإن احترقوا بنارها .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا عصر النهضة العلمية والأدبية فى أوروبا كانت الأفكار فيه تبحث وتنتج وتبتكر ، والجو السياسى حولها أسوأ ما يكون نزاعا وفساداً وظلما ، فلما خطت الأفكار العلمية والأدبية خطواتها كانت هى التى تصلح الجو السياسى ، لا أن الجو السياسى يخنقها .

والخلاصة أن الحالة العلمية فى أواخر القرن الثالث وفى القرن الرابع ، كانت أنضج منها فى العصر الذى قبله : أخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلهم فشرحوه وهضموه ؛ وأخذوا النظريات المبعثرة فرتّبوها ؛ وورثوا ثروة من قبلهم فى كل فرع من فروع العلم فاستغلوها ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله .

(٢) **الترف والبؤس ، واللهو والجد** — حيثما نظرنا إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى فى ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلا ولا متقاربا ، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وإمعان فى الترف يقابله فقدان القوت .

وهذا الترف والنعيم حظ عدد قليل هم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من

الأدباء والعلماء ، وبعض التجار ؛ ثم البؤس والشقاء والفقر لأكثر الناس . وحتى غِنى الأغنياء فى كثير من الأحيان ليس محصَّناً بالأمان ، فهو عرضة لغضب الأقران أو غضب ذى السلطان الأعلى ، فيصادَرون فى أموالهم ، ويصبح حالهم أشد بؤساً من فقير نشأ فى الفقر ؛ وقد مرت بنا أمثلة من هذا القبيل .

والآن نصوّر بعض صور توضح الحالين .

فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة ، مترفة كل الترف ؛ فابن المعتز يصف فى ديوانه أبنية للخليفة المعضد اسمها الثريا فيقول :

حللْت « الثريا » خير دارٍ ومنزل   فلا زال معموراً وبُورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبهٌ   ولا ما بناه الجن فى سالف الدهر

☆ ☆ ☆

جِنانٌ وأشجار تلاقت غصونها   فأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطيرَ فى أغصانهن هوانفاً   تَنَقّلُ من وَكرٍ لهن إلى وكر

☆ ☆ ☆

وبنيان قصرٍ قد علت شُرُفاته   كصفٍّ نساء قد تربّعن فى الأُزر
وأنهار ماء كالسلاسل فُجِّرَتْ   لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وحشٍ تركض الخيل وسطه   فيؤخذ منها ما يشاء على قَدْر
عطايا إلهٍ منعم كان عالما   بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

واشتهر من الأبنية كذلك قصر « التاج » ، ابتدأ فى بنائه المعتضد أيضاً ، ثم عدل عنه وبنى « الثريا » ؛ فلما تولى ابنه المكتفى أتم بناء « التاج » ، واستعمل فى بنائه الآجرّ من قصر كسرى الذى بقى منه إلى الآن إيوانه . وكانت

وجهة التاج مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين ، وكانت غاية فى السعة والضخامة .

وكلا البناءين : التاج والثريا ، كانا فى الجانب الشرقى من بغداد[1] . وقبل ذلك عظم البناء فى سامرّا ، و بنى المتوكل فيها الأبنية الضخمة ، حتى ليذكر ياقوت ثبتاً ببيان ما بناه ونفقاته فيقول :

« ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعَرُوس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم ؛ والجعفرى عشرة آلاف ألف درهم ؛ والغريب عشرة آلاف ألف درهم ؛ والشيدان عشرة آلاف ألف درهم ؛ والبرج عشرة آلاف ألف درهم ؛ والصبح خمسة آلاف ألف درهم ؛ والمليح خمسة آلاف ألف درهم ؛ وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم ... » إلى آخر ما ذكر ، إلى أن قال : « فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم ؛ وقد قال علىّ بن الجهم فى وصف الجعفرى أحد قصور المتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبنى على قدر أقدارها
وأعـــلم أنّ عقول الرجا ... ل تُقضَى عليها بآثارها
فلمـــا رأينا بناء الإمام ... رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارسٌ ... ولا الروم فى طول أعمارها
وللروم ما شـيَّد الأولون ... وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لهـــا نخوة ... فطامنْتَ نخوة جبارها
وأنشأتَ تحتجّ للمسلمين ... على ملحديها وكفّارها

---

(١) انظر معجم ياقوت فى مادتى الثريا والتاج .

صُحُوْن تسافر فيها العيون ... إذا ما تجلّت لأبصارها
وقبَّة ملك كأن النجوم ... تضىء إليها بأسرارها
نظمن الفَسافس نظم الحلىّ ... لِعُون النساء وأبكارها
لو اُنَّ سليمان أدّت له ... شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم ... تقدمها فصل أخطارها

وللبحترى قصائد فى وصف بركتها ومحاسنها .

و بلغت سامَرّا فى الحضارة شأواً بعيداً حتى أفسدها وخربها الخلاف والعصبية بين أمراء الأتراك ، وتحول عنها الخلفاء إلى بغداد ؛ وكان أول من فعل ذلك المعتضد بالله ، فقد حول العُمران إلى بغداد و بنى بها الثريا والتاج .

وقد وصف الخطيب البغدادى قصر المقتدر بالله ، الذى تولى من (٢٩٥ — ٣٢٠) ، بمناسبة زيارة رسول من الروم له ، فقال : إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصى ، وكذا من صقلبي ورومى وأسْوَد — وهذا جنس واحد ممن تضمه الدار ، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشى من الفحول . وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول فى الدار . . . وفتحت الخزائن ، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العروس . وقد علقت الستور ، ونظم جوهر الخلافة فى قلاّيات على دُرُج غشيت بالديباج الأسود . ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثرة تعجبه منها ؛ وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفّر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجّب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده ... وكان عدد ما علق فى القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة ، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد ، والستور الكبار

البصنائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر . . . وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ؛ ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجِلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزة الجميلة . ثم أدخلوا دار الوحش ، وكان فيها من أصناف الوحش التى أخرجت إليهم قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع : خمسون يمنة وخمسون يسرة . . . ثم أخرجوا إلى الجوسق المحْدَث ، وهى دار بين بساتين ، فى وسطها بركة رصاص قَلْعى[1] حواليها نهر رصاص قلعى أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعا فى عشرين ذراعا ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة ... وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيها نخل ، وعدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجا منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة . . . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فى الناورد جنباً وتقريبا ، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ؛ وفى الجانب الأيسر مثل ذلك .

ثم أخرجوا — بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً — إلى الصحن التسعينى ، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل .

---

(١) القلع نوع من المعدن ينسب إليه الرصاص .

ثم وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى « التاج » مما يلى دجلة ، بعد أن لُبِّس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب ، على سرير آبنوس قد فرش بالديبقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلةُ ؛ ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أنخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ؛ وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمنة ، واثنان يسرة[1] .

ولعل هذه الصورة خير وصف لقصور الخلفاء فى ذلك العصر .

والخلفاء من أول العصر العباسى يعلو كل خليفة ما قبله درجة أو درجات فى الترف والنعيم والإمعان فى فنون الحضارة ، والأغنياء يتبعونهم فى ذلك على قدر مواردهم ، سائرين على حكم الزمان .

ولذلك لما جاء المهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦) ، ونزع نزعته إلى الزهد استُغرب منه ذلك ، ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته ، وأدى الأمر إلى قتله .

ذلك أنه جعل مثله الذى يجب أن يحتذى عمر بن عبد العزيز ، فحرّم الشراب ونهى عن القِيان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء ، وأحسن معاملة الطالبيين ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأخرج آنية الذهب والفضة من خزائن الخلفاء فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التى كان يناطَح بها بين يدى الخلفاء ، وكذلك فعل فى الديوك ؛ وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك ، وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم .

وكان يتهجد فى الليل ويطيل الصلاة ، ويلبس جبة من شعر .

---

(١) انظر تاريخ الخطيب : ١/١٠٠ وما بعدها طبعة مصر .

قال المسعودى : « فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه » .

ولما قبضوا عليه قالوا له أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول (ص) وأهل بيته والخلفاء الراشدين ! فقيل له : إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركى وخَزَرى ومغربى وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، و إنما غرضهم ما استعجلوه من الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة ؟ ! »[١] .

ولم يدم فى خلافته إلا أحد عشر شهراً .

وهكذا كان تيار الترف شديداً جارفا حتى ليكتسح من وقف فى سبيله .

وقد أنشأ عضد الدولة البويهى بستانا بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم[٢] .

والوزير ابن مقلة يربى الحيوانات فى قصره و يعنى بها أكثر عناية ، « فكان له بستان عظيم عدة أجربة ، شجر بلا نخل ، عمل له شبكة إبريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التى لا تفرخ إلا فى الشجر ، كالقمارى والدِّبَاس والهَزَار والببغ والبلابل والقَبَج ؛ وكان فيه من الغزلان والنعام والأيّـل وحمر الوحش . وبُشر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر برى ، فباض وفقس ، فأعطى من بشره بذلك مائة دينار »[٣] .

« والوزير ابن الفرات كان يملك أموالا كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف

---

(١) مروج الذهب : ٣٣٨/٢ وما بعدها . (٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن الجوزى فى المنتظم .

دينار ، وكان يستغل من ضياعه فى كل سنة ألفى ألف دينار وينفقها . وكانت فى داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون الأشربة والفقّاع والجُلّاب إلى دورهم »[١] ؛ وكان ابن الفرات لا يأكل إلا بملاعق البلور ، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة .

وكان راتب أبى طاهر وزير عز الدولة من الثلج فى كل يوم ألف رطل . وكانت أم المقتدر يشترى لها ثياب ديبقية يسمونها ثياب النعال ، وذلك أنها كانت صفاقا تقطع على مقدار النعال المحذوّة ، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام . . . وكانت نعال السيدة من هذا المتاع ، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام أو حواليها حتى تخلق وتتفتق وترمى ، فتأخذها الخزّان وغيرهم ، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك »[٢] .

« وكان الوزير المُهَلّبي كثير الشغف بالورد ؛ روى من شاهده قال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام وردٌ بألف دينار ، فرش به مجالسه وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوارات عجيبة ، يُطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين ؛ وبعد شربه عليه ، وبلوغه ما أراده منه ، أنهبه »[٣] .

وانتشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب ، كالذى فعله « كشاجم » فى تأليف كتابه « أدب النديم » ، وتفننوا فيما يكتب من الشعر

---

(١) ابن خلكان : ١/٥٣٠ .   (٢) نشوار المحاضرة .
(٣) ياقوت .

على القنانى والـكاسات[١] . واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب وبالغوا فى الإسراف فيها ؛ « يحكى أنه كان للوزير المهلبى ندماء يجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة ، وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضى التنوخى ، وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ؛ وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهَبُوا ثوب الوقار للعُقار ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شراباً قطربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، . . . فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التزمّت والوقار »[٢] .

ونذكر هنا ثروة أحد الولاة لدلالتها على مقدار الثروة ونوعها ؛ فقد مات فى سنة ٣٠١ أبو الحسين على بن أحمد الراسبى عن سن كبيرة ، وكان يتقلد جنديسابور والسوس وماذاريا ، ومات أولاده قبله ، وكان له حفدة ، فخلف :

٤٤٥٥٤٧	ديناراً ذهباً عينا .
٣٢٠٢٣٧	درهما عيناً .
٤٣٩٧٠	مثقالا وزن الأوانى الذهبية .
١٩٧٥	رطلا وزن الأوانى الفضية .
٤٤٢٠	مثقالا من العود المُطَرَّى .
٥٠٢٠	« من العنبر .
٨٦٠	نافجة من نوافج المسك .

---

(١) كتب طرفا من ذلك الموشى . (٢) يتيمة الدهر : ٢/١٠٦ .

١٦٠٠	مثقال من المسك المنثور .
١٣٩٩	مثالا من البرمكية (نوع من الطيب) .
٣٦٦	مثقالا من الغالية (نوع من الطيب) .
٨٨	ثوبا من الثياب المنسوجة من الذهب .
١٣	سرجا .
٢	حجران عظيمان من الياقوت .
٧٠	حبة من اللؤلؤ .
١٣٥	رأساً من الخيل .
١١٤	من خدم السودان .
١٢٨	من الغلمان البيض .
١٩	خادماً من الصقالبة والروم .
٤٠	غلاماً بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم .
٢٠٠٠٠	دينار قيمة أصناف من الكسوة .
١٢٨	رأساً من المهارى والبغال .
١٢٥	خيمة من الخيام الكبار .
١٤	هودجا .
١٤	صندوقا من الغضائر الصينى والزجاج المحكم الفاخر .

وخلف عضد الدولة البويهى ٢٨٤ر٨٧٥ر٢ ديناراً ، ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ر٨٦٠ر١٠٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئاً كثيراً[1] .

---

(١) الصابى .

وتفننوا فى الصناعات الجميلة من أنواع الحلى والدقة فى النسج وزركشة الثيـاب وأنواع العطور ، والنقش والتصوير ، وأصناف الأزياء والمأكول والمشروب ، والحدائق والبساتين ، والغناء والموسيقى مما يطول شرحه ، وكلها يستمتع بها طبقة الأشراف والموسرين .

وبلغوا من الأناقة فى المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألفوا فى ذلك الكتب كالموشّى للوشاء ، و « حدود الظرف » له أيضاً ؛ و « ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر » للرازى ، و « ترتيب أكل الفواكه » له أيضاً ، و«آداب الحمام» له أيضاً ، و«الزينة» لحنين بن إسحاق،و« الهدايا والسنة فيها » لإبراهيم الحربى ، و « النبيذ وشربه فى الولائم » لقسطا بن لوقا الخ ؛ فقال الموشى : « اعلم أن من كمال أدب الأدباء ، وحسن تظرف الظرفاء ، صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحداً فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارئ فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مُسرٍ سره ، ولا يسألون عما وُرى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه » الخ . ووضعوا قوانين الظرف تفصيلا كما وضعوها إجمالا ، فقوانين الظرف فى الزى ، وفى التعطر ، وفى الشراب ، وما هو ظرف فى الرجال لا فى النساء ، وما هو ظرف فى النساء لا فى الرجال ، وهكذا .

فإذا نحن جاوزنا العراق إلى غيره من الأقطار رأينا فى الشام مثلا آل حمدان ، وعلى رأسهم سيف الدولة مترفين ممعنين فى الترف .

« فيحكى أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت توزون ؛ اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه ، وبين يديه عبد له صغير ، وقصد الفرجة وألا يُعرف ؛ فاجتاز

بشارع دار الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان ، فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه ؛ ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ؛ ففتحوا الدواة فإذا فى الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ، فتعجبوا ، وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفى الدنانير فى الحال والوقت[١] (وهذا هو نظام الحوالات) ؛ فسألوه عن الرجل ، فقال : ذلك سيف الدولة بن حمدان »[٢] .

وضرب للصلات خاصة دنانير فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته[٣] .

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيساً فارغا ودرجا فيه شعر استأذنه فى إنشاده فأذن له ، فأنشده قصيدة أولها :

جِبَاؤكَ معتاد وأمرك نافذ وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكا شديداً ، وأمر له بألف دينار ، فجعلت فى الكيس الفارغ الذى كان معه[٤] .

وقصوره كانت ملأى بالجوارى وخاصة من أسرى الروم . « وكانت له جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الريح الهابة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه » الخ[٥] . وكان يركب فى خمسة آلاف من الجند ، وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته[٦] .

---

(١) فى هذا دليل على استعمال الصك أو الشيك فى ذلك الوقت .

(٢) الهمدانى : مخطوط بباريس . (٣) اليتيمة : ١/٢٨٢ .

(٤) ابن خلكان : ١/٤٦٢ . (٥) يتيمة : ١/١٩ — ٢١ .

(٦) الواحدى على المتنبى .

وكان الملوك والأمراء فى مصر فى منتهى الترف والنعيم . فنى العهد الطولونى كان الحى الذى فيه الآن جامع ابن طولون وما حوله من القلعة إلى «زين العابدين» يزخر بالمبانى الضخمة ، وفيها هذا المسجد الفخم والمستشفى الكبير ، والقصور الشامخة ، والميادين الفسيحة ، وآيات الفن ؛ فقد كان بجوار جامع ابن طولون ميدان فسيح ، فجعله خمارويه بن أحمد بن طولون كله بستانا بديعاً ، زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر المطعم وأنواعِ الورد ؛ وكان من بِدْعه أنه كسا أجسام النخل نحاسا مذهبا ، وجعل بين النحاس والنخل مواسير من الرصاص يجرى فيها الماء فكان الماء يخرج من النحاس الملبس فى النخل فينحدر إلى فساق ، ويفيض الماء من الفساق إلى مجار تسقى سائر البستان ؛ وهندس البستان هندسة بديعة ، فعمل من الرياحين كتابة مكتوبة فى البستان يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ؛ وعمل فى البستان برجا من خشب الساج منقوشا ومطعما ، وسرّح فيه أصناف الحمام وأصناف الطيور المغردة ، وجعل فى البرج أوكاراً لأفراخها ، وعيدانا مثبتة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت ، حتى يجاوب بعضها بعضا بالمناغاة ؛ وسرح فى البستان الطواويس والدجاج الحبشى ونحو ذلك ؛ وعمل فيه مجلسا سماه دار الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة و نصف من خشب صورت فيه صورته ، والمغنيات التى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، ولونت أجسامها بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

وعمل فيه فسقية ملئت من الزئبق ، وطُرح عليه فرش ملئ بالهواء وشد بزنانير من حرير فى حلق من الفضة ؛ فينام أحيانا عليه فيرتج ارتجاجا ناعماً ؛

وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا ائتلف نور القمر بنور الزئبق .

وجعل فى ناحية من نواحى القصر داراً للسباع ، لكل سبع بيت ، ولكل بيت باب يفتح من أعلاه ، ولكل بيت طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل به ؛ وفرش بيوت السباع وما حولها بالرمل يجدد من حين إلى حين .

وأكثر من الخدم ، ودرّب كثيراً منهم على التفنن فى الطهى وتنويعه . واشتهر عبيد مصر إذ ذاك بحسن الطهى كما عودهم خمارويه ؛ فكان الناس يأتون من مختلف الأقطار لشرائهم لحسن سمعتهم فى هذا الباب .

ولعل أكبر ما يوضح هذا الترف والنعيم زواج « قَطْر الندى » بنت خمارويه . وقد خطبها خليفة المسلمين فى بغداد المعتضد بالله العباسى . فتفنن خمارويه وأنفق خزائن الدولة فى جهازها يحمله من مصر إلى بغداد ، حتى تضعضعت حالة مصر المالية بعد ذلك الإسراف .

فكان من بين هذا الجهاز دَكّة تتألف من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . وكان فى الجهاز مائة هاون من ذهب . وقد عمل حساب نفقات الجهاز ، فكانت دفعة من نفقاته أربعمائة ألف دينار .

وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد ، والشقة بينهما بعيدة . فأمر خمارويه فبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصراً تنزل فيه قطر الندى . وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فإذا أتمت مرحلة وجدت قصراً قد فرش ، وأعدّ بكل أنواع المعدات ، فكأنها فى هذه الرحلة الطويلة فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢[1] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى خطط المقريزى والنجوم الزاهرة .

وثروة آل الجصاص فى العهد الطولونى كانت تقدر بملايين الدنانير ويحكى أحدهم وهو الحسن بن عبد الله الجَصّاص — وكان من أعيان التجار فى الجواهر — سبب ثروته فيقول : « كان بدء يسارى أنى كنت فى دهليز أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكنت وكيله فى ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه ، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصى به ، فخرجت إلىّ قهرمانة لهم فى بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه ، كل حبة تساوى مائة ألف دينار عندى ؛ قالت نحتاج أن تخرط هذه حتى تصغر فنجعلها فى آذان اللعب وفى قلائدها . فكدت أطير ، وأخذتها وقد قلت السمع والطاعة ؛ وخرجت فى الحال وجمعت التجار ، واشتريت مائة حبة من النوع الذى طلبَتْه . . وقامت علىّ المائة حبة بدون المائة ألف درهم ، وأخذت منهم جوهراً بمائتى ألف دينار[١] .

وفى العهد الفاطمى كان الترف أنعم وأضخم وأفخم . تقرأ فى خطط المقريزى وصف خزائن الفاطميين وحياتهم فى القصور ، وتفننهم فى أدوات الترف والنعيم فيأخذك العجب العاجب ، فيقول : « إنه كان للخليفة خزانتان : ظاهرة وفيها الملابس التى ينعم بها على الناس ؛ و باطنة وهى الخاصة بلباس الخليفة ، و يتولاها امرأة تنعت بزين الخُزّان و بين يديها ثلاثون جارية ، فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها ... وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج يعنى أبداً فيه بالنسرين والياسمين ، فيحمل فى كل يوم منه شىء فى الصيف والشتاء لا ينقطع أبداً برسم الثياب والصناديق .

---

(١) فوات الوفيات : ١/١٣٨ .

ولما كشف حاصل الخزائن الخاصة للعاضد بالقصر كان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع ، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر[١] .

وفى أيام شدة المستنصر أخرج من بعض خزائن القصر صندوق كِيلَ منه سبعة أمداد زمرد ؛ فسأل بعض من حضر من الوزراء الجوهريين كم قيمة هذا الزمرد ، فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً ، ومثل هذا لا قيمة له ! ... وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل من ثمانية ألف دينار فصاعداً ؛ وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهبا وفضة من سائر أنواع الجواهر المختلف الألوان والقيم والأثمان ... وأحضرت خريطة فيها نحو ويبة جواهر ، وأحضر الخبراء من الجوهريين فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشترى مثلها إلا الملوك ، فقومت بعشرين ألف دينار . وأخرج طاووس ذهب مرصع بنفس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب ، على ألوان ريش الطاووس ؛ وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر ، مرصع بسائر الدرر والجوهر ، وعيناه ياقوت ؛ وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، وبطنه أبيض قد نظم من در رائع الخ الخ[٢] . ونحو هذا ذكر المقريزى فى خزائن العرش والأمتعة ، وخزائن السلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود .

ورووا أن المعز لدين الله فاتح مصر لما خرج من بلاد المغرب أخرج معه أموالا كانت له بها ، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين . وكان معه مائة جمل عليها هذه الطواحين من الذهب . وأمر المعز بها حين دخل إلى مصر فألقيت

---

(١) المقريزى : ١/٤١٣ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى المقريزى : ١/٤١٤ وما بعدها .

على باب قصره ، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء فى أيام المستنصر فلما ضاق الناس بالأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد ، وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها ، فأمر بحمل الباقى إلى القصر ، فلم تُر بعد ذلك .

وقد عمل المعز عضادتى باب من أبواب قصره من تلك الأرحية ، واحدة فوق أخرى فسمى باب الذهب ، وسميت القاعة التى يدخل إليها من هذا الباب قاعة الذهب(١) .

ولما دخل صلاح الدين القصر الكبير للخلفاء الفاطميين ، وجد فيه اثنى عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وولده(٢) .

ومهما بالغ المقريزى ومن نقل عنهم فى وصف غناهم فإن الأساس صحيح وهو غنى القوم ، وإمعانهم فى الترف إمعانا يزيد عما وصل إليه العباسيون أيام الرشيد .

« وكان إقطاع الوزير ابن كلّس (وزير العزيز بالله) مائة ألف دينار فى السنة ، ووجد للوزير المذكور من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار ، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار »(٣) .

ويصف لنا عمارة اليمنى داراً بناها ابن رُزِّيك الوزير الفاطمى فيقول :

فتَمَلَّ داراً شيّدتها همـــة يغدو العسير ببابها متيسِّرا
جَمَّلتها وتجملت مصرٌ بهـــا لما علت بك عزة وتكبُّرا
وسقيتَ من ذَوْب النُّضار سقوفها حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرمان إلا مثمرا

---

(١) المقريزى : ١/٤٣٢ ، ٣٨٥ . (٢) ١/٣٨٤ .
(٣) ابن خلكان : ٢/٤٩٩ .

وبها من الحيوان كل مشهّر   لبس الوشيج العبقرى مشهّرا
وكأن صولتك المخوفة أمّنت   أسرابها ألاّ تراع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعا   زفّت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيّرا ومسهّما   ومنمنما ومدرها ومدنّرا
والعاج بين الآبنوس كأنه   أرض من الكافور تنبت عنبرا

قد كان منظرها بهيًّا رائقا   فجعلتها بالوشى أبهى منظرا
ألبستها بيض الستور وحمرها   فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيما أبيضا   ومجالس كسيت طميا أصفرا
لم يبق نوع صامتٌ أو ناطق   إلا غدا فيها الجميع مصوّرا الخ

* * *

وبعد؛ فقد كان المال وفيراً كثيراً ، والترف والنعيم بالغاً أقصاه فى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة؛ أما الشعب فأكثره بائس فقير .

قد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز ، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة ، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة ، وبقية الناس — وهم الأكثر — طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع ، وأغلب هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء .

ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج ، وهذه تدخل فى بيت المال تحت سلطة الخلفاء ومن إليهم ، وينفق منها على مصالح الدولة؛ وما بقى — وهو كبير — يصرف فى رغبات الخلفاء والأمراء : من هبات للشعراء والمدّاح ، وشراء ما يعرضه تجار الجواهر ، وتجار الجوارى والتحف ، وجوائز للمضحكين . والكريم

منهم يمد الموائد لفقراء الشعب ويطعمهم ويكسوهم ، فألوف الناس تأكل على الموائد وتنال صدقاتهم ؛ فلؤلؤ الحاجب فى أيام الفاطميين يفرق فى اليوم اثنى عشر ألف رغيف مع قِدَر الطعام ، فإذا دخل رمضان أضعف ذلك ، ووقف هو بنفسه ليفرقه[١] ؛ وكان على بن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار[٢] ؛ وكان ابن الفرات يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات أكثرهم مائة دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك[٣] .

لهذا كله كانت كل أنظار الناس موجهة إلى الخلفاء والأمراء ؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا فى خدمتهم ؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا فى مديحهم ؛ والتجار إن وقع شىء ثمين فى يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون نفاقا لها إلا فى قصورهم ؛ والصناع إذا أحسنوا صناعة شىء فهم مقصدهم — أما سائر الشعب ففقير بائس قلّ أن يجد الكفاف ! فالعلماء إذا بعدوا عن القصور عزّ قوتهم ، والشعراء لا يشعرون لأنفسهم ولا لعواطفهم وإنما يشعرون للمال يَنْشدونه من يد الخلفاء والأمراء ؛ ولهذا كان أكثر شعرهم مديحاً ، والفنانون والتجار كذلك . وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء بالكرم والسخاء لا بالعدل والحزم وضبط الأمور .

فإذا نفد مال الخلفاء والأمراء صادروا الأغنياء ليسلبوهم مالهم ، ثم يوزعونه على شهواتهم وأتباعهم . فنشأ عن هذا إخفاء الأموال والتظاهر بالفقر ، وهربُ بعيدى النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم ، ونشأ فى الأدب العربى كثير من الشعر والنثر يحمد الفقر والبعد عن البلاط[٤] كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه .

* * *

(١) المقريزى : ١/٨٥ . (٢) تاريخ الوزراء : ٣٢٣ .

(٣) ابن خلكان : ١/٣٧٢ .

(٤) انظر العقد الفريد الجزء الأول فى باب السلطان .

كان بجانب هذا الغنى المفرط ، والإمعان فى اللذائذ ، فقر مدقع يقع فيه العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء ومن إليهم .

هذا « عبد الوهاب البغدادى المالكى » فقيه أديب شاعر له المصنفات الرائعة فى الفقه ، لم يكن فى المالكيين أفقه منه فى زمنه ؛ ولما نزل معرة النعمان فى رحلته أضافه أبو العلاء وقال فيه :

والمالكىّ ابن نصرٍ زارَ فى سفر بلادنا فحَمِدْنا النَّأْى والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكاً جَدَلا وينشُرُ المَلِكَ الضِّلّيلَ إنْ شعرا

هذا كله تضيق به المعيشة فى بغداد حتى لا يجد قوت يومه ، ويخرج عنها طالباً للرزق ؛ ولما شيّعه أكابرها قال لهم : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم » ؛ ثم أنشأ يقول :

سلامٌ على بغداد فى كل موطنٍ وحق لها منى سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلًى لها وإنى بشطَّىْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علىّ بأسْرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخِلٍّ كنت أهوى دُنُوَّه وأخلاقُه تنأى به وتخالف

فلما وصل إلى مصر ، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها ، فزعموا أنه قال وهو يتقلب : « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا »(١) .

وهذا أبو حيان التوحيدى البغدادى ، وهو ما هو فى علمه الواسع وأدبه الفياض ، وفلسفته ، وبلاغته ، وتصوفه ، واتصاله بالوزراء والعلماء ، وكده فى الحياة بالوراقة ونسخ الكتاب ، وتآليفه الكثيرة ؛ كل هذا ويقول محدثاً عن نفسه : « ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى

---

(١) ابن خلكان : ١/٤٣١ .

أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدِّين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم »[١] .

ولما أعيته الحيل تحوَّل طلبه وملقه ورياؤه ونفاقه إلى غيظ من الناس وحقد عليهم ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة عندهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله » .

وقد ملأ كتابه الإمتاع والمؤانسة شكوى من الفقر ومن سوء الحال ، ورفع صوته إلى الوزراء والأغنياء ، فعاد من ذلك كله صفر اليدين .

وهذا أبو سليمان المنطقى ، أعقل عقلاء بغداد وأوسعهم نظراً ، وأعمقهم فكراً ، ومن اطلع على الفلسفة اليونانية ، فأدرك أسرارها ، وعرف مراميها وأغراضها ، مع استقلال فى الفكر ، وشخصية ممتازة فى الحكم ، وكان أعور ، وكان به برص منعه من الاتصال بالناس ، وحمله على لزومه منزله ، فلم يتصل به إلا تلاميذه الذين عرفوا قدره ، ولم يجدوا بغيتهم عند غيره — كان فقيراً ، وقال فيه أبو حيان ، وهو من تلاميذه : « إن حاجته ماسة إلى رغيف ، وحوله وقوّته قد عجزا عن أجرة مسكن ، وعن وجبة غدائه وعشائه » ، فلما منّ عليه الوزير ابن سعدان بمائة دينار ، سره ذلك غاية السرور ، وترفّل وتحنك .

وهذا أبو على القالى البغدادى ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه ، وهى أعز شىء عنده ، فباع نسخته

---

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١/٣١ .

من كتاب الجمهرة ، وكان كلفاً بها ، فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد عليها بخط أبي على :

أَنِست بها عشرين حَوْلا و بعتها ... فقد طال وَجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنّى أننى سأبيعها ... ولو خلّدتنى فى السجون ديونى
ولكنْ لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهلُّ جفونى
فقلت ولم أملك سوابق عَبْرَةٍ ... مقالة مكوىّ الفؤاد حزين
(وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ... ودائعَ من ربٍّ بهن ضنين)

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلى ، كان من كبار النحويين والأدباء ، قال فى خطبة كتابه المسمى « بالفريدة فى شرح القصيدة » : « ومن علم حقيقة حالى عذرنى إذا قصّرت ، فإن عندى من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه :

ولو أن ما بى بالجبال لهدّها ... وبالنار أطفاها وبالماء لم يَجْرِ
وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن ... وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يَسْرِ

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفينى شر شكواى ، وألا يزيدنى على بلواى ، فإنى كلما أردت خفض العيش صار مرفوعا ، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعا ، والله المستعان فى كل حال ، ومنه المبدأ و إليه المآل » .

وهذا الزمخشرى يقول :

ومما شجانى أنَّ غُرّ مناقبى ... يغنّى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسارت مسير النيِّرات رسائلى
وكم من أمالٍ لى وكم من مصنَّف ... أصاب بها ذهنى مَحزّ المفاصل
غنىٌّ من الآداب لكننى إذا ... نظرتُ فما فى الكف غير الأنامل

فيا ليتنى أصبحت مستغنياً ولم أكن فى خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتنى مُرْضٍ صديقى ومُسْخِطٌ عدوى وأنى فى فهاهة باقل
وما حق مثلى أن يكون مضيَّقا وقد عظمت عند الوزير وسائلى
فلا تجعلونى مثل همزة واصل فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرئ أمثاله عدد الحصا وهاتِ نظيرى فى جميع المحافل

وهذا الأبيوردى الشاعر الفقيه ، حكى الخطيب البغدادى عنه ، أنه مكث سنتين لا يقدر على جبة يلبسها فى الشتاء ، ويقول لأصحابه : « بى علة تمنعنى لبس المحشو » ؛ يريد بالعلة علة الفقر .

وهذا الخطيب التبريزى كان له نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة للأزهرى فى عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُل على أبى العلاء المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرة النعمان ، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، ومن شعره :

فمن يسأمْ من الأسفار يوما فإنى قد سئمت من المُقَام
أقمنا بالعراق على رجالٍ لئام ينتمون إلى لئام

وحكى لنا أبو حيان التوحيدى حادثة انتحار فظيعة فقال : « شاهدنا فى هذه الأيام شيخا من أهل العلم ساءت حاله ، وضاق رزقه ، واشتد نفور الناس عنه ، ومقت معارفه له ، فلما توالى عليه هذا دخل يوما منزله ، ومد حبلا إلى سقف البيت واختنق به ؛ فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل متصرف » .

وأخذ أبو حيان وأصحابه يتجادلون فى أن له الحق فى الانتحار أو لا[١] .

هذا شأن العلماء ؛ وعامة الشعب كانوا أسوأ حالا .

ذلك لأن النظام المالى للدولة كان نظاما سيئاً : فنفقات البلاط قد بلغت حداً لا يطاق من الإسراف والبذخ وصنوف الترف ؛ وجباية الخراج وسائر الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام ، فيعسفون بالناس حتى يبتزوا منهم أضعاف ما دفعوا ؛ والقضاء قد اختل بتدخل الحكام وانتشار الرشوة ؛ والجيش قد انقسم إلى شعَب مختلفة من ترك وديلم ومغاربة وغيرهم ، وكل فرقة تتعصب لجنسها ، وتضمر العداء لغيرها ، والسلطة مضطرة لإنفاق المال الكثير لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء ؛ والمناصب الحكومية ليست فى استقرار ، فاليوم يولى وزير ، وغداً يُصادَر ، ولكل وزير أعوانه يحظون بتوليته ويُعْسَف بهم بعزله ؛ وغير الوزراء شأنهم أهون .

كل هذا سبَّب فساد النظام المالى ، واستتبع فقر الشعب واضطرابه وكثرة ثوراته .

وظاهرة أخرى نراها فى الفنون ، وهى أنها كانت لا تنمو إلا فى بلاط الخلفاء والأمراء ، فلم يكن الشاعر يشعر لنفسه إلا قليلا ، ولا الفنان يتفنن لنفسه إلا نادراً ، فكلهم يقصد خليفة أو أميراً يعرض عليه سلعته من شعر أو فن ؛ ولذلك تلوّن الشعر والنثر والفن بلون الاستجداء كثيراً ، لأن العصر لم يكن عصراً ديمقراطياً يستطيع فيه أن يعيش الفنان لنفسه أو للشعب ، كما هو الشأن فى العصور الحديثة ، بل كان عصراً أرستقراطياً لا ينعم فيه إلا الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على موائدهم ، بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موائدهم ؛ ولذلك إذا أحصيت الأدب

---

(١) المقابسات ص ٢١٩ .

الذى قيل فى المديح ، رجحت كفته جداً على الأدب الذى قيل لباعث نفسانى .

وكذلك العلماء كانوا قسمين : قسما يتصل بالخلفاء والأمراء أو يشتغلون فى مناصب الدولة كالخطابة والقضاء ، وهؤلاء ميسورون نسبياً ؛ ولذلك نرى كثيراً من تآليف العلماء فى هذا العصر إنما ألفت بأمر وزير أو أمير أو نحوه ، وصدّره باسمه ، ونوّه فيه بذكره ؛ وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالباً لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا .

نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة — ترف لا حد له فى بيوت الخلفاء والأمراء وذوى المناصب ، وفقر لا حد له فى عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء ؛ ثم المظاهر التى تنتج عادة من الإفراط فى الترف كالتفنن فى اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس ، وكل المظاهر التى تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة . وكان من أثر هذا الفقر أيضاً انتشار نزعة التصوف ، فالفشل فى الحياة قد يسلم صاحبه إلى الزهد ، وإقناع النفس بأن نعيم الدنيا زائل ، وإذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة . كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالأسباب الموهومة فى الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ؛ فتنجيم واعتقاد فى الطوالع التى تسعد وتشقى ، وانصراف إلى الكيميا التى تقلب النحاس والقصدير ذهباً ، والالتجاء إلى دعوات الأوليا لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، وهذا إلى الاعتقاد فى السحر والطِّلسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة ؛ ونحو ذلك .

وعلى الجملة فالحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب ، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر ، والبذخ وشدة الحاجة ، نرى عدم الطمأنينة على المال من عدم احترام المِلْكية ، وذلك بسبب شهوات الحكام

وطمعهم فيما فى أيدى الناس ؛ فالوزير إذا عزل صادر أمواله من يخلفه ، والتاجر الكبير الثّرى عرضة لمصادرة الوالى له طمعاً فى ماله ، والغنى إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب ، إما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ووضع العقبات فى سبيل إثبات الوراثة ، أو المجابهة بالمصادرة من غير ذكر أسباب . فالإخشيد فى مصر كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب من كتابه تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ؛ وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير .

والوزير المهلبى لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ، وكذلك فُعل بابن العميد ؛ وهكذا . ثم إن اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم يُنتج حتما عدم انتظام الدخل والخرج فتسوء حالة الدولة ، فيعالجونها بفرض الضرائب القاسية ، والإمعان فى المصادرات والنهب لكثرة ما يُطلب من نفقات الجيوش وأمثالها ، فيكون ذلك علاجاً يضاعف المرض . وهو ما حدث فعلا ، وكلما ساءت الحال كثر العزل والتولية ، وقُرّب إلى الخلفاء والسلاطين مَن ضَمن تعادل الميزانية ، وإنما يضمن ذلك بالعسف الذى يؤول إلى الخراب .

كان الناس طبقات مختلفة ، طبقة تعتز بشرفها ونسبها ودمها ، من ذلك العلويون والعباسيون ، وكلاهما معتز بالقرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالأولون يعتزون بالنسبة لأولاد على من فاطمة ؛ والآخرون للعباس ، وبينهما حزازات غالباً . ويفخر الأولون بأنهم أقرب نسباً ، ويعتز الآخرون بالخلافة فى أيديهم ؛ وكان ذلك كله — على كل حال — مصدراً للاعتزاز ومبعثاً لتقدير الناس ، وكانت تُجَرى عليهم أرزاق خاصة ، وتسند إليهم بعض المناصب الرفيعة كنقابة الأشراف .

ومن المعتزين بالنسب من كان يعتز بأصله من أنه من البيوتات القديمة ، كأولاد المهلب بن أبى صفرة الأمير الأموى الكبير ، وكانت لهم فى هذا العصر

العباسي دُور بالبصرة ؛ وتولى الوزارة منهم لعضد الدولة البويهي الوزير المهلبي ، وسيأتي ذكره ؛ وكأولاد البَنَوِيّين وهم أبناء الخراسانيين الذين حاربوا لإسناد الدولة إلى بني العباس — ومنهم من كان يعتز بنسبه الفارسي إلى بيت من بيوت الملك أو البيوتات العظيمة في الفرس كآل بويه ؛ وقد يكون من هذه الطبقة الأغنياء ؛ وقد يكون منهم من أخنى عليه الدهر بعد العز ، فكان فقيراً يكتفي بالاعتزاز بالنسب .

وهناك طبقة تعتز بمناصب الدولة كالوزراء ورؤساء الدواوين ونحو ذلك . ويعتز بذلك أسرهم وأقاربهم ؛ وهؤلاء في هذا العهد كان اعتزازهم وقتياً ، فيكونون في القمة حيناً ، ثم لا يلبثون أن يكونوا في الحضيض حيناً آخر لكثرة ما يعرض لهم من عزل ومصادرة أموال وقتل وتشريد ؛ ثم طبقة الأغنياء من الإرث والتجارة والأعمال ، وقد كانوا نسبياً عدداً محدوداً .

وهؤلاء المعتزون بالمنصب يعيشون في ترف مفرط ، وهم الذين نعثر في كتب الأدب والتاريخ على وصف بذخهم وترفهم وإسرافهم ، ولكنهم لا يمثلون الشعب ، ويتبعهم الأوساط يقلدونهم على قدر استطاعتهم ، ويطمحون إلى أن يحذوا حذوهم ما أمكنهم دخلهم .

وبجانب ذلك اعتزاز بالعلم أو الدين ، ولكنه اعتزاز في أوساط خاصة ؛ فالعلماء يعتز بهم أمثالهم وتلاميذهم ووسطهم المحدود ، وهم يتعزون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبي ؛ ورجال الدين من الصوفية والوعاظ والفقهاء كذلك يعتزون في أوساطهم الخاصة ، وعند العامة الذين يلتمسون منهم البركة . ثم سائر الشعب بعد ذلك فقير لا يعتز بمال ولا نسب ولا جاه ، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم «زَبَد جُفاء ، وسيل غثاء ، لُكَع ولُكَاع ، ورِبيطة اتضاع ، همّ أحدهم طعامه ونومه» .

وليسوا كما قال ؛ بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم ، ومقياس الرقى الحقيقى لها ، وما ذنبهم أن همهم طعامهم ونومهم وهم يجدّون ثم لا يَجِدون ! لقد كان التوازن الاجتماعى فى هذا العصر مختلا فى الناحية المالية ، فلا تقارب ، وما نجده من وصف الإمعان فى الحضارة والإسراف فى الترف والتفنن فى النعيم ، إنما هو وصف فئة قليلة العدد وهى قد أسرفت فى الترف على حساب إمعان السواد الأعظم فى البؤس . وفى الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء ، وتكبر وتجبر من الساسة وأولى الأمر ، وذلة وضعة فى الفقراء البائسين ؛ وما يروى لنا من عزة وإباء ، وتمسك بالحق و بالفضيلة ، فصفات الأقلين النادرين .

الرقيق :

كثر الرقيق فى هذا العصر كثرة بالغة ، وامتلأت القصور به ، وكان له أثر كبير فى الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا فى هذا العصر من نسل السرارى ؛ قال ابن حزم فى نقط العروس : « لم يل الخلافة فى الصدر الأول مَن أمه أَمَة حاشا يزيد و إبراهيم ابنى الوليد ، ولا وليها من بنى العباس من أمة حرة حاشا السفاح والمهدى والأمين — ولم يلها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا » .

وكثر تعليم الجوارى الغناء ، واتخذ أصحابهن لهن بيوتا معدة للسماع فى الأحياء المختلفة ، وكثرت هذه البيوت فى بغداد فى هذا العصر ، حتى قال أبو حيان التوحيدى : «وقد أحصينا — ونحن جماعة فى الكرخ — أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد) ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة — هذا سوى

من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء و بالضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، أو خلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه »[١] .

وهذه المحال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس للسماع ، ولم يتحرج منها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية ؛ فابن فهم الصوفى يسمع مغنية اسمها « نهاية » جارية ابن المغنى ، وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلور » جارية ابن اليزيدى ، وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء « شعلة » ، وأبو سليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان يسمع غناء صبى موصلى فتن الناس فى عصره ؛ وهكذا .

والظاهر من قولهم أن محال الغناء كان منها المتهتك الذى يناسب المعربدين ، ومنها المتحفظة بعض الشىء الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء فى هذا العصر كان بالشعر العربى السهل القريب المعنى السائغ اللفظ والوزن ؛ فقد روى أن قِنْوَة البصرية كانت تغنى مثلا :

يا ليتنى أحيا بقُرْبهمو ... فإذا فقدتهم انقضى عمرى

و « سندس » تغنّى :

مجلس صَبَّيْن عَمِيدَين ... ليسا من الحب بخِلْوَين
قد صيَّرا روحيهما واحداً ... واقتسماه بين جسمين
تنازعا كأساً على لذة ... قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تحسن إلا إذا ... أدرْتها بين محبَّيْن

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٨٣ .

و « درة » تغنّى :

لست أنسى تلك الزيادة لمّا طرقَتْنا وأقبلت تتثنَّى

طرقت « ظَبيةُ » الرصافة ليلا فهي أحلى مَنْ جَسَّ عوداً وغنّى

كم ليال بتنا نلذ ونلهو ونُسَقّى شرابنا ونُغَنَّى

هجرتنا فما إليها سبيل غير أنا نقول : كانت وكنّا

و إذا بلغت « كانت وكنا » زلزلت الأرض «فرأيت الجيب مشقوقا و الدمع منهملا ، ومكتوم السر بادياً » .

و « عَلْوة » تغنى فى « درب السِّلْق » ببغداد :

بالورد فى وجنتيك ! مَنْ لطمك ومن سقاك المدام ، لمْ ظلمك

خَلّاكَ لا تستفيق مِن سُكُر توسع شتما وجفوةً خَدَمك

معقربَ الصدغ ! قد ثَمِلْتَ فما يمنع من لثم عاشقيك فَمَكَ

أظلُّ من حَيْرة ومن دهش أقول لما رأيت مبتَسمك

بالله يا أقحوان مضحكه على قضيب العقيق مَنْ نظمك ؟

و « روعة » جارية ابن الرضى تغنى فى الرصافة :

وحقِّ محل ذكرِك من لسانى وقلبى حين أخلو بالأمانى

لقد أصبحت أغبط كل عين تعانيها فتسعد بالعِيان

وهكذا شعر سهل ومعان قريبة كلها تدور حول العشق والغرام والهجر والوصال .

وكانوا فى هذه المجالس يطربون طربا صاخباً ، فمنهم من يشق إزاره ، ومن يضرب بنفسه الأرض ، ومن يحملق عينيه ، ومن يستغيث ، ومن يحوقل[1] الخ ،

(١) انظر المصدر نفسه .

وكانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » ؛ والقينة فى اللغة الأمة مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها فى العرف لا تطلق إلا على الأمة المغنية .

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء ، فيوقعن فى أحبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم . وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال : « إن القينة منهن إذا رأت فى مجلسٍ فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت إليه لتخدعه . . . ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها ، وغمزته بطرفها ، وغنّت على كاساته ، ومالت إلى مرضاته ، حتى توقع المسكين فى حبالها ، وتحويه بلطف تملقها ، وتستعين بالمكر والخداع ، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها ، وتبعث إليه بخاتمها ، وخصلة من شعرها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات من دمعها ، وختمته بالغالية والعنبر . . . حتى إذا حوت عقله ، وسلبت قلبه : أخذت فى طلب الهدايا من ثياب وحلى ، وشكت من غير ألم ، لتتوالى عليها هداياه ؛ حتى إذا نفد اليسار ، وتلف المال ، وأحست بالإفلاس أظهرت الملل ، وأعلنت البدل ، وتبرمت بكلامه ، وضجرت بسلامه ، وأخذت فى الجفاء والعتاب ، وصرفت عنها هواه ، ومالت إلى سواه » .

وقد قال أحد الشعراء فى مثل هذا الوصف :

صحوت فأبصرت الغواية من رُشدى ... وأيقنت أنى كنت جُرت عن القصد
فلا يعشقنْ من كان يعشق قينة ... فما هو منها فى سعيد ولا سعد
تودُّك ما دامت هداياك جمة ... وترفدْك عشقاً ما بقيت أخا رفد
إذا ما رأت فى مجلس من تخاله ... غنياً حبتــــه بالتحية والود
فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد ما يُعيد ولا يبدى
فتَفْصد لا من حاجة لِفصــادِها ... ولكن لتكليف الهدية فى الفصْد

فمن بين خلخال يُصاغ وخاتم ومن دملج يُهدَى على أثر العقد
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلساً تجنّت وأبدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهَّموا مقالى فإنى قد نصحت لكم جهدى (١)

ونشأ عن هذا جدل فى أيهما خير : عشق القيان أو عشق الحرائر ؟ فيقول بعض الظرفاء :

ليس عشق الإماء من شكل مِثْلى إنما يعشق الإماءَ العبيدُ
صِلْ إذا ما وصلت حرة قوم قد حماها آباؤها والجدودُ

ويقول غيره : « عليك بالقيان فإن لهن فطناً وعقولا ليست لكثير من النساء » .

وقد كان من أثر الطابع العلمى الذى طبع هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء الإماء يؤلف فيهن الكتب ، فألف ابن بطلان كتابه العلمى فى تجارة الرقيق (٢) . وتبعه غيره ، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس ، وما يمتزن به ، وما يعاب عليهن ، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها ، ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية ، وحيل النخاسين ، وكيف يسترون العيوب الخ .

كما فلسفوا الكلام فى الُحسن ، وحاولوا وضع قواعد للجمال ، ووجد من يسمى « جهابذة النقد » وهم الخبراء فى الجمال ؛ قال أبو الفرج : « أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد ، يقدمون المجدولة التى تكون بين السمينة

---

(١) الموشى ص ٩٣ وما بعدها باختصار .

(٢) عنوانه رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان الرقيق النصرانى ، عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، والكتاب مخطوط منه صورة فوتوغرافية فى مكتبة الجامعة .

والممشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام » الخ .

وتكلموا فى الألوان وحسنها ، وقال أبو الفرج الأصفهانى[١] : « يمازج البياض لونان يزيدانه حسناً ، الحمرة والصفرة ؛ فأما الحمرة فتعترى البياض من رقة اللون وصحة الدم ؛ وأما الصفرة فتعترى البيض لاستقارهن وملازمتهن السكنّ والنعمة والخفض والدعة ، وتعتريهن أيضاً لملازمتهن التضمخ بالطيب — ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة ، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى الصفرة» . وأفاضوا فى ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشّعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء ، والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد ، والنحور والصدور والثدى ، واختلاف الأذواق فى كبرها أو صغرها ، والخصور والسوق والأقدام ، ومزجوا ما قيل فى كل ذلك من التعبير الدقيق فى اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد .

كما تفننوا فى دقة الفروق بين المغنيات ، وفلسفة الغناء ، « فعلوة » أحسن ما تكون إذا رفعت عقيرتها ، و «نهاية» إذا اندفعت فى شدوها ، و « بلّور » إذا رجّعت ، و « قلَم » إذا تناوأت فى استهلالها ، وتضاجرت على ضجْرتها ، وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنضاها ، و « سندس » إذا تشاجَت وتدللت وتفَتّلت وتقَتّلت وتكسرت .

وتفلسفوا هل الغناء لذة الحس أو لذة العقل ، ولم يكون الغناء ألذ وأطيب إذا سند المغنى آخر ؟ وهكذا[٢] .

٭ ٭ ٭

(١) فى كتابه النساء .
(٢) الإمتاع والمؤانسة : ٨٢/٢ وما بعدها .

وكان الرقيق صنفين متميزين ، صنف أبيض ، وصنف أسود ويشمل الحبشان . فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة ، والأرمن واليونان ، وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند ويأتى إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار ، وسوق شرق أوروبا وهو يخترق ألمانيا إلى الأندلس ، وإلى موانى إيطاليا وفرنسا إلى الشرق ؛ والصنف الأسود كان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما .

وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمناً وأكثر قابلية لتعلم الفن والموسيقى ، وكلما مهرت فى فنها بولغ فى ثمنها ، وكانت هناك أسواق فى كل مدينة كبيرة للرقيق ، سوق كبيرة فيها حُجَر يسكنها الرقيق المعرض للبيع ، وهذا شأن الرقيق الشعبى ؛ أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء ، أو يعرضونه فى بيوتهم الخاصة ؛ كما كان أصنافا من نساء وفتيان ورجال .

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة ، وتغلغل فى الحياة الاجتماعية . فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة فى حروبها ، حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب ، مثل مؤنس فى العراق ، وجوهر الصقلى فى المغرب ومصر ، وكافور الإخشيدى بمصر ، وسبكتكين فى الأفغان .

ومنهن القيان فى محال الغناء العامة ، ومنهن أمهات الأولاد ؛ وملك اليمين ، يتغلغلن فى بيوت الخلفاء والأمراء ، والأغنياء والأوساط ، ومنهن من يقمن فى الخدمة فى البيت ، وقد يبلغن منزلة عالية .

ومن الرجال الأرقاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم ، ومنهم طبقة الخصيان ، وقد انتشرت فى هذا العصر انتشاراً كبيراً .

وقد كثر الخصاء فى عهد الأمين ؛ فقد قالوا إنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه

« طلبهم وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه »[١] .

وقد عقد الجاحظ فصلا ممتعاً فى كتابه الحيوان للخصاء وتأثيره فى الجسم والصوت والشعر والأعصاب ، وفى الذكاء ، كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان . ويقول إن الروم أول من ابتدع الخصاء . . . الخ[٢] .

وكان الخصاء فى البيض والسود ، وقل أن كان المسلمون يقومون بالخصاء ، ولكنهم يشترونهم بعد أن يُخْصَوا ، وقد ارتفعت أثمانهم لتعرضهم للموت من هذا العمل .

وكثر فى عصرنا الذى نؤرخه استخدامهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حرصاً على النساء ؛ ومنهم من نبغ فى القيادة الحربية ، كمؤنس القائد ، وفائق قائد السامانيين ؛ وبلغ بعضهم منزلة عالية فى الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء ، كشكر غلام عضد الدولة .

ثم الغلمان فى الأوساط المستهترة ، حتى وعند بعض الأدباء والعلماء ، ونلاحظ ندرة هذا أيام سلطة العنصر العربى فى صدر الإسلام . ويحكى الجاحظ أن هذا الولع بالغلمان نشأ فى الخراسانيين ، إذ كانوا يخرجون فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم الخراسانى ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر[٣] .

فلما جاء هذا العصر نجد الكثير من أحاديث الغلمان فى كتب الأدب ،

---

(١) الطبرى فى سيرة الأمين .   الحيوان جزء أول .

(٢) انظر حضارة الإسلام فى القرن الرابع : ٢/١٣٥ .

وتراجم الرجال والأدباء . ويحدثنا أبو حيان التوحيدى ، أنه كان فى بغداد خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس ، وأنه كان بها صبى موصلى مغن ، ملأ الدنيا عيارةً وخسارة ، وافتضح أصحاب النسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الخلوب . . . يسرقك منك ، ويردك عليك . . . فحاله حالات ، وهدايته ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادى[١] ؛ كما يحدثنا عن عَلوان غلام ابن عُرس ، فإنه إذا حضر وألقى إزاره ، وحل أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فإنى ولدكم ، بل عبدكم لأخدمكم بغنائى وأتقرب إليكم بولائى ... لا يبقى أحد من الجماعة إلا وينبض عرقه ، ويهش فؤاده ويذكو طبعه ، ويفكه قلبه ، ويتحرك ساكنه ، ويتدغدغ روحه الخ[٢]

وتفننوا فى أسماء الغلمان مما يدل على مقصدهم ، فسموا بـ « فاتن » ، و « رائق » ، و « نسيم » ، و « وصيف » ، و « ريحان » ، و « جميلة » ، (هكذا بأداة التأنيث) ، و بشرى .

ومن هذا نرى كيف أثَّر الرقيق أثراً كبيراً من الناحية الاجتماعية والحربية والمالية والأخلاقية .

الأدب وتصوير الحياة الاجتماعية :

كان النتاج الأدبى فى هذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة الاجتماعية فى غناها وترفها من جانب ، وفقرها وبؤسها من جانب ، وفى اضطراب الشؤون السياسية والحياة الاجتماعية ، وفى حياة اللهو وحياة الجد ، وفى انحلال

---

(١) الإمتاع : ٢/١٧٤ .   (٢) المصدر نفسه ص ١٧٨ .

الأخلاق ، وانغماس الأدباء فيها ، ونعى بعضهم عليها ، إلى غير ذلك من المظاهر ؛ ولعل خير ما يمثل أدب هذا العصر كتاب يتيمة الدهر للثعالبي .

وربما كان أكبر من يمثل كتّاب النثر ابن العميد ، وابن عبّاد ، والخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ، وأبو حيان التوحيدي ؛ كما كان أكبر من يمثل الشعر ، المتنبي ، وابن حجاج ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، والصنوبرى .

لقد كان من أعلام الكتاب من هم من الطبقة العليا فى المجتمع ، كابن العميد ، وابن عبّاد ، والوزير المهلبى ، والخصيبى ، والإسكافى وزير السامانيين ، ويلحق بهم أمثال إبراهيم بن هلال الصابى الذى كاد يكون وزيراً .

فهؤلاء بحكم جاههم وعزهم وترفهم ، كان نتاجهم الأدبى مترفا يتأنق فى فنه ؛ فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق فى الأدب . فأدب هذا العصر تقدم خطوات فى السجع والمحسنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية . فالصابى وابن عباد أفرطا فى السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ؛ هذا إلى الإمعان فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا فى تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُّرف فيما يصنعون من حلىّ وأدوات زينة . وإذ كانوا فى مركز رئيسى فى الحياة الاجتماعية كان طبيعياً أن يكون نتاجهم هو المثل يقلَّد ويحتذى ، فمن كان أديباً فقيراً تشبه بهم وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد خلقوا ذوقا عاما فى الأدب يَستحسن طريقتهم ، فجارى الأدباء هذا الذوق ، كما تراه عند الثعالبى فى كتبه فيما يُنْشِئ وفيما يَرْوى .

وأبو حيان يصف الصاحب بن عبّاد بقوله : « كان كلفه بالسجع فى والقلم ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البا

لابن المسيبى أين يبلغ ابن عبّاد فى عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ؛ ويضطرب لها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها .

هذا إلى الإمعان فى المبالغة كقول الصابى : « وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذبته ، والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته » .

ويقول بديع الزمان الهمذانى لرجل طلب إليه نسخة من رسائله : « ولو قدرت جعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من أجفانى » .

وإلى السجع والمبالغة ضروب من التزاويق ، ككثرة التشبيه والاستعارة من مثل قول الصاحب فى وصف مجلس : « قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، وانطلقت ألسنة العيدان ، وهبت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وامتدت سماء الند » .

هذا إلى مثل عمل قطع أدبية خالية من بعض حروف الهجاء ، أو تقرأ طرداً وعكساً الخ .

فهذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق فى الحياة الاجتماعية ، ونرى كثيراً من الأدب فى هذا العصر شكلا تنقصه الروح ، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة كذلك شكلا بلا روح .

ويتصل بهذا شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة بجانب القصائد الطويلة ، ويقابله فى الموسيقى الميل إلى ما نسميه « الطقاطيق » بجانب « الأدوار » .

ولعل هـذا نشأ من كثرة المجالس الأدبية غير الرسمية فى منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء ، وحبهم الملح والتنادر ووصف ما يعرض ، فأبيات قصيرة فى الغزل تحوى معنى واحداً رشيقاً ، وأبيات فيما يعرض من النوادر : كأبيات فى إنسان ساقط يلبس عمامة سَرِية[١] ، وفى إنسان شريف الأصل وضيع النفس[٢] ، وإنسان تولى أقطاعا فوجدها خربة ، وفى المهاداة بالنبيذ ، وفى وصف مجلس أنس ، وفى شكر على هدية ، وفى هجاء بخيل أو ثقيل ، وفى وصف زهر أو تمر[٣] ، وفى

---

(١) مثل
يا من تعمم فوق راس فارغ ... بعمامة مَرَوية بيضاء
حسنت وقُبِّح كل شيء تحتها ... فكأنها نور على ظلماء
لما بدا فيها أطلت تعجبى ... من شر شيء فى أجلّ إناء
لو أننى مُكنت مما أشتهى ... وأرى ، من الشهوات والآراء
لجعلت موضعك الثرى وجعلتها ... فى رأس حر من ذوى العلياء

(٢) مثل
قل للشريف المنتمى ... للغر من سرواته
آبائه وجدوده ... والزهر من أمّاته
وهو الوضيع بنفسه ... وعيوبه وهناته
لا تجرين من الفخا ... ر إلى مدى لم تأته
شاد الألى لك منصبا ... قوضت من شرفاته
إن الشريف النفس ليـ ... ست تلك من فعلاته
والعود ليس بأصله ... لكنه بنباته
وأحق من نكسته ... بالصفع من دوجاته
من مجده من غيره ... وسفاله من ذاته الخ

(٣) كقوله فى وصف تمر :
أما ترى التمر يحكى ... فى الحسن للنظّار
مخازنا من عقيق ... قد قمعت بنضار
كأنما زعفران ... فيه مع الشهد جارى
يشف مثل كؤوس ... مملوءة من عقار

معنًى عرَض ، أو حادث حدث[1] ؛ ونحو ذلك — وقد أكثروا من هـذه المقطوعات حتى زاحمت القصائد[2] .

هذه ناحية ، وناحية أخرى وهى قوة أثر الرقيق فى الناحية الاجتماعية ، وانعكاس صورتها فى الأدب ؛ فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف القيان والجوارى البيض والسود والغلمان ، حتى لا نكاد نجد شاعراً إلا وله شعر فى هذا الباب .

فقيل الكثير فى وصف الجوارى البيض وحسنهن ، وكان هذا شيئاً مألوفا ، وسموا النساء البيض الحسان الحُمْر ؛ وقال شاعرهم :

هِجَانٌ عليهـــا حمرة فى بياضها ... يروق بها العينين ، والحسن أحمر

وشبهوهن بالنار من أجل ذلك — ولكن هام بعض الشعراء بالجوارى السود ودافعوا عن حبهن ، فأكثر من ذلك الشريف الرضى ؛ فقال من قصيدة :

أحبكِ يا لون الشـباب فإننى ... رأيتكما فى العين والقلب توأما

سواد يودّ البدر لو كان رقعةً ... بجبهته أو شقّ فى وجهه فما

سكنتِ سواد القلب إذ كنتِ مثله ... فلم أدر من عِزٍّ مَنْ القلبُ منكما

وما كان سهم العين لولا سواده ... ليبلغ حبّات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبى أَلْمَى فلا تلم ... جنونى عن الظبى الذى كله لَمى

وله قصيدة أخرى فى هذا المعنى منها :

لاموا ولو وجدوا وجدى لقد عَذروا ... وذنب من لام ذنبٌ غير مغتفر

---

(١) كالذى يشكو من الزمان حظه ؛ فيقول :

فى كل يوم لنا فى الدهر معركة ... هامُ الحوادث فى أرجائها قلق

حظى من العيش أكل كله غصص ... مر المذاق وشرب كله شرق

(٢) انظر نماذج منها كثيرة فى كتب الثعالبى .

لما تمادَوْا على عذلى أجبتهمو بعز معترف لا ذل معتـــــذر

أهوى السواد برأسى ثم أمقته ؟ ! فـكيف يختلف اللونان فى نظرى

إنى علقت سواد اللون بعدكمو علاقة تشمت الظلماء بالقمر

لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت صِبْغ الغرالى على الأجياد والعُذُر

والليـــل أستر للخالى بلذته والصبح أفضح للسارى على غَرر

وللفتى فى ضلال الليـــل معذرة وما له فى الضحى إن ضل من عذر

وكيف يذهب عن قلبى وعن بصرى من كان مثل سواد القلب والبصر

وقبله استوفى هذه المعانى ابن الرومى فى قصيدة طويلة منها :

أكسبها الحسنَ أنها صُبِغت صِبغة حَبّ القلوب والحدق

يفترّ ذاك السواد عن يقق من ثغرها كاللآلئ النسق

كأنهـــا والمزاح يضحكها ليل تفرّى دجاه عن فَلَق

وقال السَّلامى :

يا رُبّ غانية بيضاء[1] تصحبنى من العتاب كؤوساً ليس تنساغ

أشتاق طرتها أم صدغها ومعى من كلها طرر سود وأصداغ

وقد قالوا إن ابن سكّرة الشاعر قال فى قينة ســوداء اسمها « خمرة » عشرة آلاف بيت الخ الخ .

كما تفننوا فى وصف القيان وغنائهن وأكثروا ، وزعيمهم فى ذلك ابن الرومى كقصيدته فى « وحيد » المغنية :

ظبية تسكن القـــلوب وترعا ها وقُمرية لهـــــا تغريد

---

(١) يريد بالبيضاء السوداء بدليل ما بعدها ، كما ننادى نحن الأسود بيا أبيض .

حسنها فى العيون حسن جديد فلها فى القلوب حُب جديد
تتغنى كأنهـــــــا لا تُغنّى من سكون الأوصال وهى تجيد
مدَّ فى شأو صوتها نَفَسٌ كا فٍ كأنفاس عاشقيها مديد الخ

ويقول فى وصف قينة مغنية وراقصة :

فتاة من الأتراك ترمى بأسْهُم يُصبن الحشا فى السلم لا فى المعارك
ظلالها لهـا نُصْبا تشكّ قلوبنا بذاك الشجا الفتّان لا بالنيازك
تطامن عن قدّ الطوال قوامُها وأربى على قد القصار الحواتك
إذا هى قامت فى الشفوف أضاءها سناها فشفّت عن سبيكة سابك

وتبعه الشعراء فى هـذا العصر الذى نؤرخه ، وتفننوا فى وصف القينات ، فقال ابن زُرَيْق الـكوفى فى قينة تسمى « دبسية » حسنة الغناء قبيحة المنظر :

أبا سعيد أَصِخ لى يا ســـيدى ونديمى
مُنيت أمس بأمرٍ من الأمور عظيم
حصلت عند صديق حر ظريف كريم
أُسقى على شدو « دبْســـيةٍ » فتنفى همومى
فـكنت حين تغنّى لدى جِنان النعيم
وإن نظرتُ إليها ففى العذاب الأليم
وإن شربت بصوت فالراح بالتســـنيم
وإن شربت بلحظ فالمهــــل بالزَّقوم
فـكان سمعى بخير ومقلتى فى الجحيم
الخ الخ .

والطامة الـكبرى ما غشى المجتمع من حب للغلمان ظهر صداه فى الأدب .

لقد كان أبو نواس يغنِّى فى هذا الباب وحده أو مع فئة قليلة ؛ فلما جاء هذا العصر كان أكثر الشعراء يطرقون هذا الباب ، ويفيضون فيه فى تحفّظ حيناً ، وفى استهتار أحياناً ، كأبى تمام والبحترى والصنوبرى ، وكشاجم وأبى الفتح البستى وابن حجاج ، وابن سكّرة ، والقاضى التنوخى ، والثعالبى ، وأبى فراس ، والصابى كلهم له أشعار كثيرة فى هذا الباب تفننوا فيها ، حتى الوزير المهلبى لم يمنعه منصبه أن يقول فى مملوك تركى جميل قاد جيشاً لمحاربة بنى حمدان :

ظبى يَرِقّ الماء فى وَجناته ويروق عُوده
ويكاد من شِبْه العذا رى فيه أن تبدو نُهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومِنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين كما تملك الجوارى ، يقومون بالخدمة فى البيوت وفى الأعمال التجارية ، وهؤلاء الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم . ومن أشهر قصائد ذلك العصر قصيدة سعيد الخالدى التى يصف فيها غلامه بأنه معشوقه ، وخازن داره ، ومدبر ماله ، وناقد شعره ، وطاهيه ونديمه ، وغدت القصيدة مضرب المثل فى هذا الباب :

ما هو عبدٌ لكنه ولد خوّلنيه المهيمن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدى والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلَد

* * *

أُنسى ولهوى وكل مأربتى مجتمع له فيه ومنفرد

* * *

خازن ما فى دارى وحافظه　　فليس شىء لديه يفتقد

ومنفق مشفق إذا أنا أسرفت　　وبذّرت مقتصد

ويعرف الشعر مثل معرفتى　　وهو على أن يزيد مجتهد

وصيرفىّ القريض وزان دنانير　　المعانى الرّقاق منتقد

يصون كتبى فكلها حسن　　يطوى ثيابى فكلها جدد

وأبصر الناس بالطبيخ فكالمسك　　القلايا والعنبر الثّرد الخ

بل نرى من هذا ظاهرة غريبة ، وهى عدم تحرج ذوى المناصب الكبيرة كالوزراء والقضاة من كثرة القول فى هذا الباب ، مما يدل على أن الرأى العام قد فتر استنكاره له ، وعده من باب الظرافة والمجون إلا فى الأوساط المتشددة ؛ كالذى ذكر أبو حيان التوحيدى من أن أبا عبد الله البصرى كان يسمع غلاما يغنى:

أنسيتَ الوصل إذ بتنا على مرقد وَرْد

واعتنقنا كوشاح وانتظمنا نظم عِقد

وتعطفنا كغصنين فقدّانا كقد

فطرب أبو عبد الله طربا شديداً ، فعابوه على ذلك ، وقدحوا فى دينه وألصقوا به الريبة[1] .

* * *

وظاهرة أخرى وهى أن كثرة المجون ، والخلاعة ، واللهو واللعب فى هذه الأوساط الاجتماعية أنتجت شاعرين يمثلان هذا أشنع تمثيل ، وهما : ابن حجاج وابن سكّرة ؛ فابن حجاج قال فيه الثعالبى : « إنه فى شعره لا يستتر من العقل بسجف ، ولا يبنى جل قوله إلا على سخف . . . يمد يد المجون فيعرك بها أذن

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١٧٥/٢ .

الحزم ، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل » . وقد استعمل فى شعره بعض ألفاظ العوام ، وشبّه أفظع التشبيهات وأشنعها ، ومع هذا كله راج شعره رواجاً كثيراً ، فكان يباع ديوان شعره من خمسين ديناراً إلى سبعين ، ونفق شعره عند العامة والخاصة « فكانت تتفكه الفضلاء بثمار شِعره ، وتستملح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه . . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء ، فلم يُخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ، ونتائج فحشه ، وهو عندهم مقبول الجملة ، غالى مهر الكلام ، موفور الحظ من الإكرام والإنعام » .

ومثله ابن سكّرة ؛ قال فيه الثعالبى أيضاً : « فائق فى قول المُلَح والظرف ، أحد الفحول الأفراد ، جار فى ميدان المجون والسخف ما أراد » .

ولم يتحرجا من أن يقولا أقبح المعانى فى أصرح لفظ ، ومع ذلك جرى شعرهما فى الناس ، واختار الثعالبى منه أخفه ، وهذا الأخف مقذع شنيع ؛ فرواج هذا الشعر أكبر دليل على ما وصل إليه الانحلال الخلقى فى هذا المجتمع .

✲ ✲ ✲

هذه الصورة للأدب تصور الحياة الاجتماعية فى نعيمها وترفها ، ولهوها ومجونها . وثم وجه آخر هو الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش انعكست صورته على الأدب أيضاً .

من ذلك أن جماعة رأوا حياة الأغنياء والتجار والأدباء والعلماء فى حرج وشدة ، فالأغنياء يصادَرون ، والتجار ترهقهم الضرائب ، والأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون إلا إذا اتصلوا بأمير ، فاتخذوا وسيلتهم فى كسب العيش التسول عن طريق الأدب الشعبى أحيانا ، والنصْب والاحتيال أحيانا ؛ ووجدت طائفة كبيرة

من هذا القبيل سموا الساسانيين أو بنى ساسان ، أو أهل الـكُدية .

وساسان هذا قد رووا فيه أقوالا مختلفة ، فمن قائل إنه ساسان بن اسفنديار كان من حديثه أنه لما حضر أباه الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنما وجعل يرعاها وعُيِّر بأنه راعى الغنم ، فقيل ساسان الراعى ، وساسان الـكردى ؛ ثم نسب إليه كل من تكدَّى (تسوّل) ، فيقال فلان من بنى ساسان . وقيل كان ساسان ملـكا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملـكه فصار رجلا فقيراً يتردد فى الأحياء و يستعطى ، فضرب به المثل . وقيل إنه كان رجلا فقيراً بصيراً فى استعطاء الناس والاحتيال ، فنسبوا إليه .

وكانت طائفة يتجول أفرادها فى البلاد يستجدون و يحتالون ، وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن ما نسميهم فى مصر «الأدباتية» ، وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز المال .

هذه الطائفة كان من صداها فى هـذا العصر ظهور نوع من الأدب جديد هو مقامات بديع الزمان الهمذانى ، ثم الحريرى ، وكلها حكايات قصيرة تدور كل منها حول حيلة يحتالها رجل لـكسب شىء من المال عن طريق التكدى صيغت فى أسلوب أدبى . وكل مقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسـكندرى ، وكل مقامات الحريرى بطلها أبو زيد السروجى ، والبطل يحتال لقنص المال فى كل مقامة .

وقد ورد ذكر الساسانيين فى مقامات بديع الزمان ، وأوضح لنا الحريرى فى مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثراً من البواعث الدافعة على التسول فقال : « سممت أن المعايش إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمارست هذه الأربع .

لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ، ولا استرغدت عيشة ، أما فُرَص الولايات ، وخُلَس الإمارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفيء المنتسِخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفِطام ؛ وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطرات ، وطُعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات ؛ وأما اتخاذ الضياع ، والتصدى للازدراع ، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا ربها عن إذلال ، أو رُزق رَوْح بال ؛ وأما حِرَف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات … ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوّعَ أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها . . . إذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور … وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . . ولا يرهبون ممن بَرَق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد … أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا » . ثم بين شروط النجاح فيها ، وقال إنها تحتاج إلى النشاط والحركة ، وإلى الفطنة ، وإلى القحة ، وإلى المكر والحيلة ، وروى أنه كان مكتوبا على عصا شيخنا ساسان : «من طَلَب ، جَلَب ، ومن جال نال» ، كما أنها تحتاج إلى الخَلْب بصوغ اللسان ، وسحر البيان ، والصبر ، وعدم اليأس ، وتفضيل الذَّرّة المنقودة على الدرة الموعودة الخ .

واشتهر من شعراء بنى ساسان فى القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع ، ويسبقان الحريرى ، وهما الأحنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجى . فالأحنف كان آدب بنى ساسان ببغداد ، وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق فى الحرفة الساسانية كقوله :

قد قسم الله رزقى فى البلاد فما   يكاد يُدْرَكُ إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقا بفلسفة   ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أنى أخو حِيَلٍ   فلست أنفق إلا فى الرساتيق

ووضع قصيدة دالية فى هذه الحرفة يقول فيها :

على أنى بحمد الله فى بيت من المجْد
بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجِد والجَدّ
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرقُ على الطرّاق والجند
حذارا من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيفٍ ولا غِمد
ومن خاف أعاديه بنا فى الروع يستعدى[1]

وأبو دلف كان من الواردين على الصاحب بن عبّاد فى الرى ؛ وقد طوف البلاد مكديا ، وحاكى الأحنف العكبرى فى داليته الساسانية برائية مثلها مطلعها :

جفون دمعها يجرى لطول الصد والهجر

ومنها :

على أنى من القوم البهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الحمى فى سالف العصر

* * *

(١) يقول — فى البيت الأخير — إن ذوى الثروة إذا وقع أحدهم فى يد قطاع الطريق وأحب التخلص ؛ قال : إنى من بنى ساسان .

فنحن الناس كل النا   س فى البر وفى البحر
أخذنا جِزية الخلق   من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل فى كـــل أرض خيلنا تسرى
لنـا الدنيا بمـا فيها   من الإسلام والـكفر
فنصطاف على الثلج   ونشتو بلد التمر الخ

وقد استعمل فى هـذه القصيدة الألفاظ الاصطلاحية لبنى ساسان ، وأبان كثيراً من أنواع حيلهم ، وطريقة ابتزازهم أموال الناس ، فمن باب استعمال الألفاظ — مثلا — استعماله دَوّر إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ؛ ورَعّس بمعنى طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا لوزة ؛ و «الـكَذّابات» بمعنى العصبات يشدونها على جباههم يوهمون بها أنهم مرضى الخ .

واستعمال الحيل مثل إيهام الناس أنه يجمع الصدقة للخروج إلى الغزو ، أو يحتال على من أصيب بوجع الضرس فيجعل دود الجبن فيما بين أسنانه ثم يخرجه و يوهم أنه أخرجه بالرقية ، أو يتعامى وهو بصـير ، أو ينظر فى الفال والزجر والنجوم ، أو يعطى قوماً دراهم حتى يأتوا و يسألوا عن نجمهم تحميساً للناس أن يحذوا حذوهم الخ .

ولهم لغة خاصة وأدب خاص واصطلاحات لا يكاد يفهمها غيرهم ، وتسمى « مُنَاكاة بنى ساسان » .

قال الثعالبى فى وصف الصاحب بن عباد : « وكان الصاحب يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظاً عجيباً ، و يعجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرها »[١] .

(١) يتيمة : ٣/١٧٥ .

ولعل المناكاة مفاعلة من نكى بمعنى أتى عملا لإغضاب الغير وقهره ، ومنه « ضعيف النكاية أعداءه » ، فيظهر أنه كان من حيلهم أنهم يتهاجون ويتسابون ويتخاصمون تصنعاً حتى يستلبوا مال الناس ؛ ولعل المقامة الدينارية فى مقامات البديع — التى تمثل رجلين يتسابّان بأقبح السباب من هذا الضرب . وقد جمع فيها كل سبّ كان فى عصره من مثل : يا بَرد العجوز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ، يا سَنَة البوس ، يا كوكب النحوس الخ ؛ فرد عليه الآخر بقوله : يا قَرّاد القرود ، يا لَبود اليهود ، يا عدماً فى وجود الخ ؛ وقد ذكر البديع فى هذه المقامة أنهما كانا من بنى ساسان .

فترى من هذا أن الضرب من الحفاة الذى جر إليه سوء الحالة الاقتصادية وعدم التوازن الاجتماعى ، والإفراط فى البؤس بجانب الإفراط فى الترف ، قد انعكست صورته على الأدب ، فأخرج المقامات وغيرها من أدب التكدى ، كما أخرج شعراً كثيرا فى شكوى الزمان وسوء الحال ، من مثل ما نراه فى شعر ابن لَنْكَك البصرى كقوله :

يا زماناً ألبس الأحرار ذُلاًّ ومهانهْ
لستَ عندى بزمان إنما أنت زمانه
كيف نرجو منك خيراً والعلا فيك مهانه
أجنونٌ ما نراه منك يبدو أم مجانهْ

وقوله :

جار الزمان علينا فى تصرُّفه وأى دهر على الأحرار لم يَجُرِ
عندى من الدهر ما لو أنّ أيسره يُلقى على الفَلَك الدوّار لم يَدُر

وقوله :

نحن والله فى زمان غشوم لو رأيناه فى المنام فزِعنا

يصبح الناس فيه من سوء حال　　حقٌّ من مات منهمُ أن يُهَنَّا

الخ الخ .

وله فى ذلك الشىء الكثير بين جد وهزل .

٭ ٭ ٭

وكانت فى هذا العصر مجموعة من الشعراء تمثل صور الحياة الاجتماعية المختلفة ؛ فالصَّنَوْبرى الحلبى يمثل الترف والنعيم والعيش الرغد ، ينعم بالقصر الفخم والحديقة الغناء ، ويتغنى بجمال الأزهار وجمال الطبيعة ، فله شعر فى الورد ، وشعر فى حديقة يعتز بها ويقول فيها :

لو كنت أملك للرياض صيانة　　يوما لما وطئ اللئام ترابها

وقطع فى وصف الورد والنرجس والأقحوان والنمام والسوسن والشقيق والبنفسج والياسمين الخ ؛ ثم غزل قليل .

ويقيم مناظرة بين الورد والنرجس فيقول :

زعم الورد أنه هو أبهى　　من جميع الأنوار والريحان

فأجابته أعين النرجس الغـــض بذلٍّ من فوقها وهوان

أيُّمَا أَحْسَنُ التورّد أم مقــلة ريم من فضة الأجفان ؟

أم فماذا يرجو بحمرته الخــد إذا لم يكن له عينان ؟!

فزها الورد ثم قال مجيباً　　بقياس مستحسَنٍ وبيان

إن ورد الخدود أحسن من عيــن بها صفرة من اليَرَقان

والذى مكّن له فى هذا غناه ؛ فقد كان له بمدينة حلب قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج ، إلى ذوق فنى يغنى فى جمال الأزهار .

يقابله الشاعر ابن لنكك الذى كان يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار ؛

وقد قال فيه الثعالبي : « كانت حرفة الأدب تمسّه وتجمشه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه » ، فأفاض في شكوى الزمان ، وجوده ، وعجائبه :

نحن من الدهر في أعاجيبِ فنسأل الله صبر أيوبِ
أقفرت الأرض من محاسنها فابك عليها بكاء يعقوبِ

وقد سبق أن ذكرنا بعض شعره في هذا الباب .

وإذ كانت الحياة الاجتماعية بين بائس ومجدود ، غنى ذلك نغمةً مرحة في ترفه ونعيمه وزهوره ، وغنى هذا نغمة حزينة في بؤسه وفقره وخذلان زمانه له .

والمتنبي يمثل في مجتمعه ما كان من أحداث في الحروب بين الحمدانيين والروم ؛ فقد كان شاعر سيف الدولة ، وكان شاعراً فارساً يغشى الحروب مع سيف الدولة ، ويسجل حوادثها تسجيلا أدبياً في النصر والهزيمة ، والضرب والطعان ، والأسر والسبي ، فشعره في هذا وصف لمعمعة القتال والمعيشة الحربية .

ثم هو يمثل الأدب الأرستقراطي ، فهو يمثل الأدب الذي يعيش على موائد الملوك ، فلم يكن يمدح إلا ملكا أو شبه ملك ؛ وقد ترفّع عن مدح الصاحب بن عبّاد وهو ما هو في منزلته وجاهه . فشعره ينقسم إلى سيفيات في سيف الدولة ، وكافوريات في كافور ، وعضديات في عضد الدولة ؛ ولكنه في مديحه هذا يرفع نفسه إلى مرتبة من يمدحه ، فيكون صديقاً أو حبيباً لا عبداً مستجديا : فيقول في كافور :

وما أنا بالباغي على الحبّ رشوة ضعيفٌ هوى يُبْغَى عليه ثوَابُ
وما شئتُ إلا أن أدلّ عواذلي على أن رأيي في هواك صَوابُ

☆ ☆ ☆

إذا نلت منك الْودَّ فالمال هيِّن　　وكل الذى فوق التراب تراب

ويقول فى ابن العميد .

تفضَّلت الأيام بالجمع بيننا　　فلما حمدنا لم تُدمْنا على الحمد

فجد لى بقلب إن رحلت فإننى　　مخلّف قلبى عند من فَضْلُه عندى

وفى سيف الدولة :

يا أعدلَ الناس إلا فى معاملتى　　فيك الخصام وأنت الخَصم والحَكم

* * *

سيعلم الجمع ممن ضَمَّ مجلسُنا　　بأننى خيرُ من تسعى به قدَم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى　　وأسمعت كلماتى من به صَمَم

أنام ملء جفونى عن شواردها　　ويسهر الخلق جَرّاها ويختصم

ونَقَد المجتمع نقداً مراً ، ولكن لا من ناحية أنه لم يجد ما يأكل كابن لنكك ، ولا من ناحية أن مجتمعه فى نفسه فاسد كأبى العلاء ، ولكن من ناحية أنه وازن بين نفسه وكفايتها فى الحرب والأدب وطلب المجد ، وبين ملوك زمانه وأمرائه ، فرأى أنه أحق بالملك أو بالإمارة منهم ، فهجا المكان والزمان والدنيا :

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب　　فكل بعيد الهم فيها معذّب

ودهر ناسه ناس صغار　　وإن كانت لهم جُثث ضِخام

وما أنا منهمو بالعيش فيهم　　ولكن معدن الذهب الرّغام

فشبه الشيء منجذب إليه　　وأشْبَهُنا بدنيانا الطَّغام

إذا ما الناس جرّبهم لبيب　　فإنى قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودَّهم إلا خــــداعا ولم أر دِينهم إلا نِفــــاقا

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلّ أن يُسْمَى (١)

كأن بنيـــه عالمون بأننى جلوبٌ إليهم من معادِنه اليتما

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجَدّ والفهما

☆ ☆ ☆

وإنى لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أَنَف أن تسكن اللحم والعظما

ويرى علة فساد المجتمع فساد ملوكه ، ولا يصلح للعرب إلا ملوك من العرب وهو يرشح بذلك لنفسه :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القَزَمُ

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم

ألا فتًى يورد الهندىَّ هامتــــه كيما تزول شكوك الناس والتهم

☆ ☆ ☆

رِدِى حياض الردى يا نفس واتّركى حياض خوف الردى للشاء والنّعَم

إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والـكَرَم

أيملك الملكَ والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم ؟

☆ ☆ ☆

ميعاد كل رقيق الشفرتين غــداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فهو بذلك كله ينقد المجتمع ويذم الدهر من ناحيته الشخصية ، وهو أنه لم يُنله مقصده .

كما أنه يمثل مجتمعه من ناحية أخرى دقيقة ؛ فقد كان فى الشام والعراق

---

(١) يريد قتل الولاة والاستيلاء على ملكهم .

ومصر بدو وحضر ، وتثقف المتنبى ثقافة بدوية وحضرية ؛ وأقام فى البدو حيناً وعاش عيشتهم واستفاد من ألفاظهم وأساليبهم ؛ ثم خالط سيف الدولة وكافوراً وعضد الدولة ، وأكل على موائدهم ، ورأى ترفهم ونعيمهم ، فكان لذلك صدى فى شعره ؛ فهو بدوى حضرى : بدوى فى لفظه وأسلوبه وقوته وجزالته ، وفى كثير من معانيه وأوصافه كوصف الخيل والسلاح ؛ حضرى فى بعض معانيه كوصف الفَازَة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان ، ويصف بطيخة من الندِّ فى غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها الخ .

ويحن إلى الأعرابيات ، ويتشبب بهن ، ويفضلهن على الحضريات :

مَن الجآذِرُ فى زى الأعاريب ... حُمْرَ الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجه الحضر المستحسناتُ به ... كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرِية ... وفى البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة ... وغير ناظرة فى الحسن والطيب

أفدى ظباء فلاة ما عَرفْن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيب

ومِنْ هوَى كل من ليست مموهة ... تركت لون مشيبى غير مخضوب

ومن هوى الصدق فى قولى وعادته ... رغبت عن شَعَر فى الرأس مكذوب

فهو يمثل أيضاً ما كان فى عصره من بداوة وحضارة ، وبساطة فى العيش وتركيب .

وابن حجاج ، وابن سكّرة يمثلان الأدب الشعبى ، وحالة العصر فى مجونه

وهزله ، وفساده وانحطاطه ، وأدبه المكشوف الذى لا يرعى خُلقاً ولا ذوقا ، فكل لفظة مهما تعرّت وسقطت صالحة لأن تكون فى الشعر ، وأن تقال فى حضرة الملوك والوزراء والقضاة ، وتختار فيما يختار للمتأدبين ، كما فعل الثعالبى فى اليتيمة ؛ وقد سبق بعض القول فيهما .

والشريف الرضى يمثل طبقة الأشراف المثقفة الواسعة العلم ، المعتزة بجاهها ونسبها ومنصبها ، تعيش عيشة الترف ، وتجالس الخلفاء والوزراء من ناحية ، وتتصل بحكم منصبها بالشعب — إذ كان نقيب الأشراف — من ناحية أخرى .

فيقول الشعر اعتزازاً بالجاه والنسب ، ويخاطب الخليفة القادر :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوُت ... أبداً كلانا فى العلاء معرِّق

إلا الخلافة ميّزتك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوّق

وهو لمركزه يقيد كثيراً من أحداث التاريخ العظمى التى شاهدها ؛ وقد شاء القدر أن يكون فى مجلس الخليفة الطائع يوم فتك الفرس به ، كما كان البحترى فى مجلس المتوكل يوم فتك الترك به ، وخرج هـذا — كما خرج ذاك — هائماً ، وقال (الشريف) فى ذلك قصيدته التى مطلعها :

« لواعج الشوق تخطيهم وتصمينى » . وقد تقدمت نبذة منها .

وله فى ذلك قصيدة أخرى منها :

إن كان ذاك الطود خَـرَّ فبعد ما استعلى طويلا

* * *

لهفى على ماض قَضَى ... أَلاَّ ترى منه بديلا

وزوال مُلْكٍ لم يكن ... يوما يقـدَّر أن يزولا

وقال قصيدته الأخرى :

أى طودٍ دُكَّ من أى جبالِ لقحت أرض بِهِ بعد حِيَال
ما رأى حىّ نزارٍ قبلهـــا جَبَلا سار على أيدى رجال

* * *

عقروا ليثاً ولو هَاهَوا به كان بعد العَقْر أرجي لِلصِّيالِ

* * *

وكأنى خَلَل الغيب أرى نَغْرة من جرحها بعد اندمالِ
وإذا الأعداء عَدُّوكَ لهـا سلموا فضلك من غير جدال
لا أضاعوا رابئاً فى قُلة كلأ المجد وقد نام الكوالِى[1]
يوم للشعب دهان من دم والمواضى للمقاديم[2] فوالى

* * *

فاتنى منك انتصار بيمينى فتلافيت انتصاراً بمقالى الخ

وقد كانت ثورة البحترى أقوى وأصرح وأعنف ، إذ لم تكن النفوس اعتادت « التقية » من كثرة ما أصابها من ظلم .

هذا إلى ما يسجله من أحداث كثيرة من رجال الدولة البويهية .

كما أنه كان شاعر الشيعة يشكو الزمان لعدم إنصافهم ، ويعدد مزاياهم واستحقاقهم ، ويرثى لما أصابهم ، ويرثى الحسين الخ ، فهو لسان العلويين

---

(١) الرابئ : الناشئ . الكوالى : الحراس .

(٢) مقاديم جمع مقدام .

والطالبيين ، وباعث الأمل فيهم فى استرداد حقوقهم ، ونيل ما فاتهم .

ثم له الناحية الخاصة فى حياته ، التى يمثل فى شعره فيها حياة الأدباء والظرفاء الموسرين من غزل فى الحرائر والإماء ، من مثل قوله :

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر وممسَّك ومصندل
وإذا سألتُ الوصل قال جمالها جودى ، وقال دلالها لا تفعلى

وفى الغلمان على عادة عصره ، مثل قوله فى غلام لا يحسن التكلم بالعربية :

حبيبىَ ما أزرى بحبِّك فى الحشا ولا غضَّ عندى منك أنك أعجم
بنفسىَ من يستدرج اللفظ عجمة كما يمضغ الظبىُ الأراكَ ويبغم

وله الأبيات الكثيرة فى وصف الزهور ، والسماء والنجوم ، وحمامة وفرخيها ، والبرق والفجر الخ .

ويظهر أنه كان ضعيف الصحة ، مصاباً بالأمراض ، معرضاً للأخطار ، فارتاع من الشيب وأكثر من وصفه ، وأجاد فى مراثى أصدقائه وأقربائه إجادة فائقة ؛ وقد كان صديقاً لكثير من علماء عصره وأدبائهم سبقوه إلى الموت ، فخلد عواطفه نحوهم فى شعر رقيق .

* * *

وأبو العلاء المعرى فى لزومياته ناقد للمجتمع لا لما جناه المجتمع على شخصه كما فعل المتنبى ، ولكن لما جناه المجتمع على نفسه .

فالملوك فى وضعهم الحقيقى خدّام الرعية ، ولكنهم بالفعل ظالموها ومستغلوها :

مُلَّ المُقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

وهؤلاء الولاة المسيطرون على الناس لا عقل لهم ، ولا عدل عندهم ، شياطين

فى ثياب ولاة ، لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم ، وخمرت رءوسهم :

ساس الأنامَ شياطين مسلّطة   فى كل مصرٍ من الوالين شيطان
من ليس يحفِلُ خَمص الناس كلِّهمُ   إن بات يشرب خمراً وهو مِبْطان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو أشد قسوة ، لا يرحمون دمعة مظلوم ، ولا يجيبون صرخة مستغيث :

يجور فينفى المِلْك عن مستحِقه   فتُسْكَبُ أسراب العيون الدوامع
ومِن حوله قومٌ كأن وجوههم   صَفًا لم يُلَيَّن بالغيوث الهوامع

والقضاة لا عقل ولا عدل :

وأى امرئ فى الناس أُلْفِىَ قاضياً   فلم يُمضِ أحكاماً كحكم سَدوم ؟

وفقهاء ، صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام :

كأن نفوس الناس والله شاهد   نفوسُ فَرَاشٍ ما لهن حُلوم
وقالوا فقيه والفقيه مموِّهٌ   وحِلْفُ جِدَال والكلامُ كُلُومُ

ووعّاظ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويأتون ما ينكرون :

رويدك قد غُرِرْتَ وأنت حرٌّ   بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرِّمُ فيكم الصهباء صبحا   ويشربها على عَمْدٍ مساء

وشعراء ، ليسوا إلا لصوصاً يعدُون على من قبلهم فى سرقة أقوالهم ، ويعدون على الأغنياء بمديحهم لسلب أموالهم :

وما شعراؤكم إلا ذئاب   تَلَصَّصُ فى المدائح والسِّباب
أَضَرُّ — لمن تَوَدُّ — من الأعادى   وأسرق للمقال من الزَّبّاب[1]

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون إلى المنجمين والعرّافين والمعزِّمين ، وما لهؤلاء

(١) الزباب : الفأر العظيم .

من علم ، ولكنها شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلين والمغفلات :

متكهّن ومنجّم ومُعزِّم وجميع ذاك تحيُّلٌ لمعاش

* * *

لقد بكَرَت فى خُفها و إزارها لتسأل بالأمر الضرير المنَجِّما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحِجَا فيرجِّما
ويوهم جُهّال المحَلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره لجاء بمَيْن أو أَرَمَّ وجمجما

* * *

سألَتْ منجّمها عن الطفل الذى فى المهدِ كم هو عائش من دهره
فأجابها مائةً ليأخذ درهما وأتى الحِمامُ وليدَها فى شهره

و بعد أن نقدهم طبقاتٍ ، من الملوك إلى القضاة إلى الوعاظ إلى التجار إلى النساء ، نقدهم جملة ، فكل الناس فى كل زمان ومكان لا يصلحون إلا للفناء :

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطِروا فلا يَظُن جهول أنهم فسدوا

* * *

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سَقَطًا لما تحصل شىء فى الغرابيل
أو قيل للنار خُصِّى مَن جَنى ، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

* * *

يحسُنُ مرأًى لبنى آدم وكلهمْ فى الذوق لا يَعْذُب
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يَجْذِب
أفضل من أفضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يُصغوا إليه ولم يلتفتوا له ، وتجاذبَهم

عقلٌ يُرْشد وطبعٌ يُغوِى ، فجروا وراء طبعهم وأهملوا عقلهم :

فأوسِعْ بنى حواء هُجْراً فإنهم يسيرون فى نهج من الغدر لاحِبِ
و إن غيَّر الإثمُ الوجوهَ فما ترى لدى الحشر إلاّ كلَّ أسودَ شاحِبِ
إذا ما أشار العقل بالرشد جرّهم إلى الغىِّ طبعٌ أخذهُ أخذ ساحِب

* * *

واللب حاول أن يهذب أهلَه فإذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنقْاء الغراب لكى يرَى وَضَح الجناح أصابه تعذيب

* * *

إلى الله أشكو مهجةً لا تطيعنى وعالَمَ سوء ليس فيه رشيد
حِجًى مثلُ مهجور المنازل داثِرٌ وجهلٌ كمسكون الديار مَشيد

* * *

العقل إن يضعُفْ يكن مع هذه الـدنيا كعاشقِ مومِسٍ تُغويه
أو يَقْوَ فهى له كحرةِ عاقلٍ حسناء يهواها ولا تُهْوِيه

* * *

فطبعُك سلطان لعقلك غالبٌ تَدَاولُه أهواؤه بالتَشصُّص
سُقيتَ شرابا لم تهنّأ ببَرْده فغُنِّيتَ من بعد الصدى بالتغصص

* * *

وهكذا أفاض فى نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه ، وكان فى كل ذلك موفقّاً كل التوفيق ، ومظهر توفيقه أنه استطاع فى مهارة أن يدرك عيوب المجتمع فى جملتها وتفصيلها ، و يعالج ظواهرها ، و يعمق فى النفس الإنسانية فى دقة وتحليل ؛ فيصل إلى دخائلها .

وأبو حيان التوحيدى يمثل فى أدبه وكتابته علاقة الأدباء والعلماء بالولاة والوزراء والأغنياء ، فإن أُعطوا حسنت حالهم ، وإلا ساء عيشهم ؛ إذ لا مورداً آخر لهم . وقد كان أبو حيان غير موفق فى استجدائه ، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن لبقاً ولا ماكراً — إلى طول لسان ، وإقذاع فى الهجو لمن لا يعطيه ، فعاش بائساً فقيراً ؛ ومثَّل ذلك فى أدبه فيقول : « فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومُرفق ومشفق ، ووالله لربما صلّيت فى المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتنه ؛ فقد أمسيت غريب الحال ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، بائساً من جميع ما ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وقد خاب ظنه فيمن أملهم من مثل ابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، وأبى الوفاء البوزجانى ، فملأ كتبه : الصداقة والصديق ، والإمتاع والمؤانسة ، والمقابسات ، بالشكوى منهم ، ثم لم يحظ بطائل .

* * *

هذا هو الأدب فى ذلك العصر يصور المجتمع فى شتى نواحيه .

الكتاب الثاني

مراكز الحياة العقلية في ذلك العصر

الباب الاول

مصر والشام

توالى على مصر والشام فى هذا العهد الدولة الطولونية (٢٤٥ — ٢٩٢) . ثم الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨) ، والدولة الحمدانية فى حلب والموصل (٣١٧ — ٣٩٤) ، والفاطمية من (سنة ٣٦٢ — سنة ٥٦٧) .

وكانت الحركة العلمية فيها تنمو تبعاً لسنة النشوء والارتقاء .

وأظهر الحركات العلمية فيهما الحركة الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ؛ إذ كانت هى الحركة العلمية الغالبة فى المملكة الإسلامية ، وكان رجالها أنشط العلماء ، وأميلهم إلى الرحلة للإفادة والاستفادة ، للوازع الدينى القوى عندهم . فكان يرد على مصر والشام كثيرون من العلماء الدينيين من العراق وفارس والحجاز والمغرب ، فينشرون علمهم ويأخذون ما ليس عندهم ؛ فكان مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط ، ومسجد أحمد بن طولون ، والأزهر فيما بعد مصدراً لثقافة دينية واسعة . كما كان المصريون والشاميون يرحلون إلى الأقطار الأخرى لأخذ العلم من علمائها .

فكان من أشهر المحدّثين والفقهاء فى العهد الطولونى وقبله الربيع بن سليمان المُرَادىّ بالولاء ؛ وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية ، وإن لم يمتز بالذكاء . له الفضل الأكبر فى حفظ مذهب الشافعى وروايته ؛ فقد كان تلميذه ، وكان مقرباً إليه ؛ وقد نفعته قلة ذكائه فى اعتماده على الضبط والتثبت أكثر مما يعتمد على الذكاء والاستنتاج ؛ وأدرك الشافعى هذه الميزة فيه فقربه إليه ، وعنى بتحميله

علمه . وأفاد مصر كثيراً فإنه عُمِّر طويلا ، إذ عاش نحو ست وتسعين سنة (١٧٤ — ٢٧٠) ، فيكون قد عمّر فى العهد الطولونى نحو ستة عشر عاما . وكان يدرس فى جامع الفسطاط ؛ ثم استدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس فى مسجده لما بناه ، وقد نشر فى مصر أحاديث الشافعى وفقهه ، كما روى أحاديث كثيرة رواها عن غير الشافعى كعبد الله بن وهب ، ويحيى بن حسان ، وأسد بن موسى . وكان قبلة أنظار المحدّثين من الأقطار المختلفة ، فيرحلون إلى مصر يأخذون عنه وعن أمثاله ، فروى عنه من جامعى الكتب الصحيحة أبو داود ، والنّسائى ، وابن ماجَه ، وغيرهم ؛ وعلى الجملة فكان الربيع بن سليمان مصدر حركة علمية دينية كبيرة .

وكما كان الربيع بن سليمان إمام الشافعية فى مصر ، كان أبو جعفر الطحاوى إمام الحنفية فيها ، وكان من طحا وهى بلدة قديمة كانت فى الوجه القبلى من أعمال « المنيا » . كان الطحاوى من عرب الأزد الذين نزلوا بها ، وتفقه على خاله المُزَنى صاحب الشافعى ، ثم تحول إلى مذهب أبى حنيفة ، وتعلم على من كان بمصر من العلماء ، ومن دخلها من الغرباء ؛ وكان مجتهداً فى المذهب يضارع أبا يوسف ومحمداً ، استفاد من جمعه بين فقه الشافعية والحنفية ، فكان يجتهد ، ويخالف أبا حنيفة عند قيام الدليل ، وينقد الحديث نقد معنى وإن صح السند فى نظر المحدّثين ؛ فكانت شخصيته غير شخصية الربيع بن سليمان ، إذ كان هذا عمدة فى الرواية ، وذاك عمدة فى الدراية . وكان من أسبق المؤلفين المصريين فى فنون مختلفة : ألّف « معانى القرآن » ، ومشكل الآثار ، وشرح بعض كتب محمد بن الحسن ، وألّف فى التاريخ والنوادر الفقهية . عاش من سنة ٢٢٩ — سنة ٣٢١ ، فعاصر الدولة الطولونية كلها ، وترك فى مصر حركة حنفية تساير حركة الربيع الشافعية ، وتمتاز بإعمال العقل فى التشريع بجانب النقل .

كما اشتهر من المالكية روح بن الفرج أبو الزّنباع الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢ ، وأحمد بن الحارث بن مسكين المتوفى سنة ٣١١ . وأمثال هؤلاء كثيرون لا نطيل بذكرهم .

وهذه الدراسة كانت تعتمد على تفهم معانى القرآن ورواية الحديث ، وأقوال الأئمة ، واستنباط الأحكام ، كلّ على أصول مذهبه ؛ وكانت على نمط الدراسة فى العراق موضوعا ومنهجاً ، إذ كانت رحلة العلماء فى حركة مستمرة كأن المملكة الإسلامية كلها على اتساع رقعتها بقعة واحدة .

وكان النابغون فى مصر من علماء الدين إما من أصل عربى يرجع نسبه إلى القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة ، أو من أصل مصرى أصله قبطى وأسلم هو أو أسلم أجداده ، كما نرى فى عثمان بن سعيد الملقب بوَرْش أحد القراء المشهورين ، فأصله قبطى ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية ؛ وقد مات بمصر سنة ١٩٧ ، وخلّف من حمل عَلَم القراءة بعده ، واستمرت حركته إلى هذا العصر الذى نؤرخه .

وربما كان أكبر من يمثل الثقافة الدينية فى هذا العصر أيضاً أبو بكر بن الحداد ؛ فقد وصفوه بأنه عالم بالقرآن والحديث ، والأسماء والكنى ، والنحو واللغة ، وسِيَر الجاهلية ، والشعر والنسب ، واختلاف الفقهاء ، وكان أعلم أهل وقته ، وولى القضاء للإخشيد ، وعاش تسعاً وسبعين سنة ، ومات سنة ٣٤٤ ، وكان يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ؛ وكان يدرّس فى جامع عمرو ، وأخذ عنه أعلام الجيل الذى بعده .

ويصف ابن زولاق سيبويه المصرى ، فيقول : « كانت فيه صفات تشبه المتصدرين : يحفظ القرآن ، ويعلم كثيراً من معانيه وقراءاته ، وغريبه وإعرابه

وأحكامه ، عالما بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرُّواة ، ويعرف من النحو ، والغريب ما لقب بسببه سيبويه ، ويعرف صدراً من أيام الناس ، والنوادر والأشعار ، وتفقه على قول الشافعي » .

فيكاد يكون هذا برنامجاً عاما لهذا النوع من الثقافة الدينية .

ولم تكن هناك مدارس في العهد الطولوني والإخشيدي ، إنما تلقى الدروس في المساجد كمسجد عمرو ، وابن طولون ، وفي بيوت الأمراء والوزراء والعلماء ، وكانت هناك سوق تسمى « سوق الورّاقين » تباع فيها الكتب ، وأحيانا تدور في دكاكينها المناظرات[1] .

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين أحداث مصر وتاريخها ، وتسلك في منهجها مسلك المحدّثين ، غاية الفرق أن المحدّثين يجمعون ما روى عن رسول الله والصحابة والتابعين فيما يتعلق بالأحكام الدينية ونحوها ، وهؤلاء يروون ما قيل في أحداث التاريخ ؛ إنما الأسلوب واحد في الرواية رجلا عن رجل « حدثنا فلان عن فلان قال » ؛ وقد لا يدققون في هذا الباب دقتهم في باب الأحاديث الدينية ، ولذلك نرى من تخصص في التاريخ أيضاً ممن كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه ، ولنسق مثلا لذلك — حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار ؛ قال : حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال : « كان عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو (بن العاص عند فتحه لمصر) فأرسل الزبيرَ في أثره في اثني عشر ألفاً ، فشهد معه الفتح[2] — والمؤرخون من هذا النوع أوثق فيما نقلوه عن الفتح الإسلامي وبعده منهم فيما نقلوه عن تاريخ قبل الفتح ، فهذا مملوء

(١) انظر أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ص ١٨ .

(٢) من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم .

بالخرافات لجهلهم بالمصادر الصحيحة فى تاريخ اليونان والرومان ومَن قبلهم إلى قدماء المصريين .

وقد اشتهر من هؤلاء ثلاثة مؤرخين فى هذا العصر .

(١) ابن يونس : وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى من بيتٍ عرف بالحديث والفقه ، عربى الأصل من قبيلة الصَّدِف ؛ كان جده من أصحاب الشافعى ، وقد قال فيه (الشافعى) : « ما رأيت بمصر أعقل من يونس » . وانتهت إليه رياسة العلم بمصر — فجاء حفيده هذا يعنى بتاريخ مصر بعد أن تثقف بالفقه والحديث ، وقرأ ما كتبه مؤرخو مصر قبله كابن عبد الحكم وغيره ؛ وقد عاش فى العهد الطولونى والإخشيدى ، عاش من (٢٨١ — ٣٤٧) ، ووُجدت عنده العصبية لمصر يؤرخها ويعنى بحوادثها ورجالها ؛ وقد جمع لها تاريخين : أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين منشأ ، والآخر صغير فيمن ورد على مصر من الغرباء ؛ وقد عنى بجمع أحوال الناس ، مطلعاً على ما ألف فيها لعصره ، واشتهر بين المصريين بذلك ، فقد قال أحد شعرائهم فى رثائه :

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا
نشرتَ عن مصر من سكانها عَلَمًا ... مبجلا بجمال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس ما سجعت ... وُرْق الحمام على الأغصان تطريبا
أعربت عن عرَب ، نقّبت عن نخب ... سارت مناقبهم فى الناس تنقيبا
أنشرت ميتهم حيًّــا بنسبته ... حتى كأن لم يمت إذ كان منسوبا

ومهما كان هذا الشعر ضعيفا ففيه دلالة على تقدير هذا المؤرخ واتجاهه فى نشر مفاخر مصر ورجالها .

(٢) الكِنْدى : محمد بن يوسف من كندة ، كان من أعلم الناس بتاريخ

مصر ، وأهلها وأعمالها وثغورها ، وهو مصرى نشأ بمصر ومات بها (٢٨٣ – ٣٥٠) .

وقد ثقف ثقافة محدِّثين ، وكان أشهر أساتذته ابن قُدَيد ، والنَّسائى أحد مؤلفى الصحاح ؛ وقد زار النسائى مصر إذ كان عُمْر الكندى سبعة عشر عاما ، وأقام بها زمناً فأخذ عنه الكندى ؛ ثم عنى بتاريخ مصر ، وألف فى ذلك كتباً كثيرة ، فألف فى ولاة مصر وقضاتها (وقد وصل إلينا هذا الكتاب) ، وألف فى خطط مصر ، وكتابا فى موالى مصر ؛ وقد كانت هذه الكتب مما اعتمد عليها المقريزى فى خِطَطه . وكتابه الذى وصل إلينا عن قضاة مصر وولاتها يلقى لنا ضوءاً كبيراً على حالة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ؛ إذ يعرض للأحداث التى حدثت فى عهد كل وال ، وكيف تصرف فيها ، وما قيل فيها من الشعر .

(٣) ابن زُولاق : وهو الحسن بن إبراهيم الليثى بالولاء . عنى كذلك بتاريخ مصر ، فأكمل أخبار قضاة مصر للكندى إلى سنة ٣٨٦ ، أى قبل وفاته بسنة ، فقد مات سنة ٣٨٧ ؛ وعُنى بخطط مصر فألف فيها ، وكانت خططه أساساً لمن أتى بعده من مؤلفى الخطط كالقضاعى ، وابن بركات ، ثم المقريزى .

كما ألف لنا كتابا فى أخبار سيبويه المصرى أحد عقلاء المجانين ، فروى لنا طرفا من جيد أقواله ، وغريب أحداثه ، وأفادنا به فوائد كثيرة عن الحالة الاجتماعية فى العهد الإخشيدى .

وجاء مصر فى العصر الإخشيدى المؤرخ المشهور «المسعودى» بعد أن رحل إلى فارس والهند ، وسيلان والصين ، وطاف المحيط الهندى ، ورحل رحلة أخرى إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ، ثم إلى الشام ، ثم إلى مصر ، ونزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفى سنة ٣٤٦ — وكان مؤرخا ممتازاً على من

سبقه بكثرة تجار به من رحلاته ومشاهداته ، ودقة نظره ، وسعة اطلاعه ، والتفاته إلى آفاق واسعة فى التاريخ ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والمذاهب الدينية ، وأصول الحضارة ، وغير ذلك ؛ وقد بعُد فى التاريخ عن أسلوب المحدّثين ، فانتقل به خطوة أخرى . ولا شك أن وجوده بمصر ونشر كتبه فيها كان له أثر كبير فى الثقافة التاريخية .

* * *

وانتقلت من العراق إلى مصر صورة من خلافات المتكلمين ، وذلك على أثر أمر المأمون بأخذ العلماء والقضاة بالقول بخلق القرآن ، وإرسال منشور لولاة الأمصار بتنفيذ ذلك ، فجاء المنشور مصر فى جمادى الثانية سنة ٢١٨ ، فامتَحن والى مصر قاضيَها ، فقال : بخلق القرآن ، وامتحن الشهود والمحدِّثين ، وكانت الحركة عنيفة عذب فيها خلق كثير ، وخاصة فى عهد الواثق . قال الكندى : «إن أمر المحنة (محنة خلق القرآن فى مصر) كان سهلا فى ولاية المعتصم ، لم يكن الناس يؤاخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم ؛ وقام الواثق سنة ٢٢٧ فأمر أن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن أبى الليث (قاضى مصر) بذلك ، وكأنها نار أضرمت . . . فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ، ولا مؤذن ولا معلم ، حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة . وأمر ابن أبى الليث بأن يكتب على المساجد : «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق» ، فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه » .

وكان طبيعياً أن تثير هذه المسألة فى الجو المصرى الجدل فى الاعتزال وأصوله ، واعتنقه قوم ورفضه آخرون . ولما جاء المتوكل وأغلق هذا الباب ظل

قوم يعتنقون مذهب الاعتزال ، ويدعون إليه فى العصر الطولونى والإخشيدى ، ولكن فى شىء من الخفية ، فيذكر ابن زولاق أن أبا على محمد بن موسى القاضى الواسطى كان وجه المتكلمين بمصر ، وكان يعلّم الاعتزال ، وأنه كان بها أبو عمران موسى بن رباح الفارسى أحد شيوخ المعتزلة[1] ، وأن سيبويه المصرى كان معتزلياً ، وكان يتكلم على أصول المعتزلة ، ويقول بخلق القرآن ، والناس يحتملون منه ما لا يحتملونه من سواه للوثة كانت فيه .

وكل ذلك فى العهد الإخشيدى .

* * *

ثم ظهر فى جو مصر مظهر دينى من نوع جديد على يد ذى النون المصرى أحد مؤسسى التصوف ، والذى أحدث ضرباً من الكلام لم يعرف قبل فى مصر ؛ أصله من إخميم من صعيد مصر من أبوين نوبيين ، وأخذ العلم المعروف فى مصر من حديث وفقه ؛ ووصف بأنه كان يعرف الكيمياء ، ويقرأ الخط الهيروغليفى على البرابى ، ورحل إلى بلاد كثيرة كتاهرت بالمغرب ، وبيت المقدس وأنطاكية ، واليمن وبغداد ، ومكة والمدينة ، وقابل الرهبان وتحدث إليهم — ثم طلع على الناس فى مصر بكلام لم يألفوه ، من الكلام فى الأحوال والمقامات والحب الإلهى ، وأن مصادر المعرفة النقل والعقل ، وشىء آخر زاده هو وهو الكشف ، وأن هناك علما ظاهراً ، وعلما باطناً ، ويعرض هذه الأقوال فى أسلوب شعرى جذاب .

وطبيعى أن تلاقى هذه التعاليم معارضة من الفقهاء الذين لا يؤمنون إلا بالنقل فإن تجاوزوه فبالعقل ؛ أما الكشف وعلم الباطن والحب والفناء فشىء

---

(١) سيبويه المصرى : ١٨ .

لم يسمعوا به فعارضوه . وكان على رأس المعارضين عبد الله بن الحكم شيخ المالكية ، وابن أبي الليث قاضي مصر الحنفي القوى الجبار ؛ فكلاهما لم يرض عن ذى النون وتعاليمه ، فاضطهد واتهم بالزندقة ، وأخيراً أرسل إلى دار الخلافة ببغداد فسجن فى المطبق ، ولكن مساعى الصوفية ببغداد واتصالهم برجال المتوكل جعلت المتوكل يستدعيه و يسمع منه و يتأثر بمواعظه ، فيرسله إلى مصر مكرّماً ، و يعيش بعد ذلك تسع سنوات ينشر فيها تعاليمه آمناً مطمئناً حتى يموت سنة ٢٤٥ .

ومن ذلك الحين وجدت بمصر الحركة الصوفية ، وقويت حتى كان لها دخل فى عزل بعض الولاة . وتتابع فى مصر بعد ذى النون أقطاب الصوفية ، مثل أبى الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال ، أصله من واسط ، وصحب الجنيد ووفد على مصر ، ورأس الحركة الصوفية ، وأنكر على ابن طولون تصرفاته وأَمْرَه بالمعروف ونهاه عن المنكر فى غير مبالاة ؛ فرووا أنه قدمه لأسد فلم يؤذه فشاع ذكره فى مصر ، ولما مات خرج فى تشييع جنازته أكثر أهلها . ومن كلامه : « أجَلُّ أحوال الصوفية الثقة بالمضمون ، والقيام بالأمر ، والمراعاة للسر ، والتخلى من الكونين ، والتعلق بالحق » ؛ مات بمصر سنة ٣١٦ .

* * *

هذه هى الحركة الدينية فى مظاهرها المختلفة ، و بجانبها كانت حركة لغوية ونحوية عُنى بها لأنها مفتاح لفهم القرآن والسنة ، وأداة لفهم الأحكام ؛ وقد نبغ فى هذا العصر ابن وَلّاد ، وأبو جعفر النحاس .

فأما ابن ولّاد أحمد بن محمد بن الوليد فمصرى أصله من تميم ، وكان من أسرة عرفت بالنحو هو وأبوه وجده ، وقال عنه المبرد إنه شيخ الديار المصرية فى العربية ؛ وقد درس النحو ببغداد على الزجّاج ، ثم أتى مصر ينشر النحو

على طريقة العراق ، وألف كتاب « الانتصار لسيبويه » ، وكتاب « المقصور والممدود » ، وهو يذكر فيه ما ورد من الكلام مقصوراً وممدوداً ، فيقول — مثلا — الأُنَى : واحد ساعات الليل ، مقصور يكتب بالياء . . . وإنَى الشيء : بلوغه وإدراكه ، كذلك مقصور ، قال تعالى : « إلى طعام غير ناظرين إناه » أى بلوغه وإدراكه ... وأما الأَناء بفتح اوله فممدود ، وهو الانتظار والتأخير؛ قال الحطيئة :

وآنيت العشــاء إلى سُهيل أو الشِّعرَى فطــال بى الأَناء

والأَناء : واحد الآنية — والأَناة : من قولهم رجل ذو أناة وهى التؤدة ؛ قال : النابغة : — الرفق يُمْن والأناة سعادة — .

ويقال : امرأة أناة ، وهى التى فيها فتور عند القيام ، والأصل وناة لأنها من ونَى يَنى ؛ قال تعالى : « ولا تنيا فى ذكرى » .

وهكذا يأتى بكل الكلمات اللغوية التى ورد فيها القصر والمد ويشرحها ويستشهد لها ويصرّفها — وهو اتجاه لغوى طريف .

مات سنة ٣٣٢ فى الدولة الإخشيدية .

وأما أبو جعفر النحاس فمصرى عربى الأصل من مُرَاد ؛ وقد تعلم النحو كذلك فى العراق ، وأخذ عن الأخفش الصغير والمبرد والزجاج ؛ وكان هو وابن ولاد متعاصرين ، زميلين فى التعلم ببغداد وفى التعليم بمصر . وقد ألّف « إعراب القرآن » ، و « معانى القرآن » ، و « المبهج فى اختلاف البصريين والكوفيين » ، وشرح المعلقات ، وشرح المفضليات ، وشرح أبيات الكتاب (كتاب سيبويه) ، والاشتقاق ، وأدب الكُتّاب الخ .

فكانا بعلمهما مصدراً لحركة قوية لغوية ونحوية فى مصر ، وتعلم عليهما

كثيرون . وقد مات النحاس سنة ٣٣٨ بعد ابن ولاد بست سنوات .

وقد ذكر لنا المتنبي فى شعره فى كافور أنه كان يدرّس بمصر فن «الأنساب» ، وعدّ من مضحكات مصر أن الذى كان يدرِّس أنساب العرب نبطى من أهل العراق فقال :

بها نبطىٌّ منَ اهل السواد يدرِّس أنساب أهل الفلا

وقد ذكروا أنه يريد ابن حِنزْابه ، وهو متحامل عليه ؛ فابن حنزابه هذا من أفضل الناس وعلمائهم ، وهو ابن وزير العراق الخطير ابن الفرات . وكان ابن حنزابه وزيراً للدولة الإخشيدية ، وكان عالما محباً للعلماء يقربهم و يشجعهم و يصلهم بماله ، حتى قصده من علماء الأقطار الأخرى كثيرون . وكان يملى الحديث بمصر وهو وزير ، و يقصد إليه المحدّثون يسمعون روايته ، وله تآليف فى أسماء الرجال والأنساب . وقد أراد المتنبي أن يمدحه فعمل فيه قصيدته : « بادٍ هوَاكَ صبرت أم لم تصبرا » ، ولكنه لم ينشدها ، فلما غضب على كافور ، وغضب على وزيره وخرج من مصر حوّلها فى مدح ابن العميد ، وعرّض بابن حنزابه .

* * *

أما الحركة الأدبية فقد كان الشعر فيها هزيلا . ومنذ الفتح الإسلامى إلى هذا العهد الطولونى والإخشيدى لم تُخرج مصر شاعراً كبيراً يضاهى شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى ، وهى ظاهرة تستحق النظر ؛ فقد كانت الفنون راقية ، كما يتجلى ذلك فى عمارة الفسطاط ومسجد ابن طولون ؛ وكما كان فن الغناء لا بأس به ، كما يتجلى فى وصف القيان فى العهد الطولونى ؛ وكانت هناك العناية بالبساتين والأزهار ، ولكن مع هذا كله لم تنبغ الشاعرية لا فى العرب الذين وفدوا إلى مصر وأبنائهم ، ولا فى المصريين الصميمين ممن

تعلموا العربية ؛ فنجد الفقيه المصرى الذى يضاهى أئمة العراق كالليث بن سعد ، ونجد المحدث الذى يشابه أكبر محدثى العراق كابن لَهِيعة ، والنحوى الذى يضاهى نحويى البصرة والكوفة كابن ولاد ، ونجد أتباع الأئمة فى هذه العلوم يشبهون الأتباع فى العراق ، ولكن لا نجد الشاعر النابغ هنا الذى يساوى الشاعر النابغ هناك ، فهل هذا لأن الشعر كان لا يرقى إلا فى بلاط الخلفاء ؟ أو أن نبوغ الشعراء كنبوغ العظماء والزعماء خاضع لقوانين لم تستكشف بعد ، أو لغير ذلك من أسباب ؟

على كل حال كان أشهر شعراء مصر فى العهد الطولونى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل ، لم يصلنا شعره كاملا ، وإنما هى نتف هنا وهناك ؛ قال فى مديح أحمد بن طولون :

له يدٌ كم خَلّدت من يدٍ سحابة عمت بأنوائها

وهو لدى الهيجاء ليثٌ إذا ما ثقلت قامت بأعبائها

انظر إلى مصر بسلطانه تر الهدى فاضَ بأرجائها

وربما تظهر مصريته فى ميله إلى الفكاهة ، كقوله فى ابن المدبِّر صاحب خراج مصر ، وكان الشاعر إذا مدحه ولم يرتض شعره أمر من يحمله إلى المسجد ، ويفرض عليه أن يصلّى عدداً معلوما من الصلاة ، فقال الجمل :

قصدنا فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تُنْتَجَع الولاة

فقالوا يقبل المَدَحات لكن جوائزه عليهن الصَّلاة

فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى ؟ إنما الشأن الزكاة

فيأمر لى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصِّلاةُ هى الصِّلاتُ

وله شعر رواه الكندى فى أخبار القضاة ، كان يقوله فى المناسبات عندما يحدث فى مصر بعض الأحداث .

كما كان هناك شعراء آخرون فى العهد الطولونى والإخشيدى فى مثل منزلة الجمل ؛ ولذلك لما جاء المتنبى مصر فى عهد كافور ابتلعهم كما يبتلع الحوت الكبير السمك الصغير ، ولم يستطع أن يجاريه منهم أحد .

وربما كان حظ النثر الفنى أكبر من حظ الشعر ، كما يتجلى ذلك فيما بقى لنا من رسائل « ابن عبد كان » ككتابه الذى كتبه على لسان أحمد بن طولون لابنه لما خرج عليه ؛ ففيه المسحة العراقية ، جمعت بين طول نَفَس الجاحظ ، وجزالة عمرو بن مسعدة ، مع ميل إلى السجع كثيراً ، والمزاوجة دائماً ، وإطناب فى اللفظ ، وتكرار للمعنى من مثل قوله : « واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذن بحرب وويل ، فإننا نُقسم ، ونرجو ألا نجور ونظلم ، ألاَّ نثنى عنك عناناً ، ولا نؤثر على شأنك شاناً ، ... منفقين كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمرّ من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت الخ »[1] .

وكما يتجلى فى كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ؛ فقد ألفه فى العهد الطولونى ، وبناه على قصص لمن عملوا الجميل فكوفئوا عليه بالجميل ؛ فموضوعه طريف ، وعَرْضه فى أسلوب قوى جزل متين .

* * *

إلى جانب هاتين الحركتين الدينية والأدبية ، كانت حركة العلوم الفلسفية التى تشمل الطب والنجوم والإلهيات وما إليها ، وهى بقية من بقايا مدرسة الإسكندرية ؛ وقد كانت لا تزال باقية فى مصر ، وإن ضعفت بالفتح الإسلامى ،

---

(١) الكتاب بطوله فى صبح الأعشى : ٥/٧ وما بعدها .

وإقبال الناس على الثقافة العربية يتعلمون لغتها، ويبحثون فيما أتت به من دين. فاتجهت أكثر الثقافة إلى الاشتغال بالدين الإسلامى وعلومه، واللغة العربية وعلومها، وبقيت بقية قليلة للفلسفة وما إليها، كان أكثرها من رجال الدين النصرانى لامتزاج النصرانية بالأفلاطونية الحديثة، عند ما اختلف النصارى فى عقائدهم، وتجادلوا فى مذاهبهم، والتجأ كل مذهب إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية فى تأييد رأيه.

وكان أمراء مصر وولاتها يحتاجون إلى الأطباء والمنجمين، وقل أن يجدوهم إلا فى النصارى. والطب والتنجيم فرعان من فروع الفلسفة اليونانية، كان من اشتغل بهما مضطرا أن يقرأ الفلسفة اليونانية فى إلهياتها وطبيعتها وكيميائها.

فاشتهر من هؤلاء: سعيد بن نوفل النصرانى طبيب ابن طولون؛ كما اشتهر سعيد بن البطريق، «وكان طبيباً نصرانيا من أطباء فسطاط مصر، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم.. وقد عين بطريركا على الإسكندرية ومات سنة ٣٢٨، وله كتب فى الطب، والجدل بين المخالف والنصرانى الخ»(١).

وقد ترجم كتاب الحيوان لأرسطو، وكتاب السماء والعالم لأرسطو أيضاً.

على أن بعض علماء المسلمين المصريين كان يتصل بهذه الحركة ويتصل برجالها ويقرأ كتبها؛ فابن الداية الذى سبق ذكره كان — كما يقول ياقوت — أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحسّاب والمنجمين، مجسطى، إقليدسى، حسن المجالسة، حسن الشعر»، ونجده ينقل فى كتابه المكافأة عن أفلاطون؛ ونجد ذا النون المصرى الصوفى المشهور يتحدث عن الرهبان، ويروون

---

(١) انظر طبقات الأطباء: ٢/٨٦.

فى ترجمته أنه كان يعرف : السحر ، والطلسمات ، والكيمياء . ويعقد الأستاذ نيكلسون ما فى بعض أقواله من شبه بينها و بين أقوال « الأفلاطونية الحديثة » .

من هذا نفهم أنه كانت هناك حركة فلسفية فى مصر من أثر مدرسة الإسكندرية ، ومن أثر الوافدين من العراق ، بما ترجموا من كتب ، وأن بعض العلماء المصريين اشتغل بها وتأثر وتثقف ، وإن كان ذلك فى دائرة ضيقة إذا قيست بدائرة علوم الدين واللغة .

* * *

وكانت الحركة العلمية فى الشام فى العهد الطولونى والإخشيدى صورة للحركة فى مصر ، وربما كانت أصغر منها ، لأن مركز الولاة الطولونيين والإخشيديين فى مصر ، ولأن مصر كانت أغنى ؛ وكثيراً ما كان يزدهر العلم فى ظل البلاط وتشجيع الأمراء وكثرة المال ؛ إلا فن الشعر فقد كان فى الشام أرقى منه فى مصر ، كما سيأتى .

فكان فى الشام طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء والصوفية والقراء — أمثال إخوانهم فى مصر ؛ فالإمام الأوزاعى البيروتى المتوفى سنة ١٥٧ كان له من الأثر فى الشام فى الحديث والفقه ما لليث بن سعد والشافعى بمصر . واشتهر بها كثير من المحدثين والفقهاء فى هذا العصر كزكريا بن يحيى السِّجْزِى المتوفى سنة ٢٨٩ ، وكان يعرف بخياط السنّة ؛ ومحمد بن عوف الطائى الحمصى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وكان أعرف الناس بالأحاديث التى رويت فى الشام ؛ وأبى بكر محمد بن بركة الحميرى اليحصبى القنسرينى وأمثالهم كثير .

وانتشرت حركة التصوف من مصر إلى الشام عن طريق ذى النون المصرى وأصحابه ؛ فظهر فى الشام طاهر المقدسى ، أخذ التصوف عن ذى النون المصرى وغيره

وسماه الشبلى « حبر الشام » ، ورويت عنه أقوال كثيرة فى التصوف كقوله : « المفاوز إليه منقطعة ، والطرق إليه مطمسة ، والعاقل من وقف حيث وقف العوام » . كما ظهر أبو عمرو الدمشقى ، أخذ التصوف عن أصحاب ذى النون وغيرهم ، مات سنة ٣٢٠ ، وكان يقول : التصوف غض الطرف عن كل ناقص ، ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص . وأبو إسحاق الرقّى كان من أكبر مشايخ الشام ومتصوفيها ، مات سنة ٣٢٦ الخ .

ويكاد يكون الطابع لحركة الحديث والفقه والتصوف فى مصر والشام ، طابعاً واحداً لقرب القطرين ، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة ، حتى كان كثير منهم يصعب عده مصريا أو شاميا لتوزع عمره وحياته العلمية بين القطرين .

* * *

وكما كان لمصر فضل فى اتجاه بعض العلماء لتدوين تاريخها وخططها على يد ابن عبد الحكم ثم ابن يونس ثم الكندى ثم ابن زولاق ، كان للشام فضل من نوع آخر على يد أبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (٣٣٦ إلى نحو سنة ٣٨٠) ، فقد رأى أن المملكة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لم توصف وصفا كافيا لا من ناحيتها الجغرافية ، كوصف المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار والمدن والأمصار والنبات والحيوان ، ولا من الناحية الاجتماعية كاللغات والألوان والمذاهب والنقود والمزايا والعيوب ، والسعة والخصب والضيق والجدب — ولم يعجبه ما كتبه مَن قبله ، وشعر بقصور المؤلفات فى ذلك فجرد نفسه لهذا وطاف أكثر البلاد الإسلامية ، وكتب كتابه : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، وكان فيه من أصدق الرحالين ملاحظة ، وأدقهم نظراً ، وأحسنهم لموضوعه ترتيبا ؛ وقد عمل كل حيلة والتحق بكل صناعة ، وتحمل كل مشقة ، وأنفق فوق

عشرة آلاف درهم ، وعرّض نفسه لكل خطر فى سبيل الحصول على المعرفة ، وجاءته فكرة « الخرائط » فعملها فى كتابه هذا . بل جاءته فكرة الخرائط الملونة ، واختيار الألوان المناسبة ؛ فالحدود والطرق بالحمرة ، والرمال بالصفرة ، والبحار بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة .

وقد ساح فى جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ، ثم بلاد فارس والسند والهند . وألف كتابه هذا بعد هذه الرحلة سنة ٣٧٥ ، فكان له الفضل الأكبر فى هذا الباب .

* * *

ولكن لعل أكبر حركة فى الشام وأعظمها فى الأدب واللغة وعلومها ، كانت فى ذلك العصر فى بلاط الأمراء الحمدانيين فى حلب ، وخاصة أيام سيف الدولة — فقد فاقت حركة الشعر واللغة والنحو وما إليه نظيرتها فى مصر ، وربما فى العراق أيضاً ؛ قال الثعالبى : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها — فى الجاهلية والإسلام — والكلام يطول فى ذكر المتقدمين منهم ؛ فأما المحدَثون نخذ إليك منهم : العَتّابى ، ومنصور النَّمَرى ، والأشجع السُّلَمى ، ومحمد بن زرعة الدمشقى ، وربيعة الرَّقِّى — على أن فى الطائيَّيْن (يعنى أبا تمام والبحترى) اللذين انتهت إليهما الرياسة فى هذه الصناعة كفاية ، وهما هما ، . . . فأما العصريون ففيما أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدم أقدامهم والسبب فى تبريز القوم قديماً وحديثاً — فى الشعر قربُهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، و بعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ؛ ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين

فصاحة البداوة ، وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حَمْدان و بنى ورقاء ، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقد ، ويثيب على الجيد منه فيجزل و يفضل ، انبعثت قرائحهم فى الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . وأخبرنى جماعة من أصحاب الصاحب ابن عَبّاد أنه كان يُعجَب بطريقتهم المثلَى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفى سن قلمه ، فطوراً يحاضر به فى مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله أو يورده كما هو فى رسائله[١] . وقد ذكر أنه تخرج فى هذه المدرسة الحلبية الحمدانية أبو بكر الخوارزمى ، والقاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى مؤلف « الوساطة بين المتنبى وخصومه » .

كانت ميزات سيف الدولة — وإن شئت فقل وعيوبه أيضاً — مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة ؛ فهو عربى من تَغْلِب يعتز بنسبه ومجد بيته ، وفيه الطباع العربية التى فى البيوتات الكبيرة ، يطمح كل الطموح لحسن الأحدوثة ، ولذلك كان يهمه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره ويسير شعرهم فى الآفاق مدحا فيه ؛ ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء ونخر ونصرة للضعيف ، ومعونة للبائس والفقير ، يرى المجد والمروءة فى الزهادة فى المال للاعتزاز بالمجد ، والإغداق على الأصدقاء والشعراء وسيلةً

---

(١) يتيمة الدهر : ١/٦ وما بعدها .

للمطمح ؛ يهمه جانب الإنفاق كيف يغدق أكثر مما يهمه جانب العدل فى تحصيل المال كيف يجمع ، ولهذا يوم مات كثر البكاء منه والبكاء عليه ، كما وصفه بعضهم — الصفتان البارزتان فيه هما مجد العرب : الشجاعة والكرم ، وهما عنصرا المروءة التى كثر تمدح العرب بها ، إلى ملكة جيدة فى تقدير الشعر وتذوقه ، والإعجاب بجيده إعجابا لا قيمة للمال بجانبه .

عرف الشعراء والأدباء والعلماء ذلك كله منه فقصدوه من كل جانب ، و بالغوا فى تحسين بضاعتهم وتجويد فنهم ، و إحسان عَرْضهم ، فنالوا منه ما تمنوا ، وكان ذلك نعمة على الفنون والعلوم ، وثروة بقيت على الزمان ، وإن ضاعت به ثروة آل حَمْدان .

فهو يصوغ دنانير خاصة للصِّلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل ، عليها اسمه وصورته ، و يعطى منها البَبَّغاء الشاعر فيقول :

نحن بجود الأمير فى حَرَمِ ... نرتع بين السعود والنِّعَم
أبدعُ من هذه الدنانر لم ... يَجْرِ قديماً فى خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته ... فى دهرنا عُوذة من العَدَمِ

فيعطيه سيف الدولة عشرة أخرى .

ولما عزم أبو إسحاق الصابى على الرحيل من حلب طُلب إليه أن يقول شيئاً فى سيف الدولة ، فقال ثلاثة أبيات ، فأعطاه كيساً مختوما بختم سيف الدولة فيه ثلثمائة دينار[١] — وجاء إليه القاضى أبو نصر محمد النيسابورى ، فطرح من كمه كيساً فارغاً ودُرْجا فيه شعر استأذنه فى إنشاده فأذن له ، فأنشد قصيدة أولها :

حَبَاؤك معتاد وأمرك نافذٌ ... وعبدك محتاج إلى ألف درهم

(١) اليتيمة : ١/١٤ .

فأمر له بألف دينار فجملت فى الـكيس الفارغ الذى كان معه[1] .

ولما أنشده المتنبى قصيدته التى يقول فيها :

يا أيها المحسن المشكورُ من جهتى والشكر من قِبَل الإحسان لا قِبَلى

أقِلْ أنِلْ أَقْطِع احمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشِّ بَشِّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وقّع سيف الدولة تحت كل كلمة من هذه ، فوقع تحت أنِلْ : نحمل إليك من الدراهم ما تحب ؛ وتحت «أقطع» : أقطعناك ضيعة كذا بباب حلب ؛ وتحت سر : قد سررناك . فقال المتنبى : إنما أردت من التسرى ، فأمر له بجارية[2] الخ .

وذاع صيته بالعطاء والجود فى سائر الأقطار الإسلامية ، فقصده الفقراء والمُعْوِزون ، فكان يُكتب إليه فى حوائج المحتاجين من العلماء ومن نكبهم الدهر بعد عزة . ووضع بديع الزمان الهمذانى مقامة من مقاماته سماها المقامة الحمدانية ، أسسها على أن سيف الدولة قد حضر مجلسه جماعة من الأدباء . وقد عُرض عليه فرس جميل ، فقال سيف الدولة للأدباء : « أيكم أحسنَ صفته جعلته صلته » ، فوصفه أبو الفتح الإسكندرى (بطل مقامات البديع) فأعطاه له ، والقصة بالضرورة خيالية ، ولكنها تمثل صورة سيف الدولة فى أذهان الأدباء .

ثم كان مجلسه مجلساً ممتازاً ؛ فقد منح ذوقا وقدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث فى المجالس ، واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس ، فأحياناً يقول البيت ويطلب من الشعراء أن يجيزوه ، فيقول مرة من يجيز هذا البيت :

لك جسمى تُعِـــلّهُ فدمى لِمْ تُحِــــلُّه ؟

---

(١) ابن خلكان : ٥٢١/١ . (٢) العكبرى : ٧٩/٢ .

فيجيزه أبو فراس :

أنا إن كنت مالكا   فَلِيَ الأمر كلُّه

وينقد المتنبى مرة فى قوله :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ   كأنك فى جَفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمة   ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ويفضل سيف الدولة أن يكون نظام البيتين هكذا :

وقفت وما فى الموت شك لواقف   ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   كأنك فى جفن الردى وهو نائم

ثم يتجادلان فى ذلك ، كلٌّ يؤيد وجهة نظره(١) .

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوماً ، هل تعرفون اسما ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فقال ابن خالويه : إنى أعرف اسمين لا أقولهما إلا بألف درهم ، لئلا يؤخذا بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى .

وكتب الأدب فيها الكثير مما دار فى مجلس سيف الدولة بين المتنبى وخصومه مما سبب رحيله .

فلا عجب أن يكون بلاطه أزهى بلاط فى عصره . يقول الخوارزمى ، حنينا لأيام قضاها فيه : « وقد رأيت فى هذه الحضرة (حضرة أبى محمد العلوى بأصبهان) أقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصفا عذب ، وعود الشباب رطب ، وذكرت بهم مآرب هنالك ، وأياما سُلبتها سلبا ، ونزعت من يدى غصبا ، ودهرا كأنى كنت أقطعه وثباً »(٢) .

---

(١) انظر اليتيمة : ١/١٣ .   (٢) رسائل الخوارزمى : ١٧١ .

فالمتنبي قال فيه أحسن شعره وأقواه وأصدقه عاطفة ، لأن سيف الدولة كريم يغدق على الشعراء كما قال الشاعر :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما لأجل العطايا ، واللُّها تفتح اللَّها

ولأن أبا الطيب وجد فى سيف الدولة إلى جانب كرمه فروسية واعتزازا بالعربية وحياة حربية ، وطموحا إلى المجد ، وكلها صفات ينزع إليها المتنبي ويراها مَثَله ؛ فكان المتنبي يتغنى بمَثَله محققاً فى سيف الدولة ، ولو لم يكن سيف الدولة لكان المتنبي شيئاً آخر . وشعره بعد أن فارقه شعر صناعة إلا ما كان من عتبه على الزمان وحديثه عن نفسه . وقد صدق إذ قال بعد أن مدح سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

وهذا أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، والذى يصغره بنحو عشرين عاما ، قد نشأ فى حضانة سيف الدولة ورعايته بعد أن قتل أبوه ، وتعلم فى ساحته وغزا معه بعض غزواته ؛ فقد قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون فى سنة ٣٣٩ ، وسنى إذ ذاك تسعة عشر عاما » . وقد أخذ أسيراً فى إحدى غزواته للروم وأرسل إلى القسطنطينية ، وبقى فيها أربع سنوات قال فيها أحسن شعره ؛ وقد أرسل أكثره إلى سيف الدولة طالباً منه أن يفديه ، عاتباً أحيانا ، شاكياً أحيانا . وإنما كان أحسن شعره لأن وقوعه فى الأسر وبعده عن وطنه أهاج شاعريته ورقق عاطفته ، فامتلأ شعره برقة الحنين ، وحلاوة الحب ، وذل الأسر :

دعوتك للجفن القريح المسهّد لدىّ وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بُخلا بالحياة وإنها لَأَولُ مبذول لأول مُجتدى
ولكننى أختار موت بنى أبى علَى سروات الخيل غير موسَّد

وآبَى وتأبى أن أموت موسداً ... بأيدى النصارى موت أكمد أكبد

* * *

فلا تقعدن عنى وقد سيم فديتى ... فلستَ عن الفعل الكريم بمُقعد

فكم لك عندى من أيادٍ وأنعم ... رفعت بها قدرى وأكثرت حُسَّدى

* * *

أقلنى أقلنى عثرة الدهر إنه ... رمانى بنَصل صائب النحر مُقصد

ولو لم تنل نفسى ولاءك لم أكن ... لأوردها فى نصره كل مورد

ولا كنت ألقى الألف زُرقا عيونها ... بسبعين ، فيها كل أشأم أنكد

* * *

وإنك لَلمولى الذى بك أقتدى ... وإنك لَلنجم الذى بك أهتدى

وأنت الذى عرّفتنى طرق العلا ... وأنت الذى أهديتنى كل مَقصد الخ

ويرثى لحال أمه فى قصيدته :

مصابى جليل والعزاء جليل ... وظنى بأن الله سوف يُزيل

ويبكى وطنه :

ومن مذهبى حب الديار وأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

الخ . . . الخ .

فإن استخرج سيف الدولة من المتنبى مديحاً رائعاً ، فقد استخرج من أبى فراس أسى رائعاً .

وكان فى بلاط سيف الدولة أبو العباس النامى ، وكان من خير الشعراء ، وكانت منزلته عند سيف الدولة تلو منزلة المتنبى ، يقول فى سيف الدولة :

إذا ما علىٌّ أمطرتك سماؤه ... رأيت العلا ، أنواؤها تتحلّب

يرجّى ويخشى ضره وهو نافع كذا البحر فى أزّانه متهيّب
يروع ويبدو الأنس منه كأنه الـــهوى لذعه بين الجوانح يَعْذُب
وأزهر يبيضُّ الندى منه فى الرضا وتحمرّ أطراف القنا حين يغضب

ثم كذلك أبو الفرج البَبّغاء أمضى شبابه وزهرة عمره فى بلاط سيف الدولة ، ثم آخر عمره فى بغداد .

كذلك كان من شعرائه الوأواء الدمشقى ، وهو شاعر مطبوع ، عذب العبارة حسن الاستعارة ، جيد التشبيه .

ومن شعره فى سيف الدولة :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحـكم بين الاثنين
أنت إذا جُدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد باكىَ العين

ومن شعرائه « الخالديان »(١) أبو بكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم ، وهما أخوان . وقد كانا قيّمين على مكتبة سيف الدولة ، قال ابن النديم : قال أبو بكر (وهو أحد الخالديين) — وقد تعجبت من كثرة حفظه وسرعة بديهته ومذاكراته — إنى أحفظ ألف سَمَر ، كل سمر فى نحو مائة ورقة . وكانا مع ذلك إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حياً أو ميتاً ، لا عجزاً منهما عن قول الشعر ، ولـكن كذا كانت طباعهما »(٢) — وقد ألفا فى اختيار شعر بشار ، وابن الرومى ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد .

كما كان من شعرائه ابن نُباتة السّعدى ، وله فيه مدائح كثيرة .

ويطول بنا القول لو عددنا كل ما كان فى بلاطه من شعراء ، وحسبنا أن نقول إن هذا الجو الذى خلقه سيف الدولة حث كل من كان عنده شاعرية

(١) النسبة إلى الخالدية بلدة بالموصل . (٢) فهرست ابن النديم : ١٦٩ .

على قول الشعر والإجادة فيه ؛ فقيِّما المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين ، و بائع البطيخ وهو الوأواء الدمشقى صار شاعراً كبيراً ، وكشاجم (وهى كلمة مركبة من الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجّم) قالوا إنه كان طباخ سيف الدولة ، ومع هذا كان شاعراً ظريفاً ، له ديوان ، وله كتاب «أدب النديم» ، و «خصائص الطرب» ، و «المصايد والمطارد» .

ثم كان من أشهر خطباء سيف الدولة ابن نُبَاتة الفارقى صاحب الخطب المشهورة — وهو غير ابن نباتة السعدى الذى تقدم ذكره — وامتلأت خطبه بالدعوة إلى الجهاد ليحث الناس على نصرة سيف الدولة فى غزواته للروم .

* * *

ثم كان فى بلاطه من يعدّ من أشهر اللغويين والنحويين فى زمانه ، أبو على الفارسى ، وابن خالويه ، وابن جنى ؛ فأما أبو على الفارسى فكان أكبر نحوى عالم بالعربية فى زمنه ، عاش فى حلب مدة وفى العراق مدة ، و يعد هو وتلميذه ابن جنى مؤسسى مدرسة فى النحو والصرف تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا تقف عند النص ، فالفرق بينها و بين غيرها كالفرق بين الحنفية فى اعتمادهم الكبير على القياس ، والمالكية فى الاعتماد على الحديث .

لقد رحل أبو على إلى حلب سنة ٣٤١ ، ونزل فى ساحة سيف الدولة وشارك فى اجتماعاته الأدبية ، وكان بينه و بين المتنبى مناظرات فى مسائل نحوية ولغوية .

وابن جنى تلميذ أبى على الفارسى ، وموسّع مبادئه النحوية والصرفية ؛ و إذا عبرنا فى النحو والصرف تعبيرنا فى الفقه ، قلنا إنه مجتهد فيهما له آراء مبتكرة واتجاهات انفرد بها[١] .

---

(١) انظر ما كتب عنه فى هذا الجزء قبل .

وقد توثقت الصلة بين ابن جنى والمتنبى فى بلاط سيف الدولة ، فكان يناظره فيما يرد فى شعره (المتنبى) مما يشبه أن يكون خروجا على النحو أو اللغة ، حتى قال فيه المتنبى : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » . وقد شرح ديوان المتنبى شرحا استفاد منه كل من شرح الديوان بعده ، لاتصاله بالمتنبى ومعرفته بظروف شعره التى كثيراً ما تحدد المعنى ، وتمنع التأويلات .

وابن خالويه من أكبر الأئمة فى زمنه فى اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن . وقد دخل حلب فى أيام سيف الدولة ، وكان إمام مجلسه . وله مع المتنبى مناظرات كانت فى بعضها حادة ، ولم تكن العلاقة بينهما حسنة ؛ فالمتنبى لم يقدر علمه التقدير الجليل ، وابن خالويه لم يقدر شعره التقدير الواجب ، ثم كانا يتحاسدان ويتغايران على قرب المنزلة من سيف الدولة ، فكان فى القصر حزبان : حزب للمتنبى منه ابن جنى النحوى وأبو الفرج الببغاء الشاعر ، وحزب عليه منه ابن خالويه اللغوى وأبو فراس الشاعر .

* * *

ثم كان فى بلاط سيف الدولة الفيلسوف الكبير الفارابى ، درس فى بغداد ؛ ثم جذبته شهرة بلاط سيف الدولة فى حلب ، فرحل إليه وأقام فى كنفه لا يأخذ منه من المال إلا ما يسد رمقه (أربعة دراهم فى اليوم) ، ويعيش عيشة التصوف ، ويعلّم طلابه فى الحدائق التى حول حلب ، ويكتب كتبه فى المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى — وقد بقى فى الشام إلى أن مات سنة ٣٣٩ .

وكان حوله أطباء يعنون بالطب وبالفلسفة ، إذ كان الطب فرعا من فروعها . ويذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون

طبيباً منهم عيسى الرَّقِّى . وكان سيف الدولة يعطى عطاء لكل عمل ، وكان عيسى الرقى يأخذ أربعة أرزاق ، رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب ترجمة الكتب من السريانى إلى العربى ، ورزقين بسبب علمين آخرين[١] .

* * *

هذا بلاط سيف الدولة يزخر بالشعر والمناظرات اللغوية والنحوية ، ويزينه الفارابى بفلسفته ، ويشعّ هذا النتاج فى المملكة الإسلامية كلها وخاصة الشام .

ومنه يستنشق أبو العلاء المعرى أول عهده بالدراسة ؛ فقد ولد بالمعرة سنة ٣٦٣ وهى بلدة تابعة لحلب . ولئن كان سيف الدولة قد مات قبل ولادة أبى العلاء بثمان سنين ، فإن الحركة العلمية والأدبية بها لم تكن ماتت ، فشعر الشعراء يُروى ، وتلاميذ ابن خالويه وابن جنى يروون علمهما باللغة والأدب والنحو والصرف ، وتلاميذ الفارابى يروون فلسفته . فلما انتقل أبو العلاء من المعرة إلى حلب للدرس وجد كل ذلك مهيأ فاستفاد منه ؛ وجد الناس يروون شعر أبى الطيب ويعجبون به فسمع منهم ، وسمع محمد بن عبد الله بن سعد النحوى راوية أبى الطيب ، وسمع من تلاميذ ابن خالويه ، فيقول فى بعض رسائله « حدثنى أبو القاسم المبارك عن ابن خالويه » ؛ ولا بد أن يكون لقى بعض تلاميذ الفارابى وأخذ عنهم . وقد أقام أبو العلاء فى حلب نحو عشر سنوات ينهل من موارد العلم ؛ فحركة الأدب واللغة والفلسفة التى أحياها سيف الدولة لها فضل على أبى العلاء وغيره من العلماء والأدباء .

* * *

---

(١) طبقات الأطباء : ١٤٠/٢ .

ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام ، والحق أنها أتت بحركة علمية عظيمة نشيطة . وقدّمت العلم والأدب والفن فى مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان فى العهد الطولونى والإخشيدى ، و يصح أن تقارن وتساوَى بما كان فى العراق وخاصة العلوم العقلية والفلسفية فإنها نبغت فيها . و يرجع ذلك إلى أمور :

أولها : أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتى بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين كذلك ، كالأذان بحى على خير العمل ، والاحتفاء بعاشوراء وعيد الغدير ؛ فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد من جهة والتفنيد من جهة ، فهبّ علماء من مصر يفندون هذه الآراء ، وكان العراقيون أجرأ لأنهم غير خاضعين لسلطانهم كالمصريين والشاميين . ولجأ الخليفة العباسى إلى العلماء يستحثهم على القول بفساد النسب الباطنى ، كما لجأ إلى الغزالى يستدعيه لتأليف كتاب « فضائح الباطنية » ؛ وهكذا كل هـذه العقول تتحرك وتجتهد وتؤلف وتجادل وتناضل ، فكان من هذا النشاطُ العقلى الكبير ، واستتبع ذلك نشاط الفاطميين فى إيجاد المكاتب ومجالس الدعاة فى القصر والمساجد و بيوت العظماء ، وتأليف الكتب ، وتنظيم الدعوة وغير ذلك .

وكان أن التجأ الفاطميون إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية ، و يستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو ، وسائر حكماء اليونان ، كما فعلت الأديان الأخرى عند اشتداد الجدل ، كالنصارى واليهود عند افتراقهم فرقا ، وكما فعل المعتزلة عند جدالهم مع اليهود والنصارى ، وهذا سبب من أسباب تشجيع الفاطميين للفلسفة .

ثم كان أن رأينا عهد الفاطميين فى مصر والشام مصحوباً بتسامح شديد مع اليهود والنصارى ، واستخدامهم فى أدق شؤون الدولة وتسلطهم على كثير من أمورها ؛ ولعل أس دعوتهم كان توحيد العالم الإسلامى تحت سلطانهم من غير مراعاة عصبية دينية ولا جنسية ، فكانوا يخاطبون كل قوم بما يقربهم إلى الدعوة ، وكان من ذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى واستخدامهم ، وإطلاق الحرية لهم إلا إذا أحسوا ثورة من الشعب لهذا التسامح فيتراجعون ، كل هذا لأن أغراضهم السياسية والاجتماعية كانت أقوى من أغراضهم الدينية . فيعقوب بن كِلِّس يهودى الأصل ماهر ماكر مثقف ثقافة واسعة ، حسن التدبير واسع الحيلة ، باذل للمال ، راغب فى الجاه ، لمع اسمه فى العهد الإخشيدى ، وأسلم وتعلم القرآن والحديث والأدب العربى ، وسافر إلى المغرب واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله ، وبذل له علمه عن مصر ، وأعانه بآرائه فى وسائل فتحها ، ورجع بصحبة الجيش الفاتح ، وخدم المعز وارتقى حتى كان وزيراً للعزيز بن المعز ، وهو الذى وضع قواعد الدولة ونظمها ؛ وكان له إلى هذا الجانب السياسى الإدارى جانب علمى ، فشجع العلماء ، ورتب المجالس ، وبذل العطاء لكل فروع العلم ، وربط بين العلم والتشيع ، وبين التشيع والفلسفة ، وله مجالس لعامة العلماء ، ومجالس لخاصة من العلماء ، وهؤلاء هم الذين يفلسفون هذه الأمور ؛ ووضع كتابا فى فقه الشيعة يقول إنه مما سمعه من المعز والعزيز ، كان يقرؤه فى المسجد ، ويقرؤه العلماء ويفتون منه ؛ وكاد يكون كل شىء فى الدولة ، يوجه سياستها وإدارتها . ولما مات صلى عليه العزيز بنفسه ، وألحده بيده ، وأمر بغلق الدواوين أياما بعده[1] .

فيظهر لى أنه كان له دخل كبير فى تأسيس الحركة العلمية على هذا النمط وإدماج

---

(١) انظر ابن خلكان : ٢/٤٩٥ .

الفلسفة فيها وتوجيهها الجهة التى توجهتها ، وتشجيعه اليهود والنصارى على الاشتغال العلمى والمشاركة فى الإدارة ، وفلسفة الدعوة .

وكانت زوجة «العزيز» نصرانية على مذهب الملكية ، وكان لها أخوان أحدهما اسمه « أرميس » صيره بطركا على بيت المقدس ، والآخر « أرسانيس » صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته[1] .

وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز فى تسامحه مع النصارى والسماح بإعادة بعض الكنائس .

وقد ولدت هذه الزوجة النصرانية من العزيز بنتاً هى المسماة بست الملك ، وكانت — كما يصفها النويرى — قوية العزم بصيرة بالأمور — وكان لها أثر كبير فى أبيها ، وفى توجيهه نحو سياسة التسامح مع النصارى ، كما كانت فى عهد أخيها الحاكم بأمر الله ذات أثر فعال فيما وقع من أحداث .

وقد سمح العزيز هذا لبطريرك الأشمونين أن يناظر رجال الدين مثل القاضى ابن النعمان فى العقائد الدينية .

وفى السنتين الأخيرتين لحكم العزيز تولى الوزارة بعد يعقوب بن كلس عيسى بن نسطورس النصرانى .

ثم مما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأى فى أن للدين ظاهراً وباطناً ومعنى صريحاً ومعنى مؤولا ، فهذا يترك للخيال المجال ، ويجعل الفكر يسبح فى الفلسفة يأخذ منها ويلصقها بالدين ، كما نرى ذلك بوضوح فى رسائل إخوان الصفا وهم شيعيون باطنيون — ولذلك كانت الفلسفة ألصق بالتشيع منها بالتسنن — نرى ذلك فى العهد الفاطمى ، والعهد البويهى ؛ وحتى

---

(١) المكين ابن العميد .

فى العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الأقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها . ولما جاء جمال الدين الأفغانى مصر فى عصرنا الحديث — وكان فيه نزعة تشيع ، وقد تعلم الفلسفة الإسلامية بهذه الأقطار الفارسية — كان هو الذى نشر هذه الحركة فى مصر .

ثم إن المقريزى يقول : كان الفاطميون يتدرجون فى دعوتهم ؛ فإذا تمكن المدعو من التعاليم الأولى « أحالوه على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية ؛ حتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه ، وقال إن ما ذكر من الحدوث والأصول رموز إلى معانى المبادئ ، وتقلب الجواهر . وإن الوحى إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه ما يُلقَى إليه ويتنزل عليه فيبرزه إلى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته بحسب ما يراه من المصلحة فى سياسة الكافة ، ولا يجب حينئذ العمل بها إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء . . . ثم قال : ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . . . ثم يقول إن لهم فى هذا مصنفات كثيرة اختصرت منها ما تقدم ذكره »[1] .

ويروى صاحب الفرق بين الفرق ، أن عبيد الله بن الحسن القيروانى أحد زعماء الإسماعيلية ، كتب إلى أحد دعاة المذهب : سليمان بن الحسن أبى سعيد الجنابى يقول : « وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا » ، ويقول الشهرستانى : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج » ، ويفيض فى بيان ذلك . ويقول دوزى : «إن

(١) خطط المقريزى ١/٣٩٥ .

ابن ميمون (وهو واضع الأساس للتعاليم الباطنية والإسماعيلية) لم يكن يبحث فى أنصاره المخلصين بين الشيعة الخلّص ، إنما كان يبحث عنهم بين الثنوية والوثنيين ، وتلاميذ الفلسفة اليونانية ، وخاصة الأخيرين ، فإليهم وحدهم أفضى بسره ، وكنه عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وهزؤاً ، وأن العامة ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ، إلا أنه كان يستعين بهم ، ولا يصدمهم . وكان دعاته يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التى يفهمونها » .

والواجب ألا يلصق هـذا بكل الشيعة ، ولا كل الفاطمية ، ولا كل قواد الحركة ، وإنما يصح أن يلصق بفئة من زعمائهم استغلت التشيع لأغراض فى أنفسهم — وعلى كل حال كان هـذا سببا آخر لاشتغال الخاصة بالفلسفة وتعليل انتشارها فى العهد الفاطمى مع ضعف الاشتغال بها قبلهم فى العهد الطولونى والإخشيدى ، وبَعْدهم فى العهد الأيوبى .

☆ ☆ ☆

ثم كثرة المال فى العهد الفاطمى ؛ وميل الخلفاء إلى الإمعان فى الترف والنعيم ، شجعت الفنون على الرقىّ ، فما خلفه الفاطميون من صناعة راقية ، وفن دقيق ، قل أن يبارى .

على كل حال نشطت الحركة العقلية فى العصر الفاطمى فى مصر والشام نشاطا كبيراً ، وكان أهم الحركات الحركة الدينية ، إذ أراد الفاطميون تشييع المصريين والشاميين ، وكان هؤلاء يريدون أن يتمسكوا بالسنية فجد الفاطميون فى دعوتهم جداً كبيراً .

لقد حرص المصريون أول الأمر على البقاء على سنيتهم ، واشترطوا عند المفاوضة فى تسليم القطر المصرى هذا الشرط ، وكتب لهم جوهر بأمر المعز كتابا

يتضمن التزام حرية العقيدة ، فلا يجبرون على التشيع . وجاء فيه : « ثم إنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، — فلم يكن لذكرها معنى ، ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة — وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تُترَكوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ، رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد ، على ما أمر الله فى كتابه ، ونَصَّه نبيه فى سننه » الخ[١] .

ولكن لما دخل الجيش وتمكن من مصر ، وانتقل المعز إلى القاهرة ، لم يعمل بهذا العهد ، وجدَّ الفاطميون فى تشييع المصريين ، فزيد فى خطبة الجمعة : « اللهم صل على محمد النبى المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين »[٢] .

« وفى يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر الجمعة فى جامع ابن طولون ، وأذن المؤذنون ، حى على خير العمل ، وهو أول ما أذن به فى مصر »[٣] .

« ولما وصل المعز إلى القصر خر ساجداً ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل معه (وكان ذلك سنة ٣٦٢) . وفى غد هذا اليوم خرج

(١) اتعاظ الحنفاء : ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٧ . (٣) ص ٧٩ .

جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود ووجوه أهل البلد وسائر الرعية ، لتهنئة المعز . . وأمر المعز بالكتاب على المشايخ فى سائر مدينة مصر : خير الناس بعد رسول الله (ص) أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام »[١] .

« ولثمان عشرة من ذى الحجة من هذه السنة وهو يوم « غدير خُم »[٢] تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة للدعاء ، فأعجب المعز ذلك ، وكان هذا أول ما عمل عيد الغدير بمصر »[٣] .

ثم اتخذوا يوم عاشوراء يوم بكاء على الحسين ، وكانوا يجتمعون عند قبر كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق ، وقبر نفيسة .

وضربت الدنانير فى أيام المعز ، وعلى أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . علىّ أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين » .

وفى أيام العزيز أبطل سنة ٣٦٣ صلاة التراويح من جميع مساجد مصر .

وكانت تحدث فتن ومصادمات بين المصريين السنيين والشيعة فى المناسبات المختلفة .

فقد روى أنهم قطعوا لسان من احتج على منع صلاة التراويح . وفى

---

(١) ص ٩٠ .

(٢) غدير خم ، موضع على ثلاثة أميال من الجحفة ، وهو مجتمع ماء تصب فيه عين وحوله شجر كثير . وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة عن البراء بن عازب قال : « كنا مع رسول الله فى سفر لنا بغدير خم ، ونودى الصلاة جامعة فصلى الظهر ، وأخذ بيد على بن أبى طالب ، فقال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى ، فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، وأول من اتخذه عيداً معز الدولة البويهى سنة ٣٥٢ ، ثم فى مصر سنة ٣٦٢ .

(٣) ص ٩٤ .　　(٤) ٧٦ .

سنة ٣٨١ ضرب رجل من أهل مصر ، وطيف به فى المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس[١] .

وفى سنة ٣٩٣ عوقب رجل بدمشق وطيف به فى المدينة ، ونادوا عليه « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر »[٢] .

ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة ، بل كانت قلقة مضطربة كاضطراب سياسة الفاطميين ، فأحياناً يبالغون فى اضطهاد أهل السنة ، وأحيانا يسمحون لهم بحريتهم ، كما كانوا أحيانا يصطهدون اليهود والنصارى إلى أقصى حد ، وأحياناً يبالغون فى إكرامهم إلى أقصى حد .

وقد رتب الفاطميون الدعوة ، وقووها وأحكموها ، وجعلوا عليها رئيساً سموه « داعى الدعاة » ، ومنزلته تلى قاضى القضاة ، ويتزيا بزيه ، واشترطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، وتحته اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد ؛ ويحضَّر ما يقال فى الدعوة ويقره داعى الدعاة ثم يقره الخليفة ، ويتلى ما يحضّر يوم الاثنين والخميس على الرجال فى مكان ، وعلى النساء فى مكان — وهناك مجالس للعامة ، ومجالس للخاصة ، وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة[٣] .

واتخذت المساجد الكبيرة مركزاً لهذه الدعاية كمسجد عمرو فى الفسطاط ، ومسجد ابن طولون ، والأزهر ، والمساجد الكبرى فى البلدان .

وبجانب هذه الدعوات الظاهرة دعوات سرية لا تقال إلا لخاصة المخلصين ، يقول الخليفة لداعى الدعاة فى كتاب له : « واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك

---

(١) خطط المقريزى : ٢/٣٤١ . (٢) النجوم الزاهرة : ٢/٩١ .

(٣) انظر خطط المقريزى : ١/٣٩١ .

فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقلّ أفهامهم بتقبله » ، ويقول : « ولا تُلْقِ الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تُكْدِى على الزارع ، وتوخّ لغرسك أجل المغارس » الخ[1] .

وجاء قوم من العلماء المغاربة فى ركب المعز ، وهم ماهرون فى الدعوة ، واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت — لعل من أشهرهم النعمان بن محمد بن حَيُّون الذى تولى القضاء فى مصر على مذهب أهل البيت هو وأولاده وأسرته عهداً طويلا فى الحكم الفاطمى ؛ وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة وبالتأليف فى المذهب الشيعى . وكان النعمان هذا مالكى المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية ، وألف فيه تصانيف كثيرة ، قال ابن زولاق : إنه ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وكان فى غاية الفضل ، من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالماً بوجوه الفقه ، وعلم اختلاف الفقهاء ، واللغة والشعر والمعرفة بأيام الناس ، مع عقل وإنصاف ، وله ردود على المخالفين له ، رد على أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن سريج[2] ؛ ثم ابنه محمد ابن النعمان قاضى المعز والعزيز ، وكان واسع العلم فى الفقه والتاريخ والنجوم ، يقضى بين الناس ، ويقرأ فى القصر علوم آل البيت ، ويزدحم الناس على سماعه حتى يموت بعضهم من الزحام ؛ كما كان من أشهرهم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، كان من أعلم الناس بفقه الإمامية . قال ابن كثير : إنه ألف فى العقائد الشيعية

---

(١) صبح الأعشى : ٤٣٦/١٠ .   (٢) وفيات الأعيان : ٢٤٦/٢ .

الكتاب المسمى البلاغ الأكبر والناموس الأعظم . وقد رد على هذا الكتاب أبو بكر بن الباقلانى .

كان فى مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وكانوا لا يرون التشيع ، فكانوا يستنكرون تعاليمهم ، ولكن فى تحفظ لأن الدولة للتشيع .

ولهذا نرى قلة الفقهاء المالكية والشافعية والحنفية فى مصر والشام فى هذا العصر ، وخاصة فى أول عهد الفاطميين أيام قوتهم — ومع هذا نرى أمثال أبى بكر محمد النِّعالى المالكى إمام المالكيين فى عهده ، كانت حلقته فى جامع الفسطاط تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها ، توفى سنة ٣٨٠ . ولا بد أن يكون ذلك فى فترة فترت فيها حدة التشيع .

ولكن على كل حال أنتجت هذه الحركة حياة فكرية نشيطة . وكما ذكرنا كانت الحركة الفلسفية تشايع التشيع ، فامتزجت الفلسفة بالدعوة الشيعية .

واستتبعت الدعوة للتشيع تنظيم وسائل الدعاية من إنشاء المساجد ودور الكتب .

فالمساجد كانت لهذا العهد هى المدارس وهى المحاريب ، وهى أمكنة العبادة ، وهى مكان الخطب السياسية فيما يجدّ من الأحداث ، فكانت تقوم بوظائف اجتماعية أكثر جداً مما تقوم به الآن .

فلما كان المسجدان الكبيران فى مصر ، مسجد الفسطاط ومسجد ابن طولون ، وكانا مركزى التعليم السنى من قِبَل الفاطميين ، دعا الأمر عند إنشاء القاهرة إلى إنشاء مساجد تقام فيها الصلوات ، وتنشر منها الدعوة الشيعية بجانب تلوين مسجدى مصر بالتشيع أيضاً ، وتكُونُ أيضاً مركزاً لنشر المبادئ

السياسية والاجتماعية التى يراد نشرها ، فأسس الأزهر لهـذا الغرض ، بناه جوهر قائد المعز ، وأقيمت فيه أول جمعة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ ، وكان الخليفة الفاطمى يخطب فيه بنفسه كل جمعة إلى أن أنشأ الحاكم جامعه سنة ٣٨٠ ، فوزعت الخطبة على المساجد الأربعة ؛ وكان الخليفة يخطب فى الجامع الحاكمى خطبة ، وفى الأزهر خطبة ، وفى جامع ابن طولون خطبة ، وفى جامع عمرو بن العاص خطبة ، محفوفا بالوزير والقاضى وداعى الدعاة .

واتخذ الأزهر كغيره مدرسة لدراسة المذهب الشيعى ، قال المقريزى : « إن أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، فإنه فى شهر صفر سنة ٣٦٥ جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر « بالاقتصار » وكان جمعاً عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » — وألف يعقوب بن كلس الوزير السابق الذكر كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز ، وهو مبوّب على أبواب الفقه يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ، وكان له مجلس فى يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل ، وكان يجلس أيضاً فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وأجرى العزيز بالله الأرزاق لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ، وأمر العزيز أيضاً لهؤلاء الفقهاء ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر ؛ فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر ، وكان عدتهم خمسة وثلاثين رجلا .

وبقى الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى الحاكم جامعه ، فتحلّق فيـه الفقهاء الذين يتحلقون فى الجامع الأزهر .

ووقف الحاكم الأوقاف على الأزهر ، وعلى جامع راشـدة ، وجامع

المقس ، وعلى دار الحكمة ، من عقار وكتب .

ثم عنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة ، فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية خزانة الكتب . وقد نقل المقريزى عن المسبِّحى مؤرخ الدولة الفاطمية ، والذى عاش فى كنفها ، أنه كان بخزانة العزيز نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، وما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد — ثم قال : إنه كان فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة (يعنى الفلسفة والطب والإلهيات وما إليها) ، هذا إلى العناية بالناحية الأثرية من اقتناء الكتب بخطوط المؤلفين ، وما عنى فيها بحسن الخط والتجليد . وينقل المقريزى أيضاً عن ابن الطوير أن كل خزانة تحتوى على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ، فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسير الملوك ، والنجامة والروحانية والكيمياء — من كل صنف النسخ — ومنها النواقص التى ما تممت — كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة[١] .

وقد ذكر المقريزى أيضاً أنه دخل هذه المكتبة (مكتبة الفاطميين) أحد السياح ، فرأى فيها مقطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها ، وجميعُ المواطن المقدسة مبينة للناظر ، مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب ، وغيرها بالفضة والحرير .

---

(١) خطط المقريزى : ١/٤٠٨ وما بعدها .

ثم أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ . وقد اختار هذا الاسم رمزاً إلى الدعوة الشيعية ، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة[١] .

وكانت تسمى هذه الدار أيضاً دار العلم ، وصفها المسبّحى فقال : « فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها الفقهاء ، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها . ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها الستور ، وأقيم قوّام وخدام وفراشون وغيرهم وُسموا بخدمتها . وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . . . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم . وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . . . وفى سنة ٤٠٣ أحضر (الحاكم) جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ؛ ثم خلع على الجمع وصرفهم . . . ووقف الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر عليها . وقد استمرت على هذا الوضع إلى سنة ٥١٦ ، حيث كثرت فيها المناقشات الدينية التى سببت فتناً ، فأغلقت ثم أعيد فتحها[٢] .

---

(١) الخطط : ١/٣٩١ .

(٢) الخطط : ١/٤٥٨ .

فهى بهـذا الوصف مكتبة قيمة ، ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة . وقاعة مناظرات .

☆ ☆ ☆

كان بجانب الحركة الدينية من سنية وشيعة حركات أخرى مدنية ، من ذلك حركة تاريخية ؛ فقد نبغ من مؤرخى هذا العصر الشابُشْتِى وهو أبو الحسن على بن محمد ، وكان فى عهد العزيز بن المعز ، وكان نديمه وجليسه ، والقيّم على خزانة كتبه ، اشتهر بكتابه الديارات ، ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة ومصر وجميع الأشعار التى قيلت فى كل دير وما جرى فيه ، وكان من حسن الحظ بقاء هذا الكتاب إلى عصرنا هذا مخطوطاً ينتظر من ينشره ، توفى سنة ٣٨٨ .

كما نبغ من المؤرخين فى العصر الفاطمى « المسبِّحى » ، وهو عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الحرانى الأصل المصرى المولد ، وكان من أقطاب مصر فى العلم والسياسة والإدارة ؛ تولى للحاكم بأمر الله بعض ولايات الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب ، وعنى بتاريخ مصر ، وألف فيها تاريخه الكبير ، قال هو فيه : « إنه التاريخ الجليل قدره ، الذى يُستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعدّلين (الشهود) ، والأدباء والمتغزلين وغيرهم ، وهو ثلاثة عشر ألف ورقة »[1] . فكان ينظر إلى التاريخ نظرة اجتماعية . ومن الأسف

(١) ابن خلكان : ٧٣٦/١ .

أن لم يصلنا من هذا الكتاب لا قطعة مخطوطة ، وفقد مع ما فقد من آثار الفاطميين الجليلة . ويدلنا ما نقله المقريزى والنجوم الزاهرة عن هذا الكتاب أنه جليل القدر ، دقيق النظر ، مفيض فى الوصف ، جميل التعبير .

وله كتب أخرى كثيرة ، منها : كتاب درك البغية فى وصف الأديان والعبادات ٣٥٠٠ ورقة ، وكتاب الأمثلة للدول المقبلة (يتعلق بالنجوم والحساب) فى ٥٠٠ ورقة .

إلى كثير من الكتب الأدبية فى النوادر والغزل ، والأغانى ومعانيها وغير ذلك ، عاش المسبحى من (٣٦٦ — ٤٢٠) .

ثم القُضَاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة تولى القضاء بمصر ؛ وقد اشتهر بوضعه كتابا فى خطط مصر سماه المختار فى ذكر الخطط والآثار ، كان عونا للمقريزى على خططه ؛ وقد أوفده المستنصر الخليفة الفاطمى إلى تيودورا إمبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧ ليتحدث فى الصلح بينهما ؛ وقد مات سنة ٤٥٤ .

ثم كانت حركة أخرى طبية فلسفية رياضية علمية ، اشتهر فيها محمد بن أحمد ابن سعيد التميمى ؛ أصله من بيت المقدس ، ودخل مصر فى العهد الفاطمى واشتهر بالطب وخاصة فى خواص العقاقير وتركيب الأدوية ؛ وصحب يعقوب بن كلس والخليفة العزيز ، وصنف له كتابا كبيراً فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » ، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أرض المغرب فى صحبة المعز عند قدومه ، والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان منصفاً فى مذاكرته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة . وكان التميمى هذا موجوداً بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ (١) .

---

(١) القفطى ص ١٠٦ .

ثم أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر كان نصرانيا ، وكان طبيب الحاكم بأمر الله ، ومن الخواص عنده ، وكان متقدما فى الدولة ، وتوفى فى أيام الحاكم ، فاستطب بعده إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس[1] .

وعلى بن سليمان ، وكان طبيباً للعزيز بالله وولده الحاكم ؛ وقد نقل بعض الكتب فى الطب لأبقراط وجالينوس ، ، كما ألف فيما بعد الطبيعة .

وأبو على بن الهيثم وأصله من البصرة ، ثم انتقل إلى مصر فى أيام الحاكم بأمر الله وأقام بها إلى آخر عمره . برع فى الرياضيات والطبيعيات ، وله مشاركة فى الطب . وقد أتى مصر باستدعاء الحاكم لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل ، ولكنه لما حضر وسافر إلى الشلال وخبر النيل هناك ودرسه أدرك خطأ نظريته ، واعتذر للحاكم . ولكنه كان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات ، وكان لا يهمه المال والجاه بجانب ما يهمه العلم والوقوف على الحقيقة ، قال فى كتبه : « إنى لم أزل منذ عهد الصبا مُرَوِّيا فى اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا فى جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتون » الخ .

وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس فى الشرق والغرب ، وخاصة كتاب « المناظر » — وما زال يؤلف ويلخص ويشرح فى حركة دائبة مستمرة ، وفى كل مرحلة من عمره يقيد أسماء ما ألف ،

---

(١) طبقات الأطباء : ٢/٨٩ .

ويقول : « وإن أطال الله لى فى مدة الحياة ، وفسح فى العمر ، صنفت وشرحت ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى ، ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى الوجود فكرى » . وظل وفياً لهذا العهد حتى مات حول سنة ٤٣٠ بعد ما ملأ الدنيا تآليف فى الهندسة والحساب والفلك والمساحة ، ومنطق أرسطو ، وكتابه فى الشعر والنفس ، وفى الطب ، وفى البصر ، ووقوع الإبصار به ، والضوء ، والبصريات ، والمرايا المحرقة الخ ، يعكف على عمله هذا فى قبة على باب الجامع الأزهر[1] .

وكان للمبشِّر بن فاتك ، وهو أمير من أمراء مصر فى العهد الفاطمى ، ولع بالعلوم الفلسفية يقتنى كثيراً من كتبها ، ويتبحر فيها ؛ ويستفيد ابن الهيثم من علمه فى الهيئة والرياضة .

واشتهر من هذه الطائفة على بن رضوان رئيس أطباء الحاكم ، وهو مصرى الأصل من الجيزة ، وكان أبوه فرانا ، ولاقى فى تعلمه أهوالا حتى برع فى الطب ، وصار له الذكر والسمعة العظيمة ، والثراء الواسع — وقد قامت بسببه حركة فكرية نافعة تحركت بها الأفكار فى مصر وبغداد ؛ إذ دخل ابن رضوان المصرى فى مناظرة حادة مع ابن بطلان الطبيب النصرانى البغدادى ، وتبودلت بينهما الرسائل ، « ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا ، ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه » — وكان ابن رضوان طويل اللسان يكثر التشنيع على من يخالفه ، وتعدت المناظرة من المسائل العلمية إلى التعيير بقبح الشكل . وكان ابن رضوان قبيح الشكل ، فتناظرا أيضاً فى أيهما خير أن يكون الطبيب جميلا أوْ لا . ولما طالت المناظرات سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره ، وأقام بها ثلاث

---

(١) انظر طبقات الأطباء : ٩٠/٢ وما بعدها .

سنين ، واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة في المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب ألفاظا ، وأكثر ظرفا ، وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها — وقد ألف ابن رضوان كتباً كثيرة في الطب والفلسفة .

* * *

وكانت في مصر أيضاً حركة في النحو ، من أشهر رجالها أبو بكر الأدفوى تلميذ أبي جعفر النحاس الذي تقدم ذكره ، برع في علوم القرآن والنحو ؛ له كتاب في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلداً مات سنة ٣٨٨ .

ثم ابن بابشاذ أحد أئمة النحو والأعلام في فنون العربية وفصاحة اللسان . ورد العراق تاجراً في اللؤلؤ ، وأخذ عن علمائها ورجع مصر ، واستخدم في ديوان الإنشاء والرسائل مراجعاً يراجع ما يخرج من الديوان من الإنشاء ، ويصلح ما يراه من الخطأ في الهجاء والنحو واللغة ، ثم تزهد . وقد ألف شرحا على كتاب الجُمل للزجاجي ، والمحتسب في النحو ، وتعليق في النحو يقارب خمسة عشر مجلداً . مات سنة ٤٦٩ .

* * *

ثم كانت الحركة الأدبية . وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصرى قيم من عهد فتح العرب لمصر ؛ إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج ، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية ، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ، ويرجع ذلك إلى أمور :

(الأول) : أن العصر الأول لفتح مصر كان عصر دهشة أعقبت الفتح

فلما استقرت الأمور وبدأ الشعر ينهض ، تولى الحكم أتراك من مثل الطولونيين والإخشيديين ، وليس لهم من الذوق العربى الراقى ما يستسيغون به الشعر ؛ والشعر العربى بطبيعة موضوعاته التى كانت من مديح ونحوه لم يكن يزهر إلا على باب قصور الخلفاء والأمراء ، فإن تذوقوه وشجعوه نما وازدهر ، وإلا ضعف وانحدر ؛ فلما جاء الفاطميون وهم عرب لهم الذوق العربى ، والثقافة العربية ، وخاصة فى أول عهدهم ، إذ كان فيهم أيضاً الذوق البدوى ، نما الشعر على بابهم ، ولما جاءوا مصر جاءوا بذوقهم وشعرائهم ، وتتابعت الموجات .

(والثانى) : أن الدولة الفاطمية كان أساسها الدعوة والدعاية بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة ، حتى قلّ أن نرى لها مثيلا فى تنظيم دعوتها سراً وجهراً ، والدقة فى اختيار الأساليب المختلفة التى تناسب العامة والخاصة ، والجاهل والعالم ، والمتدين والملحد ، والغبى والفيلسوف ؛ فرأت بصائب نظرها أن الشعراء من أصلح الدعاة لمذهبهم ، إذ هم يقومون فى زمنهم مقام الجرائد السيارة فى عصرنا ، فاحتضن الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم وأمراؤهم الشعراء ينفحونهم بالمال الكثير ، والعطاء الوفير ، ليطلقوا ألسنتهم بالقول فى مدحهم ومدح مذهبهم . وقد وضع ابن هانئ الأندلسى أول خطة لذلك وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة ، فمدحه بغرر المدائح وعيون الشعر ، وبالغ المعز فى الإنعام عليه ، ولم يكن هناك ممدوح أعز شاعره كما أعز المعز ابن هانئ ؛ فلما أنشده بالقيروان قصيدته التى أولها :

هـل من أعِقَّة عالجٍ يَبْرينُ ... أم منهما بقرُ الحدوجِ العِينُ

أمر له بدست قيمتـه ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! ما لى موضع يسع الدست إذا بسط . فأمر له ببناء قصر غرم عليه ستة آلاف دينار ،

وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ولما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً ؛ وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك »(١) .

وقد أسس ابن هانئ فى شعره عقائد الإسماعيلية ، وصاغها صياغة شعرية ، وعلّم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم ، كما يمدحونهم من ناحية خلائقهم ؛ فيقول مثلا :

أنت الوَرَى فاعْمُر حياة الورى ... باسم من الدعوة مشتقِّ(٢)

ويقول :

قد كان يُنذر بالوعيد لطول ما ... أصْغَى إليك ويَعْلَمَ التأويلا(٣)

أهل النبوة والرسالةِ والهُدى ... فى البينات وسادةٌ أطهار

والوحى والتأويل والتحليل والتحـريم ... لا خلف ولا إنكار

ويقول :

ماذا تريد من الكتاب نواصبٌ ... وله ظهور دونها وبطون

وهو بذلك يؤكد عقيدة الشيعة فى أن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون من قبله ، إماماً بعد إمام إلى آخر الأئمة المعصومين ، يعلّم الماضى منهم من يأتى بعده ، وسائر الناس يستفيدون علم التأويل منهم بقدر استعدادهم .

(١) ابن خلكان فى ترجمة ابن هانئ .

(٢) أى أنت الناس فاعمر أعمارهم مجموعة ، وأنت داع إلى الله يدعوهم إلى سبيل الهداية فيؤسس بذلك نظرية الدعوة .

(٣) الضمير فى كان يعود على السيف يقول : كاد سيفك ينذر بالوعيد ، ويعلم التأويل لطول مصاحبته إياك واستماعه لبيانك .

ويقول مؤيداً لهذه التعاليم :

إذا كان أمنٌ يشمل الأرض كلَّها ... فلا بد فيها من دليل مقدّم

ويقول :

لولاك لم يكن التفكر واعظا ... والعقل رُشداً والقياس دليلا

لو لم تكن سَكَنَ البلاد تضعضعت ... وتزايلت أركانها تزييلا

وهكذا يؤسس فى شعره الدعوة ، ونظرية الإمامة وعصمة الأئمة ، وعلم الإمام بالحقائق ، وأنه مظهر نور الله . فعلّم الشعراء كيف يمدحون ، وكيف يقولون [١] .

فلحاجة الفاطميين للدعوة قربوا الشعراء ، فكثر الشعر وحسن وجاد ، فرأينا شعراء ممتازين فى هذا العصر لم يكن مثلهم فى مصر ؛ شعراء أتوا من المغرب مع المعز و بعده ، وشعراء وافدون من العراق والشام واليمن ، وشعراء من المصريين أنفسهم ؛ وراج الشعر لكثرة الدوافع وقوتها ، فنوع الشعر الغالب على الأدب العربى — وهو شعر المديح — إنما يكثر و يزدهر على باب القصور السخية . والفاطميون كانوا من أسخى الناس فى هذا الباب . ثم هم أكثروا من الحفلات العامة . مما لم يكن له نظير فى مصر لا قبلهم ولا بعدهم ، وهذه الحفلات والأعياد كانت فى غاية من الفخامة والضخامة ؛ قد أقروا الأعياد التى كانت قبلهم ، وزادوا عليها : فموسم رأس السنة ، و يوم عاشوراء . ومولد النبى ، ومولد علىّ ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة ، ومولد الخليفة

(١) انظر ديوان ابن هانئ الذى نشره الدكتور زاهد على .

الحاضر ، وليلة أول رجب ، وأول شعبان ونصفه ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان وليلة الختم ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس الخ . مما بقى أثر بعضه عند المصريين إلى اليوم .

وكان فى كثير من هـذه الأعياد ، يركب الخليفة بزيه المفخم ، وهيئته المعظمة ، وتوزع الخلع والجوائز ، وتمد الأسمطة ، فتـكون كل هذه المظاهر حافزة للشعراء على أن يقولوا ويكثروا ويجيدوا فى هـذا الباب من القول الذى يعده الفاطميون دعاية لهم لا بد منها .

روى المقريزى عن الشريف أبى عبد الله الجوانى ، أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى منظرة من خشب مدهونة ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحَبَش ، وصوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح ... وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهَّب . فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صُرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ، ففعلوا ذلك ، وأخذوا صررهم ، وكانوا عدة شعراء[1] .

وقد أسس هذه الخطة ، (خطة الاحتفاء بسماع الشعر ورعايته والمـكافأة العظيمة عليه) الخليفة المعز ووزيره يعقوب بن كلِّس ، ثم صارت تقليدا فاطميا متبعا — بالمعز أسس له ابن هانئ منهج الشعراء فى المديح ؛ ويعقوب بن كلس قرّب الشـعراء وشجعهم وأغناهم ، وكان من أولهم فى ذلك الشاعر أبو حامد الأنطاكى المعروف بأبى الرَّقَعْمَق ، وأكثر شعره وقف على مدح المعز والعزيز

(١) خطط المقريزى : ١/٤٨٦ .

والحاكم بأمر الله ، وجوهر القائد ، وخاصةً الوزير ابن كلس من مثل قوله فيه :

كل يوم له على نُوَب الدهـــر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخـــل وفى حومة الندى كرّاره
هى فَلّت عن العزيز عداه بالعطايا وكثّرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمـــسى وتضحى نفّاعة ضرّاره
فاستجرْهُ فليس يأمن إلا من تفيّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقا يُعـــمل فيما يريدُه أفـكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعا من الأرض إلا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفَه من زمانه وحذاره

وقد أفرد العماد الأصفهانى فى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » جزءاً خاصا لشعراء مصر ، بلغ عددهم نحو المائة ، ترجم لـكل منهم وذكر شيئاً من شعره(١) .

ويمكننا أن نقسم الشعر المصرى الفاطمى أقساما ثلاثة : قسم فى المديح وهو أكبر الأقسام كعادة الشعر العربى ، وكما رأيت فى شعر أبى الرقعمق ، ويمتاز عما قبله من شعر مصر بالجزالة والقوة للأسباب التى ذكرناها . ومن أشهر هؤلاء المهذب بن الزبير ، وكان أكثر مديحه فى الصالح بن رُزِّيك ، ومن أشهر قصائده فيه قصيدة نونية يمدحه بها بعد انتصار أسطول مصر على أسطول الروم ، مطلعها :

أعلمت حين تجاور الحيّان أن القلوب مواقد النيران

ومثل المهذّب المَوْصِلى ، وعُمارة اليمنى .

(١) وهذا الجزء هو الجزء الثانى ، ومنه نسخة فوتوغرافية فى دار الكتب .

ويصح أن نلاحظ أن هذا الشعر الذى قيل فى مديح الفاطميين شعرٌ فرِح مغتبط ، إذ كان الشيعة لأول أمرهم قد نجحوا فى تأسيس دولة ضخمة ، وتبوءوا فيها كرسى الخلافة بعد أن طال أمدهم فى اضطهاد وتعذيب على يد الأمويين والعباسيين ، فكان شعر شعرائهم حزينا آسفا كشعر السيد الحِمْيرى ، والكميت ودِعْبل الخزاعى .

ثم شعر تعاليمى فى الدعوة ، وقد بدأه ابن هانئ الأندلسى فى بعض شعره ، وقد عرضنا قبل نماذج منه ، و بلغ قمته المؤيد الشيرازى داعى الدعاة ، فأكثر من الشعر فى هذا الباب وأفاض ، وله ديوان فى ذلك ؛ منه فى تأييد علم الباطن :

ورب معنى ضمّه كلام	كمثل نور ضمّه ظلام
باق بقاء الحَبّ فى السنابلِ	فى معقل من أحرز المعاقل
وإنما باب المعانى مُقْفل	وأكثر الأنام عنه غُفَّل
مفتاحه أضحى بأيدى حزنه	بهم إلٰهى علمه قد خزنه
كما يلوذ الخلقُ طرًّا بهمُ	خصوا لهذا العلم من ربهمُو
فما أبو حنيفةٍ والشافعى	— حيث هُمُ قد نفقوا — بنافع
أولئك الأبرار آل المصطفى	ومن بهم مَرْوَةُ عزّت والصفا
هم البدور والنجوم اللُّمَّعُ	وللهدى وللعلوم المنبع
هم الثقاتُ والنفاة للشُّبَه	والمنقذون الناس من كل عَمَه
لهم سمعنا ولهم أطعنا	فبدّلونا بعد خوفٍ أمنا
فما علينا مشكلٌ بمشكل	بهم كُفِينا كل خط معضِل
وأرشدونا سبل الصواب	وعلمونا علم ذا الكتاب
مبرّأً من هجنة التناقض	مسلّماً من خوض كل خائض

وهكذا كل ديوانه فى الدعوة وما إليها[1] .

ثم شعر هو أرقى أنواع الشعر وأصدقه ، ينبع من مشاعر الشاعر ، ويتدفق فى رقة وسلاسة ، وكان على رأس الشعراء من هذا النوع شاعران فاطميان : تميم بن المعز ، والعَقِيلى .

فأما تميم ، فهو ابن الخليفة المعز فاتح مصر ، ولم يل الخلافة لأن المعز جعل ولاية عهده لابنه العزيز نزار دون تميم ، فحرم الخلافة ، ولكنه تبوأ عرش الأدب فكان شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ، يشعر بخلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، ولم تر مصر شاعراً من هذا القبيل قبله مثله ، يصف حياته اللاهية من حبه وعشقه وليالى غرامه ونحو ذلك فى قول عذب ؛ وفى أعماقه شعور بالحزن ، إما لطبيعة مزاجه ورقة جسمه ، أو لخروج الخلافة من يده وهو يرى أنه أولى بالفضل ، أو لأنه عذبه الحب فأضناه ، أو لكل ذلك مجتمعا . فمن قوله :

أما والذى لا يملك الأمرَ غيرهُ ⁂ ومن هو بالسر المكتَّم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما ⁂ لَإعلانها عندى أشد وآلم
وبى كل ما يُبكى العيونَ أقلُّه ⁂ وإن كنت منه دائماً أتبسم

وتميم ابن المعز أشبه شىء بابن المعتز فى قرابة الكنية ، والنشأة فى بيت الملك ، وقوة الشاعرية ، وسوء الحظ فى دنيا المناصب ، وإن تخالفا فى أن ابن المعتز سنى عباسى يدعو للعباسيين ويردّ على الشيعة . فيرد عليه ابن المعز فى مثل قوله وعلى رَوِىّ قصيدته . يقول ابن المعتز فى الإشادة بالعباسيين ورد دعوة الشيعة قصيدة مطلعها :

أى رسم لآل هند ودار ⁂ دَرَسا غير ملعب ومنار

---

(١) انظر ديوانه مخطوطا فى مكتبة جامعة فؤاد .

يقول فيها :

هاشمى إذا نسبت ومخصو ص ببيت من هاشم ، غير عار
أخزن الغيظ فى قلوب الأعادى وأُحِلّ الجَبّار دار الصَّغار
أنا جيش إذا غدوت وحيدا ووحيد فى الجحفل الجرّار الخ

فيرد تميم بن المعز بقصيدته :

يا بنى هاشم ولسنا سواء فى صِغار من العلا وكبار
إن نكن ننتمى لجَدٍّ فإنا قد سبقناكمو لكل فخَار
ليس عباسكم كمثل علىّ هل تقاس النجوم بالأقمار الخ

ولكن دعنا من هذا ، فمزية تميم الكبرى فى رقة شعره ، وصدق شعوره وسلاسته ، فكان فى ذلك أستاذ البهاء زهير بعدَه ، كقوله :

يا دهر ما أقساك من متلوِّن فى حالتيك وما أقلّك منصفا
أتروح للنكس الجهول ممهِّدا وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفَا
فإذا صفوت كدرتَ ، شيمة باخل وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضيك وإن صفوت لأننى أدرى بأنك لا تدوم على الصفا
زمن إذا أعطى استرد عطاءه وإذا استقر بدا له فتحرّفا
ما قام خيرك يا زمان بشرّه أولى بنا ما قلّ منك وما كفى

وقوله :

قالت وقد نالها للبين أوجعُه والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت قواه عن حمل ما فيه وأضْلُعه
كأننى يوم ولّت حسرة وأسى غريق بحر يرى الشاطى ويُمنَعه

وله الأوزان الشعرية الظريفة كقوله :

دم العشاق مطلول وديْن الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومُبْدى الحب معذول
وإن لم يُصغ لِلّائمْ

* * *

وأحورَ ساحر الطرْفِ يفوق جوامع الوصف
مليح الدَّل والظرف جنت ألحاظه حتفى
فمن يُعدى على الظالم

* * *

يعنفنى على حبى ويهجرنى بلا ذنب
كأنى لست بالصب لقهوة ريقه العذب
أما فى الحب من راحم ؟ الخ

وقد مات سنة ٣٧٤ فى خلافة أخيه ، ولم يعمر طويلا ؛ إذ كان عمره يوم وفاته نحواً من سبع وثلاثين سنة ، وهذه سُنّة القلب المحترق[١] .

وأما العقيلى ، فهو أبو الحسن على بن الحسين بن حَيْدرة العقيلى ، كان فى المائة الخامسة ، وكان من الأشراف ، وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يغنِّ لخليفة أو أمير ، بل غنى لنفسه فى حبه ومتنزهاته ؛ وكان يعد من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده ، أمثال ذى الرمة أولا ، وابن المعتز أخيراً ؛ ثم سلك مسلك أبى نواس فى الخمر وتوليد المغانى منها ، وأولع بالطبيعة الجميلة يستجليها ويستمتع بها ، كقوله :

الروض فى ديباجة خضراء والجو فى فَرَجيّة دكناء

---

(١) له ديوان شعر مخطوط بمكتبة الجامعة .

والأرض قد نظم الربيع لجيدها عِقْـــدار من الصفراء والحمراء
والراح ينثر فى مُذاب عقيقها دُرَرَ الفواقع جوهرىُّ المـاء
فاقصد رضا رضوانها بالشرب إن أحببت سكنى جنــة السراء

وقوله فى وصف صديق :

ظلّلنى بظله الظَّليلِ أخ نَداه واضح السبيلِ
يسير فى المجد بلا دليل مهذب الجملة والتفصيل
أخلاقه تَنضح بالجميل كأنه عافية العليـــل

لَأَحْسنُ من مصافحة الصِّفاح ومن وقع الرماح على الرماح
بقاعٌ ترقص الأمواج فيها على النغمات من رمى الرماح
وأغصانٌ يذهِّبهـــــا بَهَار وغيطـــان يفضضها أقاح

✲ ✲ ✲

وإن جنح الشباب إلى التصابى نخلِّ عنانه طوعَ الجمـــاح
فصبح العيش سوف يعود ليلا إذا ما الليل نغص بالصباح(١)
أتطمع بعد شيبك فى سرور محالٌ أن تطير بلا جناح(٢)

ثم ما بقى لنـا من النثر الفنى الفاطمى ولو كان قليلا ، كبعض الـكتب الرسمية التى ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ، ورسالة ابن القارح لأبى العلاء (وقد عاش ابن القارح فى زمن الحاكم) ، ورد عليها أبو العلاء برسالة الغفران ، وكرسالة داعى الدعاة إلى أبى العلاء ، وجداله معه فى ذبح الحيوان ، إلى غير ذلك من رسائل منثورة هنا وهناك ؛ كل هذا على قلته يدل على تقدم النثر الفنى ، وميله إلى الزينة من سجع وبديع واقتباس ، مما هو ظل لحياة الترف فى قصور الخلفاء ، كما يدل على تأثر بسعة الثقافة التى عظمت فى هذا العصر .

---

(١) يريد إذا نزل الشيب بالرأس .
(٢) انظر مجموعة من شعره فى كتاب المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

الباب الثانى

العراق وجنوبى فارس

ظلت هذه البلاد محكومة بالخلفاء اسماً ، وبساطة الأتراك فعلا ، من عهد المتوكل إلى أن جاءت الدولة البويهية الفارسية فبسطت نفوذها على جنوبى فارس والعراق من سنة ٣٢١ إلى سنة ٤٤٧ ؛ ولما تغلبوا على بغداد لم يكن للخليفة العباسى معهم إلا الاسم ، والدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه على سكة الدراهم والدنانير . وأما جباية الأموال وتجييش الجيوش وأمور الدولة كلها ففى أيديهم ، قد جعلوا للخليفة مرتباً ثم تصرفوا فى كل مالية الدولة ، وكان لقبهم « أمير الأمراء » لقّبهم به الخلفاء . وقد كان البويهيون شيعة ؛ وقد فكر معز الدولة البويهى عند ما فتح بغداد أن يعزل الخليفة وهو سنى ويقيم مكانه أحد الأئمة العلويين ، كما فعل الفاطميون ، وكان ذلك هيناً عليه ، ولكن نصحه بعض خاصته ألا يفعل ؛ وقال : « ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، فأعرض عن رأيه ، وأقام المطيع لله خليفة بدل المستكفى المخلوع » .

وقد كانوا فرساً متشيعين يقولون إنهم من نسل ملوك فارس — وقد تقسموا العراق وجنوبى فارس فيما بينهم ، وامتد نفوذ بعضهم أحياناً ، وانكمش نفوذ بعضهم ، فمنهم من حكم العراق والأهواز وكِرْمَان ، ومنهم من حكم كِرْمَان

وحدها ، ومنهم من حكم فارس وحدها ، ومنهم من حكم الرّى وهَمَذان وأصفهان ، ومنهم من مد سلطانه على ذلك جميعاً كعضد الدولة ، وكان بين بعضهم و بعض خصومات ومنازعات ليس هنا موضع شرحها .

إنما نستطيع أن نقول إنهم مع فارسيتهم شجعوا الأدب العربى ، واللسان العربى ، والعلوم العربية ، وكان ممن نبغ من العلماء والأدباء والفلاسفة فى عهدهم من يُعَد بحق فخر المملكة الإسلامية فى العصور المختلفة .

وقد كانت هناك مدن كثيرة فى هذا الإقليم أثناء هذا العهد وقبله تميزت بقوة الحركات العلمية والأدبية مثل بغداد والبصرة والكوفة فى العراق ، والرى وأصبهان فى فارس . وقد زار المقدسى هذه البلاد كلها فى العهد البويهى ، وملخص ما قال من الناحية العلمية : « إن إقليم العراق إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ، لطيف الماء ، عجيب الهواء ، مختار الخلفاء ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء ، وسفيان سيد القراء ، ومنه كان أبو عبيدة والفراء ، وحمزة والكسائى ، وكل فقيه ومقرئ وأديب ، وسرىّ وحكيم وداه وزاهد ونجيب ، وظريف ولبيب — أليس به البصرة التى قوبلت بالدنيا ، و بغداد الممدوحة فى الورى ، والكوفة الجليلة وسامَرّا[1] .

« والكوفة قصبة جليلة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات . . . وهو بلد مختل قد خرب أطرافه ، وكان نظير بغداد[2] .

« والبصرة قصبة سَرِية . . . والبلد أعجب إلىّ من بغداد لرفعتها ، وكثرة الصالحين بها . وكنت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها ، فتذاكروا بغداد

---

(١) أحسن التقاسيم : ١١٣ . (٢) ص ١١٧ .

والبصرة فتفرقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأُنْدِرِ خرابها لم تكن أكبر من البصرة[١] .

« و بغداد (لأهلها) الخصائص والظرافة ، والقرائح واللطافة ، هواء رقيق ، وعلم دقيق ، كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب إليها ، وكل حرب عليها ، وهى أشهر من أن توصف ، وأحسن من أن تنعت ، وأعلى من أن تمدح[٢] .

ولكنه فى موضع آخر قال : « واعلم أن بغداد كانت جليلة فى القديم ؛ وقد تداعت الآن للخراب ، واختلت وذهب بهاؤها ، ولم أستطبها ، ولا أعجبت بها ، وإن مدحناها فللمتعارف ؛ وفسطاط مصر اليوم كبغداد ، ولا أعلم فى الإسلام بلداً أجل منه »[٣] .

« (والعراق) كثيرة الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة والملوك ، بخاصة بغداد والبصرة . . . وبه مجوس كثيرة ، وذمته نصارى ويهود . . . وقد حصل به عدة من المذاهب ، والغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة ، وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة ونَجّارية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكُنَاسة فإنها سنة . . . وبالبصرة مجالس وعوام السّالمية ، وهم قوم يدّعون الكلام والزهد (وسالم كان غلام سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى) . . . وأكثر أهل البصرة قَدَرية وشيعة ، وثم حنابلة ، وببغداد غالية يفرطون فى حب معاوية ، ومشبِّهة . . . والقراءات السبع مستعملة فى العراق . . . ولغاتهم مختلفة أصحها الكوفية لقربهم من البادية ، وبعدهم عن النبط ، ثم هى بعد ذلك خشنة وفاسدة بخاصة فى بغداد . وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل[٤] .

---

(١) ص ١١٨ . (٢) ص ١١٩ . (٣) ص ٣٦ . (٤) ص ١١٨ .

« وتقع عصبيات وحشة بالبصرة بين الرَّبعيين وهم شيعة ، و بين السعديين وهم سنة ، و يدخل فيها أهل الرسانيق ، وقلّ بلد إلاّ و به عصبيات على غير المذاهب » .

« وأما القسم من إيران الذى كان يحكمه البو يهيون فقسمه الشمالى كان يسمى بلاد الجبال ، وأهم مدنه أربع : كرمنشاه (وكانت تسمى فى ذلك العهد قِرْمَسِين) ، والرى ، وهمذان ، وأصفهان — وسمى هذا الإقليم فى العهد السلجوقى بالعراق العجمى — وكانت عاصمة هذا الإقليم فى العهد البويهى هى « الرى » ؛ قال الإصطخرى : « و « الرى » مدينة ليس بعد بغداد فى المشرق أعمر منها » . وقال الأصمعى : « الرى عروس الدنيا و إليه متجر الناس ، وهو أحد بلدان الأرض » ، والنسبة إليها رازى . وقد خرّجت كثيراً من العلماء المعروفين بهذه النسبة كما سيجىء ، وموقعها على بعد أميال من طهران ، ومحلها الآن خرائب ، ولما وصف المقدسى هذا الإقليم فى العهد البويهى قال : « إن به الرَّى الجليلة ، وهمذان ، والكورة النفيسة أصبهان »[1] .

« فأما الرى فإنها كورة نزيهة كثيرة المياه ، جليلة القرى ، حسنة الفواكه واسعة الأرض ، خطيرة الرساتيق[2] . . . علماء سراة ، وعوام دهاة ، ونسوان مدبرات ، لهم جمال وعقل وآيين . و به مجالس ومدارس ، وقرائح وصنائع وخصائص ، لا يخلو المذكِّر من فقه ، ولا الرئيس من علم ، ولا المحتسب من صيت ، ولا الخطيب من أدب ، هو أحد مفاخر الإسلام ، وأمهات البلدان ، به مشايخ وأجلة ، وقراء وأئمة ، وزهاد وغزاة ... وأئمة الجوامع فيها مختلفة ، يوم للحنفيين ، و يوم للشفعو يين[3] .

« وأما همذان فهى إقليم كبير حسن قديم . . . والرى أطيب وآهل وأعمر

(١) ٣٨٤ .   (٢) ٣٨٥ .   (٣) ٣٩١ .

منها ، قد انجلى أهلها ، وقلّ العلماء بها ، وأذهبت الرى دولتها .

وأما أصفهان ، فأخذت بحظ من فارس ، وحظ من الجبال ، وقصبتها « اليهودية » وهى كبيرة عامرة آهلة كثيرة الخيرات ، أهل سنة وجماعة ، وأدب وبلاغة ، كم أخرجت من مقرئ وأديب ، وفقيه ولبيب[١] .

« ومذاهب هذا الإقليم مختلفة ؛ أما بالرى فالغلبة للحنفيين ، وبها حنابلة كثيرون لهم جلبة ، والعوام قد تابعوا الفقهاء فى خلق القرآن ؛ وأهل « قُمّ » شيعة غالية . . . وهمذان وأجنادها أصحاب حديث إلا الدينَوَر ، فإن بها جلبة لمذهب سفيان الثورى ، والإمامة فى الجامع مثنى (يوم لمذهب ويوم لمذهب) ، وعلى ذلك كان أهل أصفهان فى القديم[٢] .

ويقع بالرى عصبيات فى خلق القرآن[٣] ، وفى أهل أصفهان بله وغلو فى معاوية[٤] .

وقد اشتهر من بلاد الجبل فى العلم والأدب « دينَور » التى ينسب إليها ابن قتيبة الدينورى ، وأبو حنيفة الدينورى ، وغيرهما من فحول العلماء والأدباء .

* * *

وإلى الجنوب من إقليم الجبال كان إقليم « فارس » ، وكان اسماً لإقليم خاص ، ثم أطلق على إيران كلها . وقد اشتهر من هذا الإقليم فى العلم والأدب إصْطخر ، وسِيراف ، وشيراز ، وأرّجان ، وشِعب بَوّان ، وشهرستان ؛ وقد حازت شيراز مركزاً ممتازاً فى العهد البويهى ، وخاصة فى عهد عضد الدولة ، وكانت هى قصبة إقليم فارس ينزل بها ملوك البويهيين . قال المقدسى : « وهذا

---

(١) ٣٨٩ . (٢) ٣٩٥ .
(٣) ٣٩٦ . (٤) ٣٩٩ .

الإقليم (إقليم فارس) العمل فيه على مذهب أصحاب الحديث ، وأصحاب أبى حنيفة كثيرون ، وللداوودية (أهل الظاهر) دروس ومجالس وغلبة ، و يتقلدون القضاء والأعمال[1] . والصوفية بشيراز كثيرون — وكما يُرفع بالمشرق العلماء تُرفع هنا الكتبة[2] » .

* * *

نعود إلى وصف الحركة العلمية فى العراق ، ثم فى الجزء الجنوبى من بلاد الفرس .

فالعراق من عهد المتوكل إلى آخر الدولة البويهية لم تزل لها الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة .

ويدل ما جمعه الخطيب البغدادى من تراجم علماء بغداد على ثروة واسعة فى العلم والعلماء من جميع الفروع كالتفسير والحديث والفقه والشعر والأدب .

نعم إن المتوكل نصر أهل الحديث على المعتزلة واضطهدهم ، وكان فى هذا خسارة كبيرة على الحركة الفكرية ؛ ولكن مع ذلك ظل الجدل فى علم الكلام قوياً .

فقد نبغ أبو علىّ الجُبّائى (٢٣٥ — ٣٠٣) ، وكان إمام المعتزلة فى بغداد ، وتتلمذ له أبو الحسن الأشعرى (٢٧٠ — ٣٣٠) ، وكان مولده بالبصرة ، وانتقل إلى بغداد ، وأخذ مذهب الاعتزال على الجبائى ، ثم خرج على الاعتزال وحار به وألف فى ذلك الكتب الكثيرة ، وخالف المعتزلة فى كثير من أصولهم لقولهم بالاختيار المطلق ووجوب العدل على الله ، وأن القرآن مخلوق ، وكوّن مذهباً له دعا إليه ، وناصر مذهبه جماعةٌ من أكبر العلماء من أشهرهم الباقلانى ، وابن

---

(١) ٤٣٩ .   (٢) ٤٤٠ .

فورَك ، والإسفرائينى ، والقشيرى ، و إمام الحرمين الجُوَينى ، ثم الغزالى — فأبو حامد الإسفرائينى كان يحضر إليه أكثر من ثلثمائة فقيه ، وانتهت إليه الرياسة فى بغداد ، وكان شافعياً كأبى الحسن الأشعرى ، وما زال يدرّس ببغداد من سنة ٣٧٠ إلى وفاته سنة ٤٠٦ .

والباقلانى كذلك كان من أنصار الأشعرى فى بغداد ، وصنف التصانيف الكثيرة فى علم الكلام ، وكان موصوفا بالإطناب وقوة الجدل ، مات سنة ٤٠٣ الخ الخ .

واشتد الجدل بين الأشعرية والمعتزلة ، وإن خَفَتَ بعض الشىء صوت المعتزلة لقوة المحدّثين ، ونصرة ذوى السلطان لهم .

واستمر المعتزلة فى العراق يعلّمون ويدرسون ويدعون ؛ وقد اشتهر منهم أئمة عظماء كأبى على الجبائى الذى مر ذكره ، ثم تلميذه فى الاعتزال محمد بن عمر الصَّيْمرى ، ثم قاضى القضاة عبد الجبار ، كان أشعريا ثم تحول إلى الاعتزال ونبغ فيه ؛ قالوا : « وهو أول من فتق علم الكلام ونشر بروده ، ووضع فيه الكتب الجليلة التى بلغت المشرق والمغرب ، وضمنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد مثله ؛ وطال عمره مواظباً على التدريس والإملاء (ببغداد) حتى طبق الأرض بكتبه وأصحابه ، وبَعُد صوته ؛ وإليه انتهت الرياسة فى المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافَع ، وصار الاعتماد على كتبه ومسائله ؛ واستدعاه الصاحب بن عباد إلى الرى سنة ٣٦٠ فبقى فيها مواظباً على التدريس إلى أن توفى سنة ٤١٥ أو سنة ٤١٦ »[1] . وهو الذى يلقبه المعتزلة بقاضى القضاة .

وهكذا ظلت حركة الاعتزال فى العراق يناهضها الأشاعرة وغيرهم ، ويؤسسون بذلك علم الكلام ويوسعونه .

* * *

(١) المنية والأمل .

كما نمت الحركة الفقهية فى العراق نمواً كبيراً ، وظهر كثير من المجتهدين وكبار أتباع المذاهب المختلفة .

فكان من المجتهدين داود الظاهرى الأصفهانى الأصل البغدادى الدار . وقد أسس مذهباً عماده إنكار القياس ، وأن فى الكتاب والسنة من العمومات ما يفى بمعرفة الواجبات والمحرمات ، وتقديم ظواهر آيات القرآن والحديث على التعليل العقلى للأحكام . وقد كثر أتباع هذا المذهب فى العراق وفارس والأندلس . وقد انقرضوا بعد المائة الخامسة ؛ وقد مات داود صاحب المذهب سنة ٢٧٠ ببغداد ، ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٩٧ .

ثم من أشهر الأئمة المجتهدين محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ ، ومن أعلم الناس بفقه المذاهب المختلفة ، وألّف فى اختلاف الفقهاء ، وكان من أكثر العلماء تأليفاً ، وكان مجتهداً فى مذهبه لم يقلد أحداً ، توفى سنة ٣١٠ ببغداد . وكان له أتباع على مذهبه انقطعوا بعد المائة الرابعة .

وقد نبغ فى هذا العصر كثير من علماء المذاهب المختلفة كذلك .

فاشتهر من الحنفية فى العراق أبو الحسن عبيد الله الكرخى رئيس الحنفية فى العراق فى عصره ، توفى سنة ٣٤٠ . وقد أصابه الفالج ، فكتب أصحابه إلى سيف الدولة الحمدانى يستمنحونه ما ينفق عليه ؛ فلما علم الكرخى بذلك بكى ، وقال : اللهم لا تجعل رزقى إلا من حيث عودتنى ، ومات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة .

وكان من أكبر تلاميذ الكرخى هذا أبو بكر الجَصّاص البغدادى رأس المذهب بعد الكرخى ، وألّف الكتب الكثيرة على مذهب أبى حنيفة ، مات سنة ٣٧٠ . وقد وصل إلينا من تآليفه كتابه العظيم المطبوع ، أحكام القرآن .

ثم أبو الحسين أحمد القُدُورى رئيس الحنفية فى العراق فى زمنه ؛ وقد ألف كتباً وصل إلينا بعضها منها المختصر ، وكان يناظر الإسفرائينى الفقيه الشافعى المشهور ، مات سنة ٤٢٨ .

واشتهر من فقهاء المالكية العراقيين أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد ، تفقه عليه أهل العراق من المالكية ، وألّف الكتب الكثيرة فى الفقه المالكى وعلوم القرآن ، وكان من نظراء المبرد فى النحو ، وولى قضاء بغداد ، وعنه انتشر مذهب مالك فى العراق ، وأقام على القضاء نيفاً وخمسين سنة ، « وكان بيت آل حماد أشهر بيت فى العراق لكثرة رجاله المشهورين بالعلم والثراء ، أئمة الفقه ومشيخة الحديث ، رؤساء نبهاء أصحاب سنة وهدى ودين ، روى عنهم علماء انتشروا فى أقطار الأرض ، فانتشر ذكرهم فى المشرق والمغرب ، و بقى العلم فى بيتهم نحو مائة عام » ، مات إسماعيل بن حماد هذا سنة ٢٨٢ .

ثم أبو الحسن على بن أحمد البغدادى المشهور بابن القصار ، كتب كتاب مسائل الخلاف المشهور عند المالكية ، وقد تولى أيضاً قضاء بغداد ، ومات سنة ٣٩٨ .

واشتهر من رجال الشافعية ، أبو على الكرابيسى البغدادى ، رئيس الشافعية ببغداد ، المتوفى سنة ٢٤٥ ؛ وأبو على الزعفرانى البغدادى المتوفى سنة ٢٦٠ ؛ وأبو على الحسن بن القاسم الطبرى البغدادى ، له كتاب المحرّر فى النظر ، وهو من أوائل الكتب فى الخلاف بين الفقهاء ، وله كتاب الإفصاح فى الفقه ، وكتاب فى الأصول ، وكتاب فى الجدل ، توفى سنة ٣٠٥ .

ثم أحمد بن عمر بن سريج القاضى بشيراز ثم ببغداد ، أحد عظماء الشافعية

ألف نحو أربعمائة كتاب ، توفى سنة ٣٠٦ .

وأبو إسحاق المروزى إمام عصره فى العراق بعد ابن سريج ، أقام بالعراق دهراً طويلا ينشر مذهب الشافعى ، توفى سنة ٣٤٠ .

وأبو الحسن على بن عمر البغدادى الدارقطنى ، المحدِّث الكبير ، وكان فقيهاً شافعياً ، عارفاً باختلاف الفقهاء ، رحل إلى مصر ، ونزل ضيفاً على ابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدى ، ثم عاد إلى بغداد ، وألف كتباً كثيرة ، ومات ببغداد سنة ٣٨٥ ، ونسبته إلى دار قطن محلة ببغداد .

ثم أبو الحسن الماوردى على بن محمد بن حبيب البصرى من أكبر فقهاء الشافعية ، تولى القضاء فى بلدان كثيرة ، واستوطن بغداد ؛ وألف الحاوى وهو من أهم الكتب فى الفقه الشافعى ، وله الكتاب المشهور المفيد كتاب « الأحكام السلطانية » شرح فيه مناصب الدولة من الناحية الدينية كالإمامة وشروطها ، والوزارة وأقسامها ، والقضاء والحسبة وولاية الخراج ، إلى آخره ؛ وكان عمدة كل من تعرض لهذا الموضوع من بعده ، وله كتاب آخر فى قانون الوزارة وسياسة الملك .

وله كتاب أدب الدنيا والدين فى الأخلاق على الأصول الدينية لا كتهذيب الأخلاق لمسكويه ، فإنه كتاب أخلاق على الأصول الفلسفية .

مات ببغداد سنة ٤٥٠ .

وكان للحنابلة سلطان كبير فى العراق ، واشتهر من علمائهم عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، روى عن أبيه المسند والتفسير توفى سنة ٢٩٠ .

وأبو بكر أحمد بن هانئ الطائى البغدادى أحد الأعلام فى الفقه على مذهب ابن حنبل ، مات بعد السبعين ومائتين .

وأبو إسحاق إبراهيم الحربى إمام كبير فى الحديث مات سنة ٢٨٥ .

وأبو بكر عبد الله بن داود الأزدى السجستانى من أكابر حفّاظ الحديث ببغداد ، وانتهت إليه رياسة الحنابلة بها ، مات سنة ٣١٦ .

وأبو القاسم عمر بن الحسين الخِرَقى صاحب المختصر فى فقه الحنابلة ، خرج من بغداد لما ظهر بها سب السلف ، وتوفى سنة ٣٣٤ .

وقد أتعب الحنابلة الحكومات المتعاقبة أكثر من غيرهم من أهل المذاهب الأخرى لشدة عصبيتهم والميل إلى تنفيذ آرائهم بالقوة ، من إراقة الخمور ومحاربة المنكرات ، والتعدى على خصومهم من أهل المذاهب ، وصبرهم على ما يلقون من محن تقليداً لأستاذهم الأكبر أحمد بن حنبل .

* * *

وفى هذا العصر نما فى العراق التصوف ، والدعوة إلى الاهتمام بباطن النفس لا بالظواهر ، وحقيقة الشريعة لا مجرد أعمال الجوارح ، ورياضة النفس عن طريق الزهد والعبادة ، والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحى والإلهام ، وإدراك العالم العلوى بالذوق والشعور ، لا بما يدركه العقل بالمنطق والتجارب والقياس . وقد ظهر التصوف فى العراق فى القرن الثانى ، واشتهر من أعلامه رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥ ، وهى القائلة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، والقائلة : إلهى أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ !

ثم إبراهيم بن أدهم (١٦٢) ؛ وشقيق البلخى (١٩٥) ؛ ومعروف الكرخى (٢٠٠) ، وهو القائل : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الناس ؛ ثم بشر الحافى (٢٢٦) ، وهو القائل للمحدّثين : أدوا زكاة هذا الحديث ، قالوا : وما زكاته ؟ قال : أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين .

وفى أواسط القرن الثالث تفلسف التصوف ، واستمد من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية ، فظهر بالعراق الحارث المحاسبى وهو بصرى الأصل ، وأستاذ أكثر البغداديين ، ومفلسف التصوف ، ألف كتباً كثيرة ؛ وكان يقول : خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم . وكانت تآليفه من الأصول التى اعتمد عليها الغزالى فى كتبه ، توفى سنة ٢٤٣ .

ثم سهل بن عبد الله التسترى البصرى المتوفى سنة ٢٨٣ .

ثم أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز المتوفى سنة ٢٨٦ ، وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء .

ثم ظهر إمام الصوفية الجنيد ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، توفى سنة ٢٩٧ ببغداد ؛ ومن قوله : التصوف صفاء المعاملة مع الله — إن الله يُخلص إلى القلوب مِنْ بِرِّه على حسب ما تُخلص إليه القلوب من ذِكره ، فانظر ماذا خالط قلبك — المريد الصادق غنى عن علم العلماء — التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة .

ومن تلاميذ الجنيد أبو منصور الحلاج الذى نقلت عنه مقالات فى الحلول أفتى فيها العلماء بإباحة دمه ، فقتل ببغداد سنة ٣٠٩ .

وأخذ المتصوفة يضعون الكتب فى التصوف محاذاة لكتب الفقهاء ، ومن أشهر هذه الكتب قوت القلوب لأبى طالب المكى ، أصله من إقليم الجبل وسكن مكة فنسب إليها ، وأقام ببغداد مدة وبالبصرة مدة ، وشطح فى كلامه ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٦ .

* * *

وكان طبيعياً أن يثور الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة لاختلاف النزعتين .

فالمتصوف يعتمد على القلب وعلى الذوق وعلى المعرفة من طريق الإلهام وعلى الباطن ؛ والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنة ، وعلى الاستنباط منهما من طريق المنطق والعقل ، وليس عندهم باطن ولا حقيقة وراء ظاهر النصوص وفهم معانيها . والصوفى يعنى بالروح والنفس ؛ والفقيه يعنى بالجانب الظاهرى والعملى . والصوفى روحانى نفسانى ؛ والفقيه قانونى . والصوفى يعنى بالحب الإلهى ، ولا يعنيه كثيراً أمر الثواب والعقاب ؛ والفقيه يعنى بأداء العبادات ، ويعتمد كثيراً على الثواب والعقاب الخ . فلا عجب إذن إذا اصطدمت الطائفتان ، ولا عجب إن كان أكبر اصطدام لهما فى العراق إذ كانت الموطن الأكبر للمتصوفة ، وخصوصاً فى البصرة حيث كانت منزل الهنود القادمين إلى العراق ، و بغداد حيث تلتقى الثقافات .

وكانت الخصومة أشد ما يكون بين الحنابلة والصوفية لشدة تمسك الحنابلة بظاهر النصوص ، ولأثر أحمد بن حنبل نفسه فى ذلك ، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى الصوفى كلامه فى التصوف حتى اختفى المحاسبى ، ولما مات لم يحضر جنازته إلا أربعة ؛ وعاب عليه ابن حنبل وتلاميذه كلامه فى الخواطر والوساوس ، وقال إن هذه بدعة . ورمى الحنابلة الصوفية بالزندقة وأثاروا الناس عليهم ، وكان من أشهر الحوادث فى ذلك المحنة المعروفة بمحنة « غلام الخليل » ، وكان ذلك سنة ٢٦٢ ، إذ جاء « غلام الخليل » . وكان حنبلياً معروفاً بالحديث والفقه والوعظ ، وقد وصفه أبو داود السجستانى بأنه دجّال بغداد — واتهم الصوفية بالزندقة ، وشَغّب عليهم العامة ، وسعى عند الخليفة ، وعند والدة الموفق ، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية بلغوا نيفا وسبعين . وانتهت المحنة بقتل بعضهم ، وهرب بعضهم وتبرئة بعضهم .

ثم كانت فتنة الحلاّج الكبرى فاتهم بالكفر ودعوى الألوهية ، ورصدت فتوى من محمد بن داود الظاهرى بتكفيره سنة ٢٩٧ ، ثم قبض عليه وحوكم ؛ وصدرت الفتوى بإباحة دمه من أبى عمر بن يوسف الأزدى وأبى الحسين بن الأشنانى ، ووقّع الخليفة بموته ، فقتل الحلاج وصلب وقطعت أطرافه ، وأحرق سنة ٣٠٩ .

فنرى من هذا شدة ما كان بين الصوفية والفقهاء فى العراق من نزاع .

* * *

ونشطت حركة الفلسفة والنقل فى العراق فى العهد البويهى نشاطا كبيراً ، فكان من أكبر فلاسفة بغداد أبو سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، شيخ رجال الفكر فى بغداد ، وقد وصفه تلميذه أبو حيان بأنه « أدق (العلماء) نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز »[1] .

وكان مجلسه فى بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل ، ويدلى فيها كبار العلماء بآرائهم ، ولأبى سليمان الكلمة الأخيرة فيما يعرضون .

فيجتمع عنده أمثال أبى زكريا الصيمرى، وأبى حيان التوحيدى ، والنُّوشَجَانى والقُومَسى ، وغلام زحل ، ويتجادلون — مثلا — فى هل هناك تأثير للنجوم فى الحوادث الأرضية ؛ وفى أفعال الله هل هى ضرورة أو اختيار ؛ وفى السماع والغناء . ولمَ يؤثران فى النفس ؛ والعلاقة بين المنطق والنحو ؛ ونعيم أهل الجنة وكيف يكون ؛ والفرق بين طريقة المتكلمين والفلاسفة ؛ والحظوظ والأرزاق ، والدهر وحقيقته .

---

(١) الإمتاع : ١/٣٣ .

فكان بيته مدرسة تنشط فيها الحركات الفكرية ، وتثار فيه أعقد المسائل أحياناً ارتجالا وأحيانا بقراءة رتيبة ؛ فقد درّس فى بيته — مثلا — كتاب النفس لأرسطو وحضره عليه أبو حيان التوحيدى .

ويطلعنا أبو حيان التوحيدى فى كتابه « المقابسات » والإمتاع والمؤانسة على محاضر لهذه الجلسات وغيرها مما كان يدور بين العلماء فى بغداد ، فيدلنا على نشاط ذهنى فلسفى عجيب ، وحرية فى التفكير عظيمة ، وثروة فى رجال الفكر والنشاط العقلى كبيرة ؛ فيروى لنا — مثلا — مناظرة كبرى بين أبى سعيد السيرافى النحوى وبين متَّى بن يونس القُنَّائى فى المنطق اليونانى والنحو العربى سنة ٣٢٠ ، وكانت فى بغداد ، واحتشد لهذه المناظرة كثير من العلماء ورسول للإخشيديين بمصر ورسول للسامانيين . وكان أساس المناظرة أن متّى يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بالمنطق حسبما رسمه أرسطو ؛ وكان أبو سعيد يرى أن هذه الأمور تعرف بالعقل الفطرى من غير حاجة إلى المنطق ، وليس علم المنطق إلا أشكالا ؛ فهب أن الأشكال صحيحة فبم تعرف جوهر الأشياء وحقيقتها ؟ أليس من طريق العقل ؟ ! وتحورت المناقشة بعد ذلك إلى مسائل فرعية لا نطيل بها ، كدعوى أنه لا حاجة بالمنطقى إلى النحو وبالنحوى حاجة إلى المنطق الخ .

ويحكى مجلسا عند الوزير ابن سعدان حضره جماعة من متفلسفة النصارى جرى فيه البحث فى الإصلاح الخلقى وتقسيمه إلى سهل وعسير كالإصلاح البدنى .

ومحضر جلسة أخرى عند عيسى بن على بن عيسى الوزير فى السبب الذى من أجله يولع كل ذى علم بعلمه .

ومناظرة بين مانى المجوسى وأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى فى النفس بعد الموت هل تبقى أو لا تبقى .

ومناقشة فى أن معرفة الله هل هى ضرورية أم استدلالية ، إلى كثير من أمثال ذلك مما يدل على جو مملوء بالأفكار الفلسفية ، وميل عقلى إلى فلسفة الأشياء ، والعمق فى التفكير فيها .

واشتهر بالطب والفلسفة فى بغداد ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون النصرانى ، وهو الذى كان له المساجلات الطويلة المفيدة مع ابن رضوان المصرى ، فلما طالت سافر إلى مصر لزيارة منافسه سنة ٤٣٩ وعرج على حلب ، ثم وصل مصر سنة ٤٤١ وأقام بها ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بغداد . وقد تقدم طرف مما كانت تدور حوله المناظرة عند ترجمة ابن رضوان . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب شراء العبيد وكتاب دعوة الأطباء — وقد صنّف أيضاً فى تقويم الصحة ، وكيفية دخول الغذاء فى البدن وهضمه ، والمدخل إلى الطب الخ .

وكان من أشهر المشتغلين بالفلسفة فى بغداد يحيى بن عَدِىّ النصرانى ، وكان رئيس المناطقة فى زمانه ، أخذ العلم عن بشر بن متى وعن الفارابى ، وكان كثير الإنتاج بما ينقل من السريانية إلى العربية وبما يؤلف وبما ينسخ ؛ وقد عمّر إحدى وثمانين سنة كان فيها حركة دائبة ألف مقالات كثيرة فى المنطق وفى الإلٰهيات ، ومات ببغداد سنة ٣٦٤ ؛ وصفه أبو حيان التوحيدى بأنه « كان شيخاً لين العريكة ، مشوه الترجمة ردىء العبارة ، وكان مبارك المجلس ، وكان ينبهر فى الإلٰهيات ويضل فيها » .

وممن اشتهر بالفلسفة أيضاً أبو على بن زُرعة النصرانى ، اشتهر بالمنطق وعلوم الفلسفة ، والنقل إلى العربية ، اختصر كتاب أرسطو فى المعمور من الأرض

وألف كتاب أغراض كتب أرسطو المنطقية ، ومقالة فى العقل الخ . مات ببغداد سنة ٣٩٨ . وقد فضله أبو حيان على يحيى بن عدى فقال : « إنه كان حسن الترجمة صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ... ولولا توزع فكره فى التجارة ومحبته فى الربح وحرصه على الجمع لكانت قريحته تستجيب له » . وهو يشير إلى أنه كان مفتونا بالتجارة مع القسطنطينية فاغتنى ولكن صودرت أمواله ووقع فى محن حتى أصيب بالفالج .

كما اشتهر نظيف القسى الرومى ، وكان خبيراً باللغات ، ينقل من اليونانى إلى العربى ، واستخدمه عضد الدولة البويهى فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد ؛ قال أبو حيان : إن نظيفاً كانت يده فى الطب أطول ، ولسانه فى المجالس أجول ، ومعه وفق وحذق فى الجدل .

وغير هؤلاء كثيرون عنوا بالفلسفة فى بغداد كابن السمح ، وأبى بكر القُوَسى ، وابن الخمار ، وأبى الوفاء البوزجانى الرياضى المشهور ؛ قال فيه ابن خلكان : إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، قدم العراق سنة ٣٤٨ ، ومات به سنة ٣٨٧ .

ومن هذه الطبقة أبو علىّ أحمد بن محمد مسكويه ، كان خازنا لكتب عضد الدولة ، واختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، فألف تهذيب الأخلاق ، كما ألف فى التاريخ كتابه تجارب الأمم جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرب .

وظهر بالبصرة فى القرن الرابع للهجرة جماعة إخوان الصفاء ، وكان منهم — كما حدّث أبو حيان التوحيدى — زيد بن رفاعة ، وأبو سليمان محمد بن معشر البُسْتى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد

المهرجانى ، والعوفى ؛ وغيرهم ، « وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعِشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال — وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها — وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل إخوان الصفا ، وكتموا فيها أسماءهم ، و بثوها فى الوراقين ووهبوها للناس »[1] .

وعلى الجملة فقد كانت الحركة الفلسفية فى العراق من أرقى الحركات الفلسفية فى المملكة الإسلامية .

* * *

وقد نبغ فى العراق فى ذلك العصر كثير من الشعراء والأدباء ، من أشهرهم فى بغداد ابن نباتة السَعْدِى مداح الملوك والرؤساء والوزراء ، مدح سيف الدولة فى حلب كما تقدم ، ومدح عضد الدولة والوزير المهلبى فى العراق ، وابن العميد فى الرى ؛ وله مقطوعات كثيرة فى الغزل وشكوى الزمان ، وأكثر من الوصف وأجاد ، فوصف كماة الحرب وأسرى الروم ، والفَرَس ، والمغنَّى ، والسكين ، وطيب الهواء ، وخوالج نفسه الخ . وقد جمع شعره بين الرقة والسهولة وحسن السبك ، ومات سنة ٤٠٥ ببغداد .

ثم أبو الحسن السَّلاَمى نسبة إلى دار السلام ، شاعر عربى الأصل من

---

(١) الإمتاع والمؤانسة .

بنى مخزوم ، ولد فى كرخ بغداد ، مدح الصاحب بن عباد بأصفهان ، وابن العميد فى الرى ، وعضد الدولة بشيراز ، وسلك مسلك أبى نواس فى التشبيب بالغلمان ، وجرى على سنة عصره فى الإكثار من المقطوعات ، ووصف ما يعرض من الأشياء . وقد وصف شِعب بَوّان وصفاً لم يستطع الوصول فيه إلى ما وصل له المتنبى فى وصفه ، ويفحش أحيانا فيفرط فى الفحش ، ويهجو فيقذع فى الهجاء ، على عادة كثير من شعراء هذا العصر .

ثم ابن سكّرة ، وابن حجاج ؛ وقد سبق طرف من الكلام عليهما .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى بعض المشهورين من الشعراء فى وقته ببغداد ، فكان مما قال : «إن ابن نباتة شاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند ، قد لحق عِصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم ، حسن الحذو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم ، خفى المغاص فى واديهم ، ظاهر الإطلال على ناديهم ، هذا مع شعبة من الجنون ، وطائف من الوسواس .

وأما ابن حجاج فسخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريع فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قرضه مثال ، على أنه قويم اللفظ ، سهل الكلام . . . وهو شريك ابن سُكّرة فى هذه الغرامة (الخسارة) ، وإذا جد أقعى ، وإذا هزل حكى الأفعى .

وأما السلامى فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفى السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه لَيْطة بالقلب ، وعبث بالروح ، وبرد على الكبد .

وأما الحاتمى[1] ، فغليظ اللفظ ، كثير العُقَد ، يحب أن يكون بدويا قُحًّا ،

---

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمى ، صاحب الرسالة الحاتمية فيما جرى بينه وبين المتنبى مات سنة ٣٨٨ .

وهو لم يَتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما فى الجفوة ، وقلة السلاسة .

وأما ابن جَلَبَات[1] فمجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزَّوَق (التزويق) ، قصير الرشاء ، كثير الغثاء .

وأما الخالع[2] فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى الطريقة ، متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحيِّر ، قريب من فرصة المتخيِّر .

وأما مسكويه[3] فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطىء السبك ، مشهور المعانى ، كثير التوانى ، شديد التوق ، ضعيف الترقى ، يردأ كثر مما يَصْدُر ، ويتطاول جهده ثم يقصر »[4] .

كما كان من أكبر شعراء هذا العصر فى بغداد الشريف الرضى ؛ وقد تقدم القول فيه .

* * *

واشتهر من شعراء البصرة فى هذا العصر البويهى ابن لَنْكَك البصرى . وقد رأى غيره من الشعراء ينفق سوقه وهو خامل ، مع أدبه وظرفه ، فأكثر من ذم الدهر ، وشكوى الزمان ، وهجاء من نجح من الشعراء ، وهو فى المقطوعات القصيرة أجود منه فى القصائد الطويلة .

* * *

---

(١) هو أبو القاسم على بن جلبات ، شاعر عراقى مدح الخليفة القادر بالله والوزير سابور بن أردشير .

(٢) هو أبو على الحسن بن على الخالع من شعراء الوزير سابور بن أردشير .

(٣) عده أبو حيان من الشعراء أيضاً كما هو من الفلاسفة والمؤرخين .

(٤) انظر الإمتاع : ١/١٣٤ وما بعدها ، وتجد نماذج لهؤلاء الشعراء ما عدا مسكويه فى الجزء الثانى من اليتيمة للثعالبى .

ونبغ فى العهد البويهى أربعة من كبار الكتاب ، اثنان فى الجزء الفارسى الجنوبى ، وهما : ابن العميد ، والصاحب بن عبّاد ، وسيأتى الكلام فيهما ، واثنان فى العراق ، وهما : أبو إسحاق الصابى ، وأبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف .

فأما الصابى فهو إبراهيم بن هلال الحرّانى الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة المطبوعة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ، وقد ظل محافظاً على دينه الوثنى ، رغم ما خوطب ومنّى ووعد بالوزارة إذا هو أسلم ، فى ملاطفة للمسلمين ومجاراتهم والاحتفال بشعائرهم ، فكان يصوم رمضان ، ويحفظ القرآن — كان مع صابئيته محبوباً من عظماء المسلمين ، مقرباً إليهم ، مبجلا موقّراً ، كالصاحب ابن عباد ، والوزير المهلبى . وقد حكى ياقوت عنه أنه قال : « راسلت المتنبى فى أن يمدحنى بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بينى وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال المتنبى للوسيط : قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولكن إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعنى الوزير المهلبى) وتغير عليك ، لأنى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد عن شعرى عوضاً » .

وقد كان الصابى يناصر عز الدولة على عضد الدولة ، فلما انتصر عضد الدولة وقتل عز الدولة قبض على الصابى وحبسه وأراد إلقاءه تحت أرجل الفيلة ، فتشفعوا له فشفع ، ولكن لم يزل فى نفسه منه ، وأمره عضد الدولة أن يؤلف له كتابا فى أخبار الدولة البويهية ، فعمل له الكتاب « التاجى » . وقد وشى بعض الناس إلى عضد الدولة أن الصابى سئل وهو يكتب هذا التاريخ ماذا

تصنع ، فقال : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » ؛ فقبض عليه ، وحبس أربع سنين ، ثم خرج وقد ساء حاله ، ومات ببغداد سنة ٣٨٤ عن إحدى وسبعين سنة .

وقد كان يعد من أعظم كتاب عصره ، وأسلوبه — كما تدل عليه رسائله — فقرات متساوية ، مسجوعة أحياناً ، مزدوجة أحياناً . وقد وصفه ابن الأثير بأنه إمام الكتّاب فى عصره ، وأنه يجيد فى الكتابة الرسمية (السلطانيات) ، ويقصر فى الإخوانيات ، وأخذ عليه تكراره الفقرات فى معنى واحد كقوله : « لا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها » .

ولما مات رثاه الشعراء ، ومنهم الشريف الرضى فى قصيدته المشهورة :

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادى

يقول فيها :

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا ... أنَّى ومثلك مُعْوِز الميلاد
مَن للممالك لا يزال يلمها ... بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزل رماحها ... ويرد رَعْلتها[1] بغير جِلاد
وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ ... مرهوبة الإصدار والإيراد
حمر على نظر العدو كأنما ... بدم يخط بهن لا بمداد
يُقدمن إقدام الجيوش وباطل ... أن ينهزمن هزائم الأجناد
إن الدموع عليك غير بخيلة ... والقلب بالسلوان غير جواد

وأما أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فكان يعد من أكبر كتاب عصره ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة بعده عدة مرات

---

(١) الرعلة : القطعة من الفرسان .

لأولاده ، وهو فى أسلوبه أقل التزاماً للسجع وإن كان يزاوج ، وفى إخوانياته يمزج شعره بنثره[١] .

ومن أشهر الكتاب البويهيين أبو حيان التوحيدى ، وقد كان من نوع آخر ، فكتابته يعنى فيها بالموضوع كما يعنى بالشكل ؛ وهو غزير العقل واسع العلم حسن الصياغة ، جيد السبك وبحق لقبوه بالجاحظ الثانى ، وقد وصل إلينا من كتبه الإمتاع والمؤانسة ، والمقابسات ، والبصائر ، ورسالة فى الصداقة ، وأسلوبه فيها أسلوب أدبى راق يحب الازدواج ويطيل البيان ، ويولد المعانى حتى لا يدع لقائل بعده قولا ، كثير المحفوظ ، واسع المعرفة ، له اتصال تام بالفلسفة ، والتصوف والأدب من شعر ونثر ، والتاريخ والسير ، خبير بأحوال الزمان . حمله البؤس على أن يتنقل فى الأمصار ، ويتصل بالعامة ، ومكنه أدبه أن يتصل بالوزراء كابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، فعرف من أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم الشيء الكثير ، ودوّن ذلك فى كتبه — وفى أسلوبه بعض الغموض إذا تعرض للمسائل الفلسفية لطبيعية الموضوع وعمقه ، وواضح كل الوضوح إذا تعرض للمسائل الأدبية والاجتماعية . وقد اتجه اتجاها لطيفا فى تدوينه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ما دار فى المجلس بينه وبين الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى ، كما دون فى كتابه المقابسات محاضر جلسات لكثير من العلماء وخاصة أبا سليمان المنطقى .

* * *

ونبغ فى الأدب واللغة أبو بكر محمد بن دريد الأزدى ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ ثم مكث بعُمَان اثنتى عشرة سنة ، ثم عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس

---

(١) انظر نماذج من كتاباته فى الجزء الثانى من اليتيمة .

وصحب ابنى ميكال وكانا واليين على فارس ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٣٠٨ ، وظل بها إلى أن مات سنة ٣٢١ وهى السنة التى تسلط فيها البويهيون على العراق .

وكان من أكبر علماء العربية ، مقدما فى اللغة والأدب ، ونبغ من تلاميذه كثيرون أشهرهم أبو على القالى وأبو سعيد السيرافى .

وعنه يروى أبو على القالى فى أماليه قصصاً أدبية رائعة ، هى أشبه أن تكون من وضع ابن دريد ، ويعدها « الحُصْرى » أساساً لمقامات بديع الزمان .

وله كتاب الجمهرة فى اللغة ، والمقصورة ، وكتاب الاشتقاق الخ ، وتفوق فى نواح كثيرة فى الأدب — فهو شاعر قصاص — وفى اللغة ، وفى النحو والصرف والأنساب .

وقد انطبعت صورته العلمية فى مؤلفَين كبيرين تتلمذا له ، وهما أبو على القالى صاحب الأمالى ناشر علم اللغة والأدب فى الأندلس ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، وكان من خاصة تلاميذه .

ثم أبو بكر بن الأنبارى كان من أعلم البغداديين لغة وأدباً ، وأكثر الناس حفظا للشعر والشواهد ، كما يعد من علماء القرآن والسنة ، وألف فى ذلك كله الكتب الكثيرة فى علوم القرآن ، وغريب الحديث ، والوقف والابتداء ، وفى اللغة كتاب الأضداد . وقد وصل إلينا من كتبه الدالة على غزارة علمه بالأدب واللغة شرحه للمفضليات ؛ مات سنة ٣٢٨ ، وكان كذلك شيخاً من أكبر الشيوخ الذين استفاد منهم أبو الفرج الأصفهانى .

* * *

وقد نبغ من مؤلفى الأدب فى العصر البويهى فى العراق أبو الفرج الأصفهانى مؤلف كتاب الأغانى ، متعة الأدباء على اختلاف العصور . ينتهى نسبه إلى آخر

خلفاء الأمويين مروان بن محمد . وقد ولد بأصبهان سنة ٢٨٤ ، ونشأ ببغداد ، وأخذ العلم والأدب والتاريخ عن ابن دريد ، وابن الأنبارى ، وابن جرير الطبرى وغيرهم ، وامتاز باطلاعه الواسع على الشعر والأغانى ، والأخبار والنسب ، كما كان ملماً بآلات الطرب ، وطرف من الطب والنجوم والأشربة ، ويقرأ الكتب المخطوطة ، ويأخذ عنها فيقول : نقلت من كتاب كذا .

وقد اتصل بالوزير المهلبى ، وحظى عنده . وألف كتباً كثيرة منها كتاب الأغانى وهو أمتعها . وقد قال : إنه ألفه فى خمسين سنة ، وكتاب القيان ، ومقاتل الطالبيين ، والإماء الشواعر والديارات الخ ، ومات فى بغداد سنة ٣٥٦ أو بعد ذلك .

وقد حظى كتابه الأغانى فى عصره وبعده إلى اليوم ؛ فقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة فأجازه بألف دينار ، وأعجب به الصاحب بن عباد ، وكان يستصحبه فى أسفاره ، وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف : « لم يكن كتاب الأغانى يفارق عضد الدولة فى سفره ولا حضره » .

كما كان من كبار رجال الأدب القاضى التنوخى ، وهو أبو القاسم علىّ ابن محمد التنوخى من أعيان أهل العلم والأدب ، تولى قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وكان إلى فقهه أديباً وشاعراً ظريفاً ، وكان من ندماء الوزير المهلبى وسماره ، « وكان الوزير المهلبى وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه ، ويتعصبون له ، ويعدونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ، وكان فى جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة » الخ[1] ، وكان فقيها على مذهب أبى حنيفة

---

(١) ابن خلكان : ١/٥٠٣ .

معتزلياً له شعر كثير، ومنه مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد، ومات بالبصرة سنة ٣٤٢ .

وقد أنجب ابنه أبا عليّ المُحسّن التنوخي، وكان أديباً شاعراً أخبارياً ؛ وهو صاحب كتاب «نِشْوار المحاضرة» ، أراد به أن يحقق فكرة لطيفة وهي أن يدون تاريخ الأحداث التي تَدور في المجالس وعلى ألسنة الرواة ولم تدوّن في الكتب ، كما أنه ألف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٤ .

وقد أنجب هذا أيضاً أبا القاسم عليّ بن المحسِّن التنوخي ، وكان مثل أبيه وجده فقيهاً شاعراً أديباً ؛ وكان هو والخطيب التبريزي يصحبان أبا العلاء المعرى ويأخذان عنه . تولى على بن المحسن القضاء في عدة نواح ، وإليه كتب أبو العلاء قصيدته التي أولها :

☆ هات الحديث عن الزوراء أوهيتا ☆

مات سنة ٤٤٧ .

فأسرة التنوخي من خير الأسر العراقية علماً وأدبا وتأليفا .

ثم الشريف المرتضى على بن الطاهر ، كان نقيب الطالبيين في بغداد ، وهو أخو الشريف الرضي ؛ وكان إماما في علم الكلام والأدب والشعر . وقد وصل إلينا من أهم تآليفه كتاب « أمالى المرتضى » ، وهو ستة وخمسون مجلساً ، مملوء بالفوائد القيمة في التفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ممزوج بعضها ببعض ، ناح فيه منحى الاعتزال والتشيع معاً ، ويستطرد لذكر تراجم لرجال المعتزلة وبعض الشعراء والأدباء ؛ ويظهر أنها دروس أملاها على بعض تلاميذه ، وهي تفيدنا فائدة كبرى في مناهج الدروس في ذلك العصر .

وقد توفى ببغداد سنة ٤٣٦ .

ثم أبو سعيد السيرافى ، وكان من أوسع العلماء ثقافة فى علوم القرآن والحديث والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر .

كان أبوه مجوسياً فأسلم — وكان أبو سعيد هذا من أعلم الناس بالعربية مع زهد وصلاح وعفة ؛ صنف تصانيف كثيرة أكبرها شرح كتاب سيبويه ، وكثر تلاميذه والأخذ منه ، والانتفاع به فى فروع العلم المختلفة — وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، « وكان بينه وبين أبى الفرج الأصفهانى ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس »[1] ، ومات ببغداد سنة ٣٦٨ — وتتلمذ له أبو حيان التوحيدى ، وهو يحكى عنه فى كتابه الإمتاع والمؤانسة بعض علمه فى اللغة والنحو ، ويروى ما يرويه عنه فى إجلال وتوثيق .

وقد كان أبو سعيد وهو فى بغداد مقصد الأمراء والعظماء فى الأمصار المختلفة يبعثون إليه يسألونه عما أشكل عليهم ؛ فكتب إليه نوح بن نصر السامانى سنة ٣٤٠ كتابا خاطبه فيه بالأمام ، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة أغلبها ألفاظ لغوية ، وأمثال يسأله فيها عن صحة نسبتها إلى العرب — وكتب إليه الوزير البلعمى كتابا خاطبه فيها بإمام المسلمين سأله فيه عن مسائل فى القرآن — وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام سأله فيه عن مائة وعشرين مسألة أكثرها فى القرآن والحديث .

وكتب إليه ابن حنزابة الوزير المصرى كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، سأله فيه عن ثلثمائة كلمة من فنون الحديث .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله

---

(١) وفيات الأعيان

عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلة فى العربية ، وثلثمائة بيت من الشعر ، وأربعين مسألة فى الأحكام ، وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلمين — فأجاب عنها كلها ؛ وتقع الأسئلة والأجوبة فى نحو ألف وخمسمائة ورقة .

ثم هو صاحب المناظرة الكبرى التى جرت بينه و بين أبى بشر متَّى فى المفاضلة بين النحو والمنطق . وقد حكاها كلها أبو حيان التوحيدى فى الجزء الأول من الإمتاع . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب أخبار النحويين البصريين .

وكان نظير أبى سعيد السيرافى وقرينه فى النحو والصرف أبو على الفارسى وهو من أعلام الدولة البويهية ، ولد بفارس وأتى بغداد سنة ٣٠٧ ، وأقام بها يشتغل بالعلم ؛ ثم رحل إلى حلب وأقام عند سيف الدولة فى حلبته ، وله مع المتنبى مناظرات ، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة وعلت منزلته عنده ، وألف أبو على له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو . وله كتاب الحجة فى القراءات ، ومنه نسخة مخطوطة فى دار الكتب ، وله كتب أخرى كثيرة . وقد رحل إلى بلاد كثيرة ، وكان يدوّن فى كتاب ما يجرى له من مناظرات فى كل بلد ، فكتاب المسائل الحلبيات ، والبغداديات ، والشيرازيات الخ .

وقد وازن أبو حيان التوحيدى بينه و بين أستاذه أبى سعيد السيرافى ، ففضل السيرافى لسعة علمه ودينه وتقواه ، وقال إن أبا على كان يشرب و يتخالع و يفارق هَدْى أهل العلم .

وفى الحق أن السيرافى كان أشبه بالمحافظين ، يروى ما يسمع ، و يحفظ ما يروى على كثرة ما يروى وما يحفظ فى ثقة وأمانة ، وأن أبا على كان حراً مبتكراً قيّاساً ، فتح للناس هو وتلميذه ابن جنى أبواباً جديدة فى النحو والتصريف لم يُسبقا إليها كما تقدم ؛ وقد توفى أبو على الفارسى فى بغداد سنة ٣٧٧ .

وثالث الثلاثة المشهورين فى هذا الباب أبو الحسن الرُّمَّانى جمع بين النبوغ فى النحو وعلم الكلام ، وهو تلميذ ابن دريد أيضاً فى الأدب . وقد قال فيه أبو حيان عند الموازنة إنه عالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق ، وعِيبَ به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة وأظهر براعة . وقد عمل فى القرآن كتاباً نفيساً ، هذا مع الدين والعقل الرزين ؛ توفى سنة ٣٨٤ .

ومن خير ما أخرجته بغداد فى هذا العصر ابن النديم ، وهو محمد بن إسحاق النديم — كان وراقا ، وكان عالماً ، فاستخدم علمه وصناعته فى ناحية لم نعرف أن التفت إليها أحد قبله ، وهى أن يحصى جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة ، والمؤلفة فى جميع أنواع العلوم ، ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها ، ويذكر طرفا من تاريخ حياتهم ، ويعين تاريخ وفاتهم ؛ فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألّف الناس إلى قريب من نهاية القرن الرابع ، وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون فى حياتهم العقلية والعلمية فى ذلك العصر ، وأكثر هذه الكتب التى وصفها قد ضاعت بتوالى النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية ، ولا سيما فى غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضاً كما ضاعت معالمها .

والناظر فى كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمى الذى قام به المسلمون فى هذه العصور ، وكثرة المؤلفين والمترجمين فى جميع نواحى العلم ، كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبه للوقوف على كل شىء حتى فى أدق مسائل الأديان المختلفة ، والمذاهب المتنوعة ، ويستقصى البحث عن أحوال الصين والهند ، كما يستقصى البحث عن الشام والعراق ، وهو فى كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسائلهم ويدقق فى أخبارهم ، ثم يدوّن ما يصل إليه علمه .

وأسلوبه فى كتابته أسلوب موجز يكره اللغو والمقدمات ، ويحب أن يهجم على موضوعه من غير مواربة ولا تمهيد ، حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لأن معناها مكرر أو عبارتها مترادفة . ثم هو يتحرى الصدق ، ويميز بين ما رأى وما لم ير ، وينقل ذلك إلى القارئ فى أمانة .

وقد نص المؤلف على أنه ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧ ، وفى الكتاب ذكر لعلماء ماتوا بعد الأربعمائة كابن نباتة التميمى — فلا بد أن بعض العلماء زادوا فى نسخته ، لأنه مات سنة ٣٨٥ كما ذكر ابن النجار ، أو سنة ٣٧٨ كما ذكر المرزبانى[١] .

* * *

فإذا نحن انتقلنا من العراق إلى الجزء الجنوبى من فارس ، وهو الجزء الذى حكمه البويهيون أيضاً ، وجدنا ثروة كبيرة فى العلم فى جميع فروعه ، وفى الأدب والشعر ؛ فشيراز فى الجنوب والرى فى الشمال ، كانا من أهم العواصم السياسية والعلمية والأدبية ؛ واشتهر من بلاد الجنوب سيراف ، وفيروزاباد ، وأرزنجان ، واصطخر ، وعاصمتها شيراز ؛ كما اشتهر من بلاد الشمال وهى بلاد الجبل أصبهان ونهاوند ، وهمذان ، ودِينَوَر ، وقومس ، وبسطام وعاصمتها الرى ، وأخرجت هذه البلاد من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والصوفية والأدباء ما لا يحصى كثرة .

فاشتهر من المحدثين والفقهاء أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى الرازى (نسبة إلى دولاب قرية بالرى) ، له تآلف فى الحديث والتاريخ اعتمد عليها المحدثون ؛ وتوفى سنة ٣٢٠ .

وأبو محمد عبد الله بن حَيَّان الأصفهانى محدّث أصفهان ، وهو إمام فى الحديث ، له كتاب السنة وفضائل الأعمال ، توفى سنة ٣٦٧ .

---

(١) انظر ما كتبته عنه فى مقدمة فهرست ابن النديم الطبعة المصرية .

وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيي بن مَنْدَه الأصفهانى ، كان يلقب بمحدث الشرق ؛ توفى سنة ٣٩٥ .

وأبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم بن إدريس الحنظلى حافظ الرى له المصنفات الكثيرة فى الحديث والفقه ؛ توفى سنة ٣٢٧ .

والقاضى يوسف بن أحمد بن كَجّ الدينَوَرى أحد أئمة الشافعية ، قدم إليه أبو على السنجى بعد أن رأى أبا حامد الإسفرائينى فى بغداد ؛ فقال له أبو على : إن الاسم لأبى حامد ، والعلم لك ؛ فقال له : ذاك رفعته بغداد وحطتنى الدينور ، قتل بها سنة ٤٠٥ .

ويطول بنا القول لو عددنا مشاهير المحدِّثين والفقهاء فى هذا الإقليم ؛ ثم كان لعضد الدولة قبل انتقاله إلى بغداد ، وابن العميد فى إقامته بالرى وزيراً ، وابن عباد كاتباً ووزيراً فى أصفهان والرى ، أثر كبير فى نشاط الحركة الأدبية والعلمية نشاطاً عجيبا .

لقد تقسم الأمراء الثلاثة البويهيون مملكتهم ، فكان عماد الدولة صاحب بلاد فارس والأهواز ، وركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، ومعز الدولة صاحب العراق ؛ وجاء عضد الدولة بن ركن الدولة فضم العراق إلى ملكه ، كما ضم إليه ملك البويهيين جميعاً تقريباً ، وضم إليه الموصل وبلاد الجزيرة وسمى بالملك ، وهو أول من سمى بذلك فى الإسلام ، وكان يقيم أحيانا فى الرى ، وأحيانا فى شيراز ؛ فلما فتح العراق كانت عاصمة ملكه بغداد .

وابن العميد كان وزيراً لركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، وكان ابن العميد مركزه الرى ، واستمر وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتى مات سنة ٣٦٠ .

وابن عباد كان كاتباً عند ابن العميد ، ولأجل تلمذته لابن العميد وصحبته

له سمى الصاحب ، وظل الصاحب يكتب لابن العميد فى الرى ؛ ثم اختاره ابن العميد ليكون مربياً لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة وولى عهده ، وكانت إقامته فى أصفهان ؛ ثم أصبح وزيراً لمؤيد الدولة إلى سنة ٣٧٣ ، ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفى سنة ٣٨٥ ، وخَلَفَ ابن العميد فى مركزه فى الوزارة وفى إقامته فى الرى .

فهؤلاء الأعلام الثلاثة : عضد الدولة البويهى ، والوزيران ابن العميد ، وابن عباد ، جعلوا هذا القسم من فارس فى منتهى الخصب العلمى والأدبى ؛ إذ كان كل منهم على إمارته أو وزارته عالماً أديباً ، يرى أول ما يجب عليه أن يزين بلاطه ومجاسه بالعلماء والأدباء .

فعضد الدولة كان إلى ملكه الواسع مثقفاً ثقافة واسعة ، يأخذ علم النحو واللغة عن أبى على الفارسى ، وهذا يؤلف له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو ، وله معه مناقشات طريفة ؛ ويقصده الشعراء فيجيدون الشعر لمعرفتهم بتذوقه له ، فقصده المتنبى أيام كان عضد الدولة بشيراز ، وقال فيه :

وقد رأيت الملوك قاطبـــة ... وسرت حتى رأيت مولاها
ومَن مناياهم براحتـــه ... يأمرها فيهم وينهـــاها
أبا شجاع بفارس عضد ... الدولة فنّاخسرو شهنشاها
أســـاميا لم تزده معرفة ... وإنمـــا لذة ذكرناها

ثم أنشده قصيدة نونية ذكر فيها شِعْب بَوّان ، وهو موضعٌ نزه قرب شيراز :

يقول بشعب بوان حصانى ... أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى ... وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت إذا رأيت أبا شجاع ... سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق ... إلى من ما لَه فى الناس ثان

ثم مدحه بقصائد أخرى . وآخر شعره أيضاً كافيته التى يقول فيها :

أروح وقد ختمت على فؤادى بحبك أن يحل به سواكا

ومدحه غير المتنبى كثير من الشعراء .

وعضد الدولة هو الذى بنى البيمارستان العضدى ببغداد ، وغرم عليه المال الكثير ، وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه[1] .

وابن العميد تفوّق فى علوم كثيرة منها الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلٰهيّات والطبيعة والتصوير ، وكان أديباً واسع الرواية لأشعار العرب .

قال مسكويه فى كتابه تجارب الأمم ، وكان قيم دار كتب ابن العميد فى بعض وقته : كان هذا الرجل (ابن العميد) ... أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظا للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . . . فأما تأويل القرآن ، وحفظ مشكله وتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة ، وأعلى رتبة ؛ ثم إذا ترك هذه العلوم ، وأخذ فى الهندسة والتعاليم لم يكن يدانيه فيها أحد ؛ فأما المنطق ، وعلوم الفلسفة والإلٰهيّات منها خاصة ، فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته . . . ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة كعلوم الحيل (الميكانيكا) التى يحتاج إليها فى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الأثقال ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على الحصون . . . ثم معرفته بدقائق علم التصاوير ؛ ولقد رأيته يتناول من مجاسه — الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه — التفاحة وما يجرى مجراها فيعبث بها ساعة ، ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ،

---

(١) وفيات الأعيان فى ترجمته .

وفى الأيام الـكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتّى له مثلها » .

وقد قصده المتنبى أيضاً ، ومدحه وقال فيه :

مَن مُبلغ الأعراب أنى بعدهم ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملـكا متبـــديا متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنـا نسق الحساب مقدما ... وأتى فذلك إذا أتيت مؤخرا

بأبى وأمى ناطق فى لفظـــه ... ثمن تباع به القلوب وتشترى

قطف الرجال القول وقت نباته ... وقطفت أنت القول لمـا نوّرا

والصاحب بن عباد كان يعتقد مذهب الاعتزال و ينصره ، و بذلك اعتنق كثير من أهل هذه البلاد الاعتزال ، ولم يكن كأستاذه ابن العميد فى حبه للفلسفة وأهلها ، إنما كان متبحرا فى العلوم الشرعية واللسانية والأدبية ؛ تعلم الحديث كأهل الحديث ؛ وكان عالما بالتوحيد والأصول وألف فيهما ؛ وكان علمه باللغة واسعا ، قالوا إنه ألف فيها كتاب المحيط فى عشرة مجلدات .

وكان له المنزلة العظمى فى الوجاهة والصدارة ، فاجتمع له من الأدباء ما قل أن يجتمع لغيره ، قال الثعالبى : « احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنه فى الأخذ برقاب القوافى وملك رق المعانى » .

أنجبت هذه البلاد بتشجيع هؤلاء وأمثالهم نوابغ من العلماء والأدباء .

ففى الفلسفة كان على رأس الفلاسفة أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (نسبة إلى الرى) مولده ومنشؤه بالرى ولذلك عددناه منها ، و إن تنقل فى بلاد كثيرة ،

وهو من أكبر فلاسفة المسلمين ومتفوقيهم فى الطب النظرى والعملى والإلهيات والكمياء والأخلاق .

وقد ألف فى كل ذلك كتبا كثيرة أوصلها بعضهم إلى ما يقرب من مائتين . وله فضل اكتشاف الكحول وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) أثناء بحثه فى إمكان تحويل المعادن إلى ذهب ؛ كما ألف فى الطب كتاب الحاوى والطب المنصورى[1] الخ . وكانت كتبه عمدة من تعلم بعده — وكانت أكثر إقامته فى الرى وأقام زمنا عند السامانيين ، كما عهد إليه فى الإشراف على البيمارستانات وتنظيمها ، وقد اشتهر بين أهل زمانه بالإتيان بالعجائب فى الطب .

وقد بقى لنا من كتبه نحو سبعة عشر كتابا ؛ وأخيراً نشر الأستاذ كراوس مجموعة رسائل فلسفية تدل على جانب آخر من جوانبه العلمية ، فمنها رسالة فى الطب الروحانى ، ويعنى به تهذيب الأخلاق ، وهو لا شك كان من أكبر ما اعتمد عليه مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق ، وقد قال فى صدره إنه سماه بالطب الروحانى ليكون قرينا للكتاب المنصورى الذى غرضه فى الطب الجسمانى ؛ وقد قسمه إلى عشرين فصلا منها فصل فى فضل العقل وقمع الهوى وردعه ، وتحليل لبعض الرذائل : كالحسد والغضب والبخل ، وختمه بفصل فى رسم السيرة الفاضلة ، ثم فى الخوف من الموت .

ومن رسائله هذه القيمة رسالة فى اللذة وتحليلها معتمدا فى ذلك على ما كتبه فلاسفة اليونان فيها .

ومن هذه الرسائل رسالة فى مناظرة بين الرازيين وهما : أبو بكر الرازى هذا وأبو حاتم الرازى ، وكلاهما من الرى ، ولكن كانت طبيعة أبى بكر الرازى

---

(١) ألفه لمنصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد حاكم الرى من سنة ٢٩٠ إلى سنة ٢٩٦ .

طبيعة فلسفية حرة التفكير مؤمنة بسلطان العقل ، وكان أبو حاتم الرازى من كبار دعاة فرقة الإسماعيلية الشيعية ، «واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمى ، ولعب دورا عظيما فى الشؤون السياسية فى طبرستان وأذربيجان وفى الديلم ، ولا سيما فى أصفهان والرى حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة » .

وقد ألف أبو حاتم الرازى كتابا أسماه « أعلام النبوة » للرد على أبى بكر الرازى ، وقد رماه فيه بالإلحاد ؛ وكانت المناظرة تدور حول النبوة ، وهل هى ضرورية — هذا فى أحد المجالس — وفى مجلس آخر كانت المناظرة تدور حول ما ذهب إليه أبو بكر الرازى من قِدم الأشياء الخمسة : البارى ، والنفس ، والهيولى والمكان والزمان ، فرد عليه أبو حاتم فى ذلك الخ الخ .

وقد كانت هذه المناظرات فى مجالس بالرى .

وعلى الجملة فقد كان أبو بكر الرازى شخصية ممتازة قل نظراؤها ؛ وقد اختلف فى سنة وفاته على أقوال متباينة أقربها سنة ٣٢٠ ، وقال ابن خلكان إنه مات سنة ٣١١ .

كما اشتهر من الفلاسفة فى هذه البلاد أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخَمّار ، وكان نصرانياً ؛ وقد نقل كتباً كثيرة من السريانية إلى العربية ، واشتهر بالطب ، كما ألف فى المنطق والطب والإلهيات .

ثم الفيلسوف الأديب أبو الفرج على بن الحسين بن هِنْدُو ، كان من تلاميذ ابن الخمار ، ألف فى الطب ، وألف المدخل فى علم الفلسفة ، ووصل إلينا من كتبه « الكلم الروحانية » ، وهى مجموعة لطيفة من الحكم اليونانية ، كما كان شاعراً معدوداً من رجال البلاغة الممتازين .

* * *

ثم إن ابن العميد وابن عباد أوجدا فى هذا الإقليم حركة أدبية رائعة ؛ فقد جمعا بين وجاهة المنصب ووجاهة الأدب ، فهما وزيران خطيران وسياسيان كبيران ، وأديبان عظيمان ، فاستخدما كل ذلك فى إعلاء شأن الأدب .

فكان ابن العميد مولعاً بالأدب ، وله مذهب فى الكتابة أُخذ عنه وقُلد فيه ، عماده التأنق فى اختيار الألفاظ ، والتكلف فى البديع ، ومحاربة التطبع بالتصنع ؛ وهذا النوع من الأسلوب قد يحسن فى الجمل القصار ، والقول الموجز ، ولكن ابن العميد كان يطنب ، والإطناب مع التصنع يستوجب الملل ، فالإسهاب فى الجاحظ حلو سائغ لأنه يجرى مع النفس ، ولكنه عند ابن العميد يُتَجرع لأنه يتصنع ؛ ومع هذا فالناس فى زمنه و بعد زمنه كانوا يعدون هذا الأسلوب هو المثل الأعلى ، لأن حياتهم الاجتماعية كما أسلفنا حياة مصطنعة متكلفة ، ولأن الرياسة والعظمة السياسية والمنصب الكبير يسبغ على الأدب الذى يصدر من رجالها ثوبا من الأبهة والعظمة ، فلا يستطيعون التمييز فى دقة بين قيمة الأدب الذاتية ، وقيمته المستمدة من وجاهة صاحبها ؛ وهذا يصدق على ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، ثم من بعد على القاضى الفاضل ، ولهذه العظمة المزدوجة قالوا : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » ، والناس بعدُ قد قلدوا هذا الأسلوب ، وعدوه المثل الذى يحتذى .

ومهما يكن ؛ فقد كان ابن العميد مصدر خير على الحركة الأدبية ، فكان كريماً يغدق على الأدباء والشعراء ، و يقترح موضوعات الأدب عليهم ، و ينافس بينهم ، و يجزل العطاء لمن أحسن منهم ، فيجتمع فى مجلسه بالرى أبو الحسين بن فارس ، وأبو عبد الله الطبرى ، وأبو الحسن البديهى ، و يعرض فى المجلس أترجة حسنة ، فيعرض عليهم ابن العميد أن يتباروا فى وصفها ، و يشترك معهم فى ذلك ، وهكذا .

ويقصد المتنبي ، وابن نباتة السعدى ، وغيرهما من الشعراء بمدائحهم .

وينشئ مكتبة عظيمة كانت أعز شيء عليه ، يجعل عليها قيّمًا عالما كبيراً هو مسكويه .

كذلك كان الصاحب بن عباد ، نصر الاعتزال ، وقرّب إليه المعتزلة ؛ إذ كان معتزلياً ، ومن شعره :

تعرفت بالعدل فى مذهبي ودان بحسن جدالى العراق
فكُلّفت فى الحب ما لم أُطق فقلت بتكليف ما لا يطاق

وكان يكتب إلى البلاد التابعة له يدعو فيها إلى الاعتزال .

هذه ناحية ؛ وناحيته الأخرى الناحية الأدبية ، وكان على طريقة أستاذه ابن العميد فى أسلوبه ، وفى كرمه وإغداقه على الأدباء ، فاجتمع له من الشعراء أبو الحسن السّلَامى ، والبديهى ، وأبو سعيد الرستمى . وأبى حسن الجوهرى ، وابن القاشانى الخ ؛ وكذلك يقترح عليهم ما يعرض من موضوعات ؛ فيغنم فى موقعة حربية فيلا ، فيجمع الشعراء ويطلب إليهم أن يقولوا القصائد فى وصفه على وزن وقافية عمرو بن معديكرب :

أعددت للحَدَثان سـا بغة وعَـدّاء عَلَندى

فيكون من ذلك شعر كثير فى الفيل ، كما يقترح بعض الموضوعات الهزلية ؛ فقد مات برذون أبى عيسى بن المنجم ، فاقترح على الشعراء القول فيها ، فكان من ذلك مجموعة سميت البرذونيات[1]

✡ ✡ ✡

(١) أنظر البرذونيات والفيليات فى يتيمة الدهر : ٣/٥٥ ، وانظر كتابى ابن العميد ، وابن عباد لخليل بك مردم .

واشتهر فى هـذه البلاد من علماء اللغة والنحو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازى ، كان إماماً فى اللغة ، وله كتاب المجمل ، وكتاب حلية الفقهاء ، وله مسائل فى اللغة تعايى بها الفقهاء (كالألغاز) ، ومنها اقتبس الحريرى أسلوبه فيما وضع من المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية[١] ، وأقام مدة بالرى ، ومدة بهمذان ، وهو أستاذ بديع الزمان ، ومات بالرى سنة ٣٩٠ ، وكان من رجالات ابن العميد . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب الصاحبى ، نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب يحتوى بحوثا قيمة فى أصل اللغة العربية وخصائصها ، واختلاف لغاتها باختلاف القبائل إلى غير ذلك .

كما كان من رجال البلاغة والأدب فى هذا الإقليم أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، أصله من جرجان ، وطوف فى صباه فى كثير من البلاد ، واقتبس العلوم والآداب ؛ قال فيـه الثعالبى : « هو حسنة جُرجان ، وفرد الزمان . . . يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . وبعـد أن طوف فى بلاد العراق والشام وغيرها يأخذ من علوم أهلها نزل فى ساحة الصاحب ابن عباد ، فقلده قضاء جرجان ، ثم قضاء الرى ، فلم يزل قاضى الرى حتى مات .

ولمـا أعرض الصاحب بن عباد عن المتنبى لأنه أبى أن يمدحه كما مدح عضد الدولة وابن العميد ، وعمل الصاحب رسالته فى إظهار مساوى المتنبى ، ألف أبو الحسن الجرجانى هذا كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، كان فيه قاضياً عادلا ، وأديباً فاضلا ، وناقداً بارعا .

ومن أكبر حسنات على بن عبد العزيز هذا تلميذه ومواطنه عبد القاهر الجرجانى صاحب كتاب دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وهو مؤسس علم البلاغة فى هذين الـكتابين على نمط لم يعرف قبله . وقد استفاد من أستاذه على

(١) وفيات الأعيان : ١/٤٩ .

ابن عبد العزيز قوة الأسلوب وجزالته ، و بصره بضروب النقد ؛ قال ياقوت : « وكان (عبد القاهر) إذا ذَكر أستاذه فى كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه » .

وكذلك كان من هذا الإقليم أبو هلال العسكرى (نسبة إلى عسكر مُكْرَم) وهى بلد من بلاد (خوزستان) قريبة من أصفهان . وقد أُخذ عنه العلم فى الرى حيناً وفى الأهواز حيناً وفى العسكر حيناً ؛ وله التآليف القيمة : ككتاب الصناعتين ، وديوان المعانى ، وجمهرة الأمثال ، والأوائل ، والتفضيل بين بلاغة العرب والعجم الخ ، مات نحو سنة ٣٩٥ .

* * *

وعلى الجملة فقد خدمت الدولة البويهية العلم والأدب خدمة كبرى ، ومع أنهم فرس الأصل وأكثر وزرائهم كابن العميد وابن عباد من الفرس ، فقد كانوا يتعصبون فى العلم والأدب للسان العربى .

وكان كثير من البويهيين أدباء مثقفين ثقافة واسعة ، أشهرهم فى ذلك عضد الدولة ؛ فكان يشارك فى عدة فنون منها الأدب ، وكذلك عز الدولة أبو منصور بختيار ، وتاج الدولة ابن عضد الدولة ، ولهم أشعار أورد بعضها الثعالبى فى اليتيمة . ثم نجد ظاهرة فى هذه الدولة واضحة ، وهى أن أساس الاختيار للوزارة كان عماده شيئين : القدرة الإدارية ، والقدرة البلاغية ؛ فكان الوزراء فحول أدب أيضاً ، فكان من أشهر وزراء هذه الدولة ابن العميد ، وابن عباد ، والوزير المهلبى ، وسابور بن أردشير ، وابن سعدان ، وكل من هؤلاء كان عمادا عظيما للأدب والأدباء والعلماء ؛ وكانت لهم مجالس تموج بالعلم والأدب ؛ فابن العميد وابن عباد قد رأينا أدبهما ومجالسهما ومن كان يحتف بهما من العلماء والأدباء .

والوزير المهلبي كان وزيراً لمعز الدولة وهو من نسل المهلب بن أبي صفرة ، « وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به ، وكان غاية فى الأدب والمحبة لأهله »[1] ، وله مجالس تروى فى كتب الأدب فيها الشراب وفيها الشعر وفيها التفنن فى الأناقة والترف ، وحسبه فخرا أن كان من رجاله أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، والقاضى التنوخى .

وابن سعدان وزير صمصام الدولة ، كان له مجلس يجمع ابن زرعة الفيلسوف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق ، وأبا الوفاء المهندس الرياضى الكبير ، وابن حجاج الشاعر الماجن ، وأبا حيان التوحيدى ، الذى كان له من السمر مع هذا الوزير ما جمعه فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، وله ألف رسالة الصداقة والصديق — وكان ابن سعدان يباهى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الكبراء الآخرين ، أمثال المهلبى وابن العميد وابن عباد ، فيقول فى أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير . . . وإن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد منهم ، وإن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم ، وإن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل » ؛ ومن هذا ترى أن هؤلاء الوزراء كانوا يتنافسون فى اختيار خيرة العلماء والأدباء ليكونوا حولهم — وحسبنا ما فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ، لنعرف منه مقدار ثقافة الوزراء وما يشغلهم من مسائل العلم والأدب .

وسابور بن أردشير كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ، فكان هو نفسه أديباً شاعراً ، وقصده الشعراء أمثال أبى الفرج الببغاء ، وأبى إسحاق الصابى ؛ وقد أنشأ ببغداد دار كتب قيمة ، قال فيها ياقوت : « لم يكن فى الدنيا

---

(١) ابن خلكان : ١/٢٠٠ .

أحسن كتبا منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة ؛ وهذه الدار هى التى أشار إليها أبو العلاء المعرى بقوله فى قصيدته :

وغنّت لنا فى دار سابور قينة ... من الورق مطراب الأصائل مهياب

ففضْل البويهيين ملوكهم ووزرائهم على الحركة العلمية والأدبية لا يقدر ، لولا أن ما كان بين بعضهم و بعض من خصومات وحروب قسم العلماء والأدباء كذلك ، والتجأ كل فريق إلى رئيس ، فكان إذا انهزم نكل الغالب بأتباع المغلوب ، فلقى كثير من أهل الفضل والأدب من المصادرة والتعذيب والقتل ما يطول ذكره .

* * *

وكان على حدود الدولة البويهية فى فارس الدولة الزيارية ، أول ملوكها مرداويج بن زِيَار ، ملكت جرجان وطبرستان ، وكانت فى خصومة مع البويهيين . واشتهر من رجالها فى خدمة الأدب أمير كان كابن العميد وابن عباد فى أنه أديب كبير ، ومثقف واسع الثقافة ، ومشجع بمنصبه وجاهه للعلماء والأدباء ، وهو الأمير قابوس بن وَشْمَكِير ؛ وكان أميراً كبيراً أبوه وشمكير ، وعمه مرداويج كانا ملوك الرى وأصبهان قبل بنى بويه ، ثم كان قابوس والياً على جرجان وطبرستان ، وأنفذ إليه الخليفة الطائع العهد ، ولقَّبه شمس المعالى ، وكان جباراً قويا يسرف فى القتل ويتجاوز الحد ، سفاكا للدماء وخاصة فى حاشيته وجنوده ، فكان لا يسمع شكوى فى أحد منهم إلا قتله . فملوه وعزلوه ، ومع هذا كان يحب العلماء والأدباء ويشجعهم ، وكان فيه فضيلة لم نسمع مثلها من ملوك عصره وأمرائه ، وهو أنه لم يكن يجيز إنشاد المدائح فى وجهه و بين يديه ؛ فكان يجتمع الشعراء على بابه فى النيروز والمهرجان ، فكان يقول لأبى الليث الطبرى : « ورع

عليهم الهدايا بحسب رتبهم ، لـكنى لا أستطيع سماع أكاذيبهم التى أعرف من نفسى خلافها »[1] .

وقد طبع فى مصر « كمال البلاغة » وهى جملة رسائل أدبية له ، وهو فيها متأنق كل كلمة فيها توزن قبل أن توضع ، وكل جملة تقاس بالقياس الدقيق لتكون لفق أختها ، وروحه عندى أقرب إلى روح بديع الزمان منها إلى ابن العميد وابن عباد ، وله المقطعات الشعرية الرقيقة كقوله :

خطرات ذكرك تستثير صبابتى   فأحس منها فى الفؤاد دبيبا

لا عضو لى إلا وفيـــه صبابة   فـكأن أعضائى خلقن قلوبا

وألف رسالة فى الإصطراب .

وقد مات محصوراً فى قلعة ، وحمل تابوته إلى جرجان ، ودفن فى مشهد عظيم كان بناه لنفسه ، وذلك سنة ٤٠٣ .

---

(١) معجم الأدباء : ١٤٩/٦ .

الباب الثالث

خراسان وما وراء النهر

ازدهرت هذه البلاد فى عهد الدولة السامانية التى حكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ ، فمدة ملكهم ١٢٨ سنة .

والملوك السامانيون أصلهم فرس من بلخ من أسرة نبيلة تنتسب إلى بهرام جور . وقد عرف المأمون منزلتهم ونبلهم فاصطنعهم ، وكان رأسهم أسد بن سامان . وقد خلّف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا فى خدمة المأمون وحكامه فى هذه البلاد ؛ فكان نوح على سمرقند ، وأحمد على فرغانة ، ويحيى على بلاد الشاش ، وإسماعيل على هراة ؛ ثم عظم ملكهم حتى امتد من الصحراء الكبرى إلى الخليج الفارسى ، ومن حدود الهند إلى العراق ، وأهم ملكهم خراسان وما وراء النهر — وقد اشتهرت دولتهم بالعدل والصلاح وتشجيع العلم .

وخراسان كانت تطلق على الإقليم الواسع الذى ينقسم إلى أربعة أرباع : ربع عاصمته نيسابور ، وربع عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ، ورابع بلخ .

ومن أشهر مدن خراسان نيسابور ، وبُوشَنج ، وبُسْت ، وسجستان ، وهراة ، ومرو ، وسَرَخس ، ونسا ، وطوس ، وأبيورد الخ .

والقسم الثانى من ملك السامانيين ما وراء النهر ، أى ما وراء نهر جيحون ، وكان هذا الإقليم ينقسم إلى خمسة أقسام : (١) الصُّغد ، وله عاصمتان : بخارى وسمرقند . (٢) وإلى الغرب من الصغد خوارزم المسماة اليوم خيوه أو كيوه . (٣) صغانيان . (٤) فرغانة . (٥) الشاش المسماة اليوم تشقند .

ومن أشهر بلاد ما وراء النهر فرغانة ، وأسبيجان ، والشاش ، وأشروسنة ، وسمرقند ، وبخارى ، وفاراب ، وترمذ ، وصغانيان وقاشان ؛ ثم خوارزم ، وفيها زمخشر والجرجانية .

والمقدسى يسمى إقليم خراسان وما وراء النهر « إقليم المشرق » . وقد رحل إلى هذه البلاد فى هذا العهد السامانى ، ونحن ننقل بعض ما يهمنا الآن منه . قال : إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته : « عليكم بخراسان فإن هناك العَدَدَ الكثير والجَلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النِّحَل ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة » ؛ وهم كانوا عدة الانقلاب والثورة على الأمويين ، ونقل الخلافة إلى العباسيين .

ويقول المقدسى : قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة « خراسان فى غذاء الهواء ، وطيب الماء ، وصحة التربة ، وإحكام الصنعة ، وتمام الخِلقة ، وجودة السلاح والتجارة والعلم والعفة والدراية ترس فى وجه الترك » ؛ وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا — وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى إقليم العرب ورسومهم أقرب . وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ، والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد — به مرو التى قامت بها الدنيا ، وبلخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تُنْسى[1] .

---

(١) أحسن التقاسيم : ٢٩٤ ، وما بعدها .

ثم قال : وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وللمذكِّرين به صيت عجيب ، ولهم أموال جمة ؛ وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً ، ومذاهبهم مستقيمة ؛ غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هراة كثيرة ؛ وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة . وللشيعة والكرّامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش ، وطوس ، ونسا ، وأبيورد . . . فإنهم شفعوية ، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فللمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكّرون بلا دفاتر[1] ... وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قُدّم إليه فأنصفه ، وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ؛ ومجلس الحكم كل اثنين وخميس فى مسجد « رجاء » لا ترى فى الإسلام مثله .

وألسنتهم مختلفة ؛ أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ؛ وأهل طوس ونسا أحسن لسانا ؛ وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ، ويجهرون فيه ؛ ولسان بست أحسن ؛ ولسان هراة وحش ، تراهم يتكلفون ويتحاملون ؛ ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح الخ .

وبهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرّامية ، وبين الشافعية والحنفية . وقد يهراق فى هذه العصبيات الدماء ، ويدخل بينهم السلطان .

(١) أى يعظون من غير قراءة فى كتاب .

والولايات والخطبة فى هذا الإقليم كله لآل سامان ... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالا للعلم وأهله ؛ ومن أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ، ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبره وتمكنه ، وكمال دولته وفتوة أمره ، وخطب له باليمن وبالسند ، وفتح عمان ، وملك ما ملك ، فلما تعرض لآل سامان ، وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتت جمعه ، وفرّق جيوشه ... وهم لا يكلفون تقبيل الأرض لهم ، ولهم مجالس عشياتِ جُمَع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عليها ... وميلهم إلى مذهب أبى حنيفة ، وليس من رسمهم الانبساط إلى الرعية » اه .

* * *

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقه ، خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصى البلدان ، يأخذون العلم من أهله حيث كان ؛ فعلى رأس المحدّثين الإمام البخارى ، وهو من بخارى ، كما تدل عليه نسبته ، ورحل إلى الجبال ومدن العراق ، والحجاز والشام ومصر يجمع الأحاديث بالأسانيد ، ويعنى بالمتن وبالسند ، وبرجال الحديث وتاريخهم ، ومعرفة درجة الثقة بكل منهم مع الحفظ التام ، والدقة العجيبة . . . يحكى عن نفسه أنه عنى بحفظ الحديث وهو فى العاشرة ؛ فلما بلغ السادسة عشرة أخذ يحفظ كتب الحديث ، ويتعرف رجاله ، ثم خرج مع أمه وأخيه إلى مكة ورجعا هما وبقى هو يطلب الحديث من محدثى مكة والمدينة ، ثم طوّف فى سائر البلدان ، واستخلص من كل ما سمع ما صح عنده ، فاستخرج صحيحه من زهاء ستمائة ألف حديث ، وظل يعمل فى تأليف صحيحه هذا ست عشرة سنة . وقد نشر الحديث فى بقاع الأرض ، فعقد مجالسه فى البصرة وبغداد ، والرى وخراسان ، وما وراء

النهر ونيسابور ، وأخذ عنه الألوف . وقد أصابته محنة خلق القرآن فكان يقول إن القرآن غير مخلوق ولكن لفظى به مخلوق ، وشنعوا عليه بذلك بعد أن عاد إلى بلاده ، فأُخرج من بخارى إلى خَرْتَنْك (وهى قرية من قرى سمرقند) فمات بها سنة ٢٥٦ .

كما أخرجت نيسابور مسلم بن الحَجّاج النيسابورى مؤلف الصحيح المنسوب إليه « صحيح مسلم » ، وهو كذلك رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ، وروى عن أهلها ، وجمع الحديث واستخرج صحيحه من ثلثمائة ألف حديث ، « وبعض المحدّثين يفضل صحيحه على صحيح البخارى لما اختص به من جمع الطرق ، وجودة السياق ، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هى من غير تقطيع ولا رواية بمعنى »(١) . وكان كتابه مصدراً لحركة كبيرة فى الحديث بين النيسابوريين ، وانتفع به خلق كثير . ومات سنة ٢٦١ بنيسابور . وقد ناصر البخارى فى قوله فى القرآن ، وخاصمهما فى ذلك شيخهما المحدث الكبير أيضاً أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلى النيسابورى ؛ فكان يقول بأن القرآن حتى لفظنا له غير مخلوق .

ويطول بنا القول لو عددنا أسماء كبار المحدثين الذين أنجبتهم هذه البلاد ؛ فالبخارى ومسلم كانا سبباً فى حركة حديث قوية ظلت تعمل فى هذه البلاد أجيالا ، وحسبنا دلالة على كثرة من خرجتهم هذه البلاد أننا نقرأ أسماء المحدثين ، فنجد الكثيرين المنسوبين إلى بلاد هذا الإقليم ، وخصوصاً نيسابور .

كما أخرجت البلاد كثيراً ممن بلغوا مبلغ الاجتهاد فى الفقه مثل أبى حاتم محمد بن حبان التميمى السمرقندى ، إمام كبير له تصانيف كثيرة فى الحديث والجرح

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر .

والتعديل ، وطوف فى البلاد وقال : « لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية . وقد ولى قضاء سمرقند ، ورحل إليه الناس لأخذ العلم عنـه ، وإليه مرجع كثير من المحدّثين فى حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل ؛ مات سنة ٣٥٤ .

وأبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى ، وكان إماما مجتهداً ؛ قال الذهبى : كان على نهاية من معرفة الحديث والأخلاق ، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً ؛ توفى سنة ٣١٦ .

ثم كان بهذه الأقاليم كثير من عظماء الشافعية والحنفية .

فمن أكبر رجال الشافعية محمد بن على القفّال الشاشى ، كان يعد إمام عصره فيما وراء النهر ، وناشر مذهب الشافعية فيه ، وكان يقول بالاعتزال ، وله كتب فى الفقه والأصول ، وخرج غازياً فى الحروب بين المسلمين والروم ، وأخذ أسيراً إلى القسطنطينية ؛ ثم عاد إلى بلاده ، ومات بالشاش سنة ٣٦٥ .

وأبو بكر بن فُورك الأصفهانى الأصل ، الأصولى المتكلم ، ناصر الأشعرى ، اضطهد بالرى لـكثرة الاعتزال بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وألف مصنفات كثيرة نحو المائة ، ومات سنة ٤٠٦ بنيسابور .

وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى الحافظ الشافعى ، رحل إلى كثير من البلاد ، ثم عاد إلى بلده ، وأخذ فى التصنيف ، وأكثر منها حتى قالوا إنها تبلغ نحو ألف جزء ، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعى فى عشرة مجلدات . ومن تأليفه السنن الـكبير والسنن الصغير ، ودلائل النبوة ، ومناقب الشافعى ، ومناقب ابن حنبل ، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها فأجاب ، وتوفى بهـا سنة ٤٥٨ ، ونسبته إلى بيهق بالقرب من نيسابور .

كما اشتهر من الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدى ، وهو للحنفية فى علم الكلام كالأشعرى للشافعية ، كتب كتاب التوحيد ، وأوهام المعتزلة ، ومآخذ الشرائع فى الفقه ، والجدل فى أصول الفقه وغير ذلك ؛ مات سنة ٣٣٣ ، والنسبة إلى ما تريد أو ماتوريد محلة بسمرقند .

ثم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى الملقب بإمام الهدى توفى سنة ٣٧٣ .

وهذا نموذج صغير جداً مما أخرجته هذه البلاد من المحدّثين والفقهاء ، فحيثما قرأت فى كتب المحدثين والفقهاء راعتك كثرة ما ترى منهم ، ودلالة نسبتهم عليهم كالبلخى ، والسرخسى ، والخوارزمى ، والسمرقندى ، والفارابى ، والبخارى والترمذى ، والصاغانى ، والأبيوردى ، والقاشانى ، والشاشى ، والنيسابورى ، والمَرْوَزِىّ (نسبته إلى مرو والزاى زائدة كالرازى نسبة إلى الرى ، و بعضهم ينسبها مروروزى نسبة إلى مرو الروز) ، والهَرَوى نسبة إلى هراة ، والفرغانى ، والزمخشرى ، والصُّغدى ، والبيهقى ، والبُسْتى الخ .

وظهر التصوف فى هذه البلاد كما ظهر فى مصر ، وفى العراق ؛ فكان من أولهم فى هذا الإقليم شقيق البلخى ، قيل إنه أول من تكلم فى علم الأحوال بخراسان كان يقول : قرأت القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته فى حرفين ، وهو قوله تعالى : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى » ، ومات سنة ١٥٣ .

ثم تتابع التصوف من بعده فى هذه البلاد كأبى حفص عمر بن سالم الحداد النيسابورى المتوفى سنة ٢٧٠ ؛ وأبو تراب النخشبى من متصوفة خراسان المشهورين بالعلم والفتوة والزهد ؛ وأبو على الجوزجانى له التصانيف فى الرياضة النفسية والمجاهدات والمعارف ؛ وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق أصله من

ترمذ وأقام ببلخ ؛ وأبو عبد الله محمد بن منازل النيسابورى شيخ طريقة الملامتية مات بنيسابور سنة ٣٢٩ ؛ وأبو العباس بن القاسم بن مهدى من أهل مرو ، وهو أول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال ، مات سنة ٣٤٢ .

* * *

وكانت فى هذه البلاد حركة فلسفية قوية يرجع الفضل فيها أولا إلى شخصيتين من أقوى الشخصيات ، وهما أبو زيد البلخى ، وأبو القاسم الكعبى .

فأما أبو زيد فهو أحمد بن سهل البلخى ، جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية والأدب ؛ قال أبو حيان التوحيدى : « الذى أقوله وأعتقده أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد ، منهم أحدهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . . . والثانى أبو حنيفة الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة و بيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم . . . والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم ، وفى كتاب أخلاق الأمم ، وفى كتاب نظم القرآن ، كتاب اختيار السيرة ، وفى رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يُسأل عنه ويُبْدَهُ به عَلِمَ أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما رؤى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه ، وإن القول فيه لكثير »[1] .

ولد ببلخ ، ورحل إلى العراق ، وأقام به ثمان سنين يأخذ علمه وفلسفته ؛

(١) معجم الأدباء : ١٢٥/١ .

ثم عاد إلى بلاده ينشر فيها علمه ، وكان يقال له : « جاحظ خراسان » - وألف نحو ستين كتاباً فى علوم مختلفة منها كتاب فى نظم القرآن ؛ قال أبو حيان : « لم أر كتاباً فى القرآن أحسن منه — تكلم فيه بكلام لطيف دقيق ، وأخرج أسراره ، ولم يأت على جميع المعانى فيه » . وكان يتنزه عن الجدل فى القرآن ، و يتحرج عن تفضيل بعض الصحابة على بعض ، وعن المفاخرة بين العرب والعجم ، و يقول : ليس فى هذه المناظرات الثلاث ما يجدى طائلا . ومن تآليفه كتاب أقسام العلوم ، وشرائع الأديان ، وكتاب السياسة الكبير والصغير ، وحدود الفلسفة ، وما يصح من أحكام النجوم ، وكتاب الرد على عبدة الأوثان ، وكتاب أخلاق الأمم الخ . و يعد أيضاً من أكبر جغرافيي العرب ، وقد ألف « صور الأقاليم » ، وهو خرائط ملوّنة موضحة ببعض الشروح . و ينسب إليه كتاب البدء والتاريخ المطبوع وليس له — مات ببلخ سنة ٣٢٢ .

والثانى أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبى كان من بلخ أيضاً ، وكان معاصراً لأبى زيد وصديقاً له ، واشتهر بتبحره فى علم الكلام ، وأنه رأس من رءوس المعتزلة ، له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية ، مات سنة ٣١٧ .

هذان العَلَمَان نشرا فى هذا الإقليم حركة فلسفية وعقلية كبيرة تُوجت بالفيلسوف الكبير ابن سينا درة الدولة السامانية .

وهو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، ولعل خير ما يمثل الحركة الفلسفية فى العهد السامانى ما حكاه ابن سينا نفسه فى ترجمة حياته ، كما رواه عنه تلميذه أبو عبيد الجوزجانى ؛ قال ابن سينا : « إن أبى كان رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور (السامانى) ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل بقرية هناك . . . ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأُحضرت معلم

القرآن ، ومعلم الأدب . . . وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين (الفاطميين) ، ويُعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعوننى إليه أيضاً ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهيئة ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه . . . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . . . فابتدأت بكتاث إيساغوجي على الناتلى . . . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه . . . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى ، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب أقليدس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ؛ ثم انتقلت إلى المجسطى . . . ثم فارقنى الناتلى ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والإلهى ، وصارت أبواب العلم تتفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب . . . وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه . . . وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة (لأرسطو) ، فما كنت أفهم ما فيه ، وأيست من نفسى حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا ، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام فى الوارقين ، وبيد دلاّل مجلد ، فقال لى اشتر منى هذا فإنه رخيص . . . فاشتريته بثلاثة دراهم ، فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت إلى بيتى ، وأسرعت قراءته فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان محفوظا على ظهر القلب . . . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور (السامانى) ،

واتفق له مرض ، فاستدعيت لمشاركة الأطباء فى معالجته ، وتوسمت بخدمته ، فسألته يوما الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى ؛ فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب ، منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه » الخ الخ[1] .

وقد شاهد ابن سينا سقوط بخارى فى يد أمير غزنة محمود بن سبكتكين ، وسافر إلى الرى وهمذان .

واتصل بكثير من علماء وقته كالبيرونى ، وأبى الخير بن الخمار ، وأبى القاسم الكرمانى ، وأخذ اسمه وتآليفه شهرة ومكانة لم ينلها أحد غيره من فلاسفة الشرق ؛ وظل كتابه القانون فى الطب يدرس فى الشرق وفى الغرب إلى عهد قريب ؛ وكتبه الشفاء والإشارات والنجاة مرجع كل من درس الفلسفة الإسلامية — عاش ابن سينا من سنة ٣٧٠ إلى سنة ٤٣٨ .

* * *

وكان فى هذا الإقليم حركة أدبية قوية من شعر ونثر فنى .

ففى الشعر جروا على أساليب العراق وفارس من إكثارهم من المقطوعات فى المناسبات ، والتفنن فى التخيل ، والإغراق فى المبالغة ، والإمعان فى التشبيه ؛ وشجع الملوك السامانيون الحركة الأدبية ، كما شجعها وزيران كبيران لهذه الدولة ،

---

(١) طبقات الأطباء : ٢/٢ .

فكانا صورة مصغرة لابن العميد ، وابن عباد ، وهما : الوزير البلعمى ، وأبو عبد الله الجَيْهانى .

فالوزير البلعمى هو أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمى ، أصل أجداده عرب من تميم استوطن فرعهم فى بخارى ، وكان وزيراً لنصر بن أحمد السامانى ؛ قال السمعانى : « وكان واحد عصره فى العقل والرأى وإجلال العلم وأهله — ولقبه ابن حوقل بالشيخ الجليل . وقد قام بترجمة تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية .

والجيهانى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى ؛ قال فيه ياقوت : « وكان أديباً فاضلا شهماً جسوراً ، وكان حسن النظر لمن أمله وقصده — معيناً لمن أمله واعتمده ؛ وله تآليف ؛ وقد استوزر أيضاً لنصر بن أحمد .

فكلاهما شجع الحركة العلمية والأدبية فى بخارى ، كما شجعها ابن العميد وابن عباد فى الرى .

وقد نبغ فى الدولة السامانية من الشعراء كثيرون عدهم الثعالبى فى اليتيمة ، ونقل طرفا من أشعارهم ؛ ولعل من أحقهم بالذكر محمد بن موسى الحدادى البلخى ، وكان يقال : « أخرجت بلخ أربعة : أبا القاسم الكعبى فى علم الكلام ؛ وأبا زيد البلخى فى البلاغة والتأليف ؛ وسهل بن الحسن فى شعر الفارسية ؛ ومحمد بن موسى فى شعر العربية »[1] ، ومما امتاز به أنه كان مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية نظما ، وله فى ذلك مزدوجة طويلة كقوله :

من مُثُل الفرس ذوى الأبصار　　الثوب رهن فى يد القَصّار

—————

نال الحمار بالسقوط فى الوَحَل　　ما كان يهوى ونجا من العمل

---

(١) اليتيمة : ٢١/٣ .

البحر غمر المـــاء فى العِيَان والـكلب يَرْوَى منه باللسان الخ

وسار فى ذلك على منهجه أبو عبد الله الضرير الأبيوردى . وقد وضع قصيدة فى أمثال الفرس كذلك أولها :

صيامى إذا أفطرت بالسحت ضَلّةٌ وعلمى إذا لم يُجْدِ ضرب من الجهل

وتزكيتى مالاً جمعت من الرِّبا رياء، و بعض الجود أخزى من البخل

كسارقة الرمان من كَرْم جارها تعود به المرضى وتطمع فى الفضل

وقد قال الثعالبى : « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر»[1] .

وأنتج هذا الإقليم من أعلام النثر الأديبين الكبيرين الشهيرين أبا بكر الخوارزمى ، و بديع الزمان الهمذانى .

فالخوارزمى محمد بن العباس أصله من خوارزم ، وطوف فى الشام ، ونزل ضيفاً على سيف الدولة فى حلب ، وعلى الصاحب بن عباد فى الرى ؛ ثم عاد إلى نيسابور .

وكان يتعصب لبنى بويه ، و يغض من سلطان خراسان ، ونكل به مرة من أجل ذلك ، ثم علت منزلته ثانية ، ونظر إليه أهل نيسابور بعين الإكرام والإعظام ، وعُدَّ إمام الأدباء حتى رُمى ببديع الزمان الهمذانى ، وبُلى بمساجلته ، وأعان البديع شبابه ولباقته ، ومساعدة خصوم الخوارزمى السياسيين للبديع ، « فانخزل الخوارزمى انخزالا شديداً ، وكسف باله ، وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ، ومات سنة ٣٨٣ »[2] .

وقد خلّف لنا رسائله الأدبية القيمة ، على ما فيها من تكلف أحيانا جرّ إليه الغرام بالسجع والبديع .

---

(١) يتيمة : ٣/٣٣ . (٢) اليتيمة : ١٢٧ .

ثم أتى بديع الزمان الهمذانى ، وهو أبو الفضل أحمد بن الحسن ، ولد بهمذان ، وتوفى بهراة سنة ٣٩٨ ، وقد أربى على الأربعين . وقد اتصل بالأمير محمد بن منصور فأكرمه ، ونزل نيسابور سنة ٣٨٢ ، فأملى بها مقاماته المشهورة ، وكانت الخصومة بينه وبين أبى بكر الخوارزمى أيام إقامتهما فى نيسابور . وقد قص البديع هذه الخصومة فى رسائله ، ولا بد أن يكون قد بالغ فيها تحيزاً لنفسه ، ومع هذا فهى تدل على ما عرف عن البديع من جودة حفظ ، وحضور بديهة ، وقوة بيان .

وله الفضل الكبير فى مقاماته التى حذا حذوها الحريرى فيما بعد ، وله رسائله ، وهذه وتلك تدل على خفة روح وحسن خيال ، وقدرة على الابتكار ، ووقوف على أحوال الزمان مما يجعلها مصدراً كبيراً لدراسة الحياة الاجتماعية فى زمنه .

* * *

ونبغ فى هذا العصر ، وفى هـذا الإقليم من الأدباء والمؤلفين فى الأدب أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى ، كان أديباً بليغاً على أسلوب أهل زمانه فى السجع والاستعارة والتشبيه ، وكان واسع العلم باللغة والأدب والأدباء وتاريخهم ، وألف فى ذلك كله ؛ فله فقه اللغة أراد فيه أن يجعله معجما على نمط جديد ، وهو جمع الكلمات فى الموضوع الواحد فى موضع واحد ، وأتت هـذه الفكرة للثعالبى فى نيسابور ، وابن سيده فى الأندلس فى وقت واحد تقريباً ؛ فقد مات الثعالبى سنة ٤٢٩ ، ومات ابن سيده سـنة ٤٥٨ ، وألف الأول فقه اللغة ، والثانى المخصص . كما ألف الثعالبى يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، ذكر فيه تراجم الأدباء فى المائة الرابعة ، ومختاراً من أدبهم مقسما إلى الدول المختلفة ، والأمصار المتباينة ؛ وقد عنى بالمختارات أكثر مما عنى بتراجم الحياة .

وله كتب أخرى كثيرة قيمة وصلت إلينا كالإعجاز والإيجاز ، وخاص

الخاص ، وثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، ومن غاب عنه المطرب ، ونثر النظم ، وحل العقد الخ ، وله كتاب غرر أخبار ملوك الفرس ، وكلها كتب قيمة مفيدة .

كما كان من هذه البلاد من أئمة اللغة الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر ، أصله من هراة ، ولد بها ومات بها ، ورحل إلى العراق وأخذ عنه أئمة علمائه كابن دريد وطاف فى أرض العرب يجمع اللغة منهم ، فوقع أسيراً فى يد القرامطة ، قال : « وكان القوم الذين وقعت فى سهمهم عرباً نشئوا فى البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ، ويرجعون إلى إعداد المياه فى محاضرهم زمان القيظ ، ويرعون ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ، ولا يكاد يوجد فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش ، فبقيت فى أسرهم دهراً طويلا ... واستفدت من مجاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أودعت أكثرها فى كتابى » .

وقد صنف فى اللغة كتاب التهذيب فى عشر مجلدات ، وهو من الكتب التى فرّغها ابن منظور فى كتابه لسان العرب ؛ وقال فى مقدمته : « ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى ، ولا أكمل من المحكم لابن سيده ، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيّات للطريق » .

وقد توفى الأزهرى سنة ٣٧٠ .

وكذلك الجوهرى صاحب الصحاح ، ومبتكر طريقة المعاجم جرى عليها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما — وهو إسماعيل بن حماد ، أصله من فاراب ، سافر إلى بلاد العرب ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وجمع ما استطاع من اللغة ، وعاد إلى نيسابور فدرس فيها ؛ ثم وضع كتاب الصحاح ، وهو يعد من

أمهات كتب اللغة اهتم به علماء اللغة اهتماماً كبيراً استفادة ونقداً ؛ وقد تقدم ذكره مات سنة ٣٩٨ .

ومن هذا الإقليم من علماء اللغة والأدب الزُّوزَنى(١) أبو عمرو أحمد بن محمد ابن إبراهيم نسبة إلى زُوزَن ، وهى بلدة واسعة بين نيسابور وهَرَاة ، وكانت زوزن تسمى بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم ، وإليها ينتسب كثير من أهل الأدب والعلم منهم صاحبنا هذا .

وقد خلف لنا شرحا على المعلقات السبع ، وهو شرح مختصر مفيد يدل على سعة علم باللغة والنحو والتصريف وحسن الذوق والفهم ، مات بزوزن سنة ٣٧٤ .

* * *

وكان فى هذا الإقليم أمراء جمعوا إلى الإمارة وجاهة الأدب ، ورعاية أهله ، فأحاطوا أنفسهم بجو أدبى رائع ، كان ينتج أكثر مما أنتج لولا ما انغمسوا فيه من السياسة وفتنها وألاعيبها .

فكان فيه طائفة كبيرة من نسل الخلفاء العباسيين أتوا إليه من العراق لما كان يعرفون من الرابطة القوية بين آبائهم العباسيين والخراسانيين ؛ إذ كان الخراسانيون عماد الدولة العباسية . فلما ذهب إلى خراسان أبناء هؤلاء الخلفاء أكرمهم الخراسانيون وأغدقوا عليهم النعم ، وأحلوهم محل الإجلال ، ولعبت ببعض هؤلاء الذين من نسل الخلفاء فكرة أن يعيدوا الأمر جذعة ، فيبثوا الدعوة لأنفسهم ، ويكونوا جيشاً من الخراسانيين يفتحون به العراق من جديد ويؤسسون ملكا جديداً ، وأصاب بعضهم بعض النجاح أولا وفشلوا أخيراً .

---

(١) قال ياقوت إنها بضم الأول وقد يفتح ، واعتمدنا فى نسب هذا المؤلف وتاريخ وفاته على الأنساب للسمعانى وهو يخالف ما فى ترجمته فى صدر شرحه للمعلقات .

وكان من أشهر هؤلاء أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى من نسل المأمون ، قال الثعالبي : « وقد رأيت المأمونى ببخارى سنة ٣٨٢ ، وعاشرت منه فاضلا ملء ثوبه ، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه ، وسمعت منه قطعة من شعره ، ونقلت أكثره من خطه ، وكان يسمو بهمته إلى الخلافة ، ويمنى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها فاقتطعته المنية دون الأمنية ، ولم يكن بلغ الأربعين ، وذلك سنة ٣٨٣[١] » .

وكذلك كان أبو محمد عبد الله بن عثمان الواثقى من أولاد الخليفة الواثق ، ذهب كذلك بأهله إلى خراسان ، ودبر أن يستعين بالأتراك لإزالة دولة بنى سامان حتى هاجموا بخارى وأزالوا السامانى عنها ، ثم فشلت الحركة ، وكان كالمأمونى شاعراً أديباً .

ومن الأمراء غير العباسيين الذين كانوا من الأدباء آل ميكال الذين اشتهر من بينهم أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى ، وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالى . وآل ميكال أسرة كبيرة من سادة خراسان ، وأولى الفضل والنبل والرياسة فيها ، جمعوا إلى إنشاء الأدب حماية الأدب .

هؤلاء الأمراء الأدباء من نسل العباسيين وغيرهم بهذا الإقليم شجعوا حركة أدبية عظيمة بما بذلوا من مال ، وما وجهوا من رأى ، وما ضربوا المثل بما أنشئوا من أدب ، فقصدهم المؤلفون يهدون إليهم تآليفهم وقصائدهم ؛ فيقصد ابن دريد — مثلا — أبا الفضل الميكالى فى نيسابور ، ويؤلف له كتاب الجمهرة ، وينشئ له قصيدته المقصورة — ياظبية أشبه شىء بالمها — والتى يقول فيها فى مدح آل ميكال :

إن ابن ميكال الأميرَ انتاشنى   من بعد ما قد كنت كالشىء اللّقَا

---

(١) اليتيمة : ٣ / ٩٤ .

ويقول فى ابنى ميكال بعد أن ذكر العراق وأهله ، وأنه لا يدانيهم فى فضلهم أحد :

حاشا الأميرين اللذين أوفدا ... علىّ ظلا من نعيم قد ضفا

هما اللذان أثبتا لى أملا ... قد وقف اليأس به على شَفا

تلافيا العيش الذى رنَّقه ... صرف الزمان فاستساغ وصَفا

وأجريا ماء الحيا لى رغدا ... فاهتز غصنى بعد ما كان ذَوى

هما اللذان سموا بناظرى ... من بعد إغضائى على لذع القذى

هما اللذان عمرا لى جانبا ... من الرجاء كان قدما قد عفا

وقلدانى منه لو قرنت ... بشكر أهل الأرض عنى ما وفى

ونرى مثلا أبا منصور الثعالبى يؤلف كتابه لطائف المعارف للصاحب بن عباد ، والمبهج لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وفقه اللغة ، وسحر البلاغة لأبى الفضل الميكالى ، والنهاية فى الكناية لمأمون بن مأمون صاحب خوارزم الخ .

* * *

وعلى الجملة فهاتان الدولتان البويهية والسامانية مع فارسية ملوكهما وأعجمية لغاتهما الأصلية قد خدمتا اللغة العربية ، والأدب العربى ، والعلوم الإسلامية العربية ، والفلسفة الإسلامية العربية خدمة لا تقدر .

الباب الرابع

السند وأفغانستان

تولى هذا الإقليم الدولة الغزنوية ، وتسمى أيضاً دولة بنى سُبُكْتِكِين . وقد قامت هذه الدولة من سنة ٣٥١ إلى سنة ٥٨٢ .

وهى دولة تركية — والنزاع بين الأتراك والفرس قديم ، والحرب بينهم سجال ؛ فقد ساد الفرس فى الدولة العباسية الأولى إلى أن جاء المعتصم فقوِىَ سلطان الترك ، وضعف سلطان الفرس ، وظل الحال كذلك حتى أتى بنو بويه ، وهم فرس ، فاستردوا سلطانهم ، وأضعفوا سلطان الترك .

وكذلك الأمر هنا ؛ فقد ساد السامانيون الفرس فى خراسان وما وراء النهر حتى جاء آل سبكتكين الأتراك ، فأنزلوهم عن مكانتهم ، وحلوا محلهم فى السيادة .

نشأ الأمراء الأولون من الدولة الغزنوية فى أحضان الدولة السامانية ؛ فقد كان أَلْبْتَكِين مملوكا تركياً حاكما لهراة من قِبل السامانيين . وقد فتح غزنة سنة ٣٥٢ ؛ وقد خلفه ابنه إسحاق ، وهذا لم يعقب فآل أمر ما بيده إلى غلامه سبكتكين ، وإليه تنسب الدولة . وقد وسّع سبكتكين ملكه فى ناحيتين : فى ناحية الهند ، وأنشأ بها حكومة فى « بشَاور » ؛ وفى ناحية فارس باستيلائه على خراسان وما إليها . ومن أشهر رجال هذه الدولة بل من أشهر أعلام الإسلام محمود ابن سبكتكين الذى وطد ملكه ووسعه ، فوسع فتوحه فى الهند إلى ما وراء كشمير وبنجاب ، واستولى من ناحية أخرى على بخارى وما وراء النهر ، وأخذ إقليم الرى وأصفهان من البويهيين إلى العراق ، فامتدت مملكته من

لاهور إلى سمرقند إلى أصفهان إلى العراق ، واستمر المُلك فى عقبه إلى أن خلفتها الدولة الغورية .

والذى يهمنا هنا الناحية العقلية ؛ فقد كانت هذه البلاد فى هذه الدولة مركزاً عقلياً نبغ فيه كثير من رجال العلم والأدب والفلسفة .

وكان من أهم بلاد هذه الدولة ولاية سِجِسْتان « وعاصمتها زَرَنْج — وفى أهل سجستان عِظَم خَلْق وجَلادة ، وأغلب أهلها على مذهب الحنفية لا ترى من غيرهم إلا القليل ، وكان فيها كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ، ولا يتحاشون منه ، ويفتخرون به عند المعاملة ؛ يقول الرجل عند مماكسته : « أنا من الخوارج لا تجد عندى إلا الحق » ، واشتهر أهل سجستان — على العموم بصحة المعاملة ، وقلة المخاتلة ، ومسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف ؛ ثم أمرهم بالمعروف »[(١)] .

وقد ينسب إليها فيقال السجستانى ، وقد تختصر النسبة فيقال السِّجْزِىّ .

وكثير من العلماء ينسب إليها ، منهم أبو سعيد السِّجْزى القاضى الحنفى رحل إلى الشام والعراق وخراسان ، ثم عاد إلى بلاده وولى القضاء بعدة نواح ، ومات بفرغانة سنة ٣٨٣ — وأبو أحمد خلف بن أحمد السجزى كان ملكا بسجستان ، وكان من أهل العلم والفضل والسياسة والملك ، سمع الحديث بخراسان والعراق . وقد سلَبَ ملكه سنة ٣٩٩ محمود بن سبكتكين ، وتوفى فى الهند محبوساً .

وكان من أعماله العظيمة أن جمع العلماء بسجستان وحملهم على تصنيف كتاب فى التفسير لا يغادرون فيه حرفا من أقاويل المفسرين وتأويل المتأولين ، ونكت المذكِّرين ، ويتبعون ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والتصريف ، ويوشحونه بما رواه الثقات الأثبات من الحديث . وقد أنفق على العلماء مدة اشتغالهم فيه عشرين ألف دينار ، وتم هذا العمل الضخم فى مائة مجلد

---

(١) المقدسى .

تستغرق عمر الكاتب ، وتستنفد حبر الناسخ[1] .

ومن مدن سجستان المشهورة الرُّخَّج ، وإليها ينسب كثير من العلماء والأدباء .

ثم من أهم مدن هذه الدولة غزنة وكانت عاصمة ملكها ، قد ملأها محمود ابن سبكتكين بأجمل ما وصلت إليه يده عند فتحه للهند . وقد دفن بها السلطان محمود هذا ، ولا يزال بها قبره عليه قبة عظيمة ، وأبواب المدفن من خشب الصندل قيل إنه أتى بها من أحد هياكل الهند .

وقد وصف العُتْبي بعض ما عمله السلطان محمود فى غزنة ، فذكر — مثلا — أنه بنى فيها مسجداً ، وقال : « لما عاد السلطان يمين الدولة إلى دار الملك بغزنة أحب أن ينفق ما أفاء الله عليه فى عمل بر يشيع جدواه — وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة للمسجد الجامع ، إذ كان ما اختط قديماً على قدر أهلها ، فوافق عَوده حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه ، وإقامة الجدران على ترابيعه ، فصبّ بدر المال على الصُّنّاع ، كما صب دماء الأبطال يوم القِراع . . . ونُقل إليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدوداً ورصانة ، وتناسبت تدويراً وثخانة . وقد فرشت ساحتها بالمرمر منقولا من كل فج عميق ، ومضرب سحيق . . . أشد ملاسة من راحة الفتاة وصفحة المرآة — فأما الأصباغ فروضة الربيع ضاحكة الثغور تستوقف الأبصار ، وتقيّد النظّار . وأما التذهيب فهو صبات الذهب الأحمر أفرغت عن صور الأصنام المجذوذة ، والبِدَدَة المأخوذة[2] ، فطفقت تعرض على النار بعد أن كانت آلهة للكفار الخ .

وقد أفرد السلطان لخاصته بيتاً فى المسجد مشرفا عليه ، فرْشه وإزاره من الرخام ، قد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الأحمر مكلّلا

---

(١) انظر تاريخ العتبى .   (٢) البددة : جمع بد وهو الصنم .

باللازورد ، فى تعاريج من ألوان المنثور والورد .

وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة[١] تسع ثلاثة آلاف غلام ، متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفا ، وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا .

وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء ، تشتمل بيوتها من مناط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين ، من علوم الأولين والآخرين ، منقولة من خزائن الملوك ، نقّروا عن ديار العراق ، وربِاع الآفاق ، حتى اقتنوها بخطوط كفرائد سموط ، مصححة بشهادات التقييد ، وعلامات التخفيف والتشديد ، ينتابها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس ، والنظر فى علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة منهم ما يهمهم ، جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة .

وناهيك من بلد يحتوى على مرابض ألف فيل ، يَشغل كل منها بساسته ومارَته[٢] داراً كبيرة ، وخطة وسيعة — إن الله تعالى إذا أراد عَمّر البلاد وكثر العباد[٣] ؛ وقال ياقوت : « وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعد ولا يحصى من العلماء » ؛ وقال السمعانى : « الغزنوى نسبة إلى غزنة ، وهى بلدة من بلاد الهند ، خرج منها جماعة من العلماء فى كل فن » .

ثم أفغانستان ، ومن أشهر مدنها قُنْدُهار ، وكابُـل ، وقد نسب إليها جمع من المحدّثين .

ثم السند ، وكانوا يطلقونها على البلاد الواقعة بين الهند ومكران وسجستان .

---

(١) يريد بالتعاريج الدرابزين .

(٢) ساسة الفيل : خدامه ومن يقومون بأمره ؛ ومارته : جمع مائر ، وهو الذى يقوم على طعامه .

(٣) نقلت هذه من تاريخ العتبى باختصار .

وكانت عاصمتها « المنصورة » ؛ وقد قال المقدسى فى وصف السند عند ما زارها :
« إنه إقليم الذهب والتجارات والعقاقير والآلات والفانيذ والخيرات . . . به عدل وإنصاف وسياسات . . . العلماء به قليلون — والمنصورة قصبتها وهى مثل دمشق لأهلها مروءة ، وللإسلام عندهم طراوة ، والعلم وأهله كثير ، ولهم ذكاء وفطنة ... ومن مدن السند دَيْبُل ، وكل أهلها تجار ، وكلامهم سندى وعربى — والمُلتان ، وهى مثل المنصورة ، وأهلها لا يكذبون فى بيع ، ولا يبخسون فى كيل ، يحبون الغرباء ، وأكثرهم عرب[1] .

ثم قال : إن إقليم السند أكثر أهله مذاهبهم أصحاب حديث ، ورأيت القاضى أبا محمد المنصورى داوديا إماماً فى مذهبه ، وله تدريس وتصانيف ، قد صنف كتباً عدة حسنة . وأهل الملتان شيعة ، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبى حنيفة ، وليس به مالكية ولا معتزلة ، ولا عمل للحنابلة ؛ قد أراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة » الخ .

☆ ☆ ☆

ونعود إلى وصف الحركة العلمية والأدبية فى هذه البلاد .

كان طبيعياً أن تكون الحركة العلمية والأدبية فى البلاد الجديدة التى فتحتها الدولة الغزنوية فى الهند ضعيفة ؛ فقد بدأت تنتشر فيها الإسلام والعربية ، فليس من الطبيعى أن تخرج علماء — أما القسم الذى استولت عليه من الدولة السامانية وغيرها مما تأصل فيه الإسلام من عهد بعيد ، فقد استمرت فيه الحركة فى العهد الغزنوى كما كان فى العهد السامانى .

وكان من الغزنويين من شجع الحركة الدينية والعلمية والأدبية تشجيعاً

---

(١) أحسن التقاسيم : ٤٧٩ وما بعدها

عظيما ، وخاصة محمود بن سبكتكين ؛ فقد سار على أسلوب العصر فى أن يزين مملكته بالعلماء والأدباء ، كما يزين تاجه باللآلىء .

وقد احتاط به كثير من علماء الدين ، وجدّ أهل المذاهب الدينية والفقهية فى كسبه ، علماً منهم بأنه إذا اعتنق مذهباً ساد فى الأقاليم الواسعة التى فتحها ؛ فالفاطمية فى مصر وجهوا إليه « التاهرتى » الداعى ليدعوه إلى مذهب الفاطمية ، فوقف السلطان محمود على سر ما دعا إليه ، وعلم بطلان ما ندب إليه ، وأمر بقتل التاهرتى ، وأهدى بغلته التى كان يركبها إلى القاضى أبى منصور محمد بن محمد الأزدى شيخ هراة ، وقال كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين[(١)] .

« وذكر إمام الحرمين أبو المعالى الجُوَيْنى أن السلطان المذكور كان على مذهب أبى حنيفة ، وكان مولعاً بعلم الحديث ، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث ، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعى ، فوقع فى خلده حكمه ، فجمع الفقهاء من الفريقين فى مرو والتمس منهم الكلام فى ترجيح أحد المذهبين على الآخر ، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعى ، وركعتين على مذهب الإمام أبى حنيفة لينظر فيه السلطان ويتفكر ويختار ما هو أحسنهما ، وتولى الإمام القفال المروزى الشافعى ذلك ، فتحول السلطان من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعى »[(٢)] .

ولما فتح إقليم خراسان ، وسائر إيران وما وراء النهر وسجستان ، وجه أدباؤها مديحهم إليه كما كانوا يوجهونه إلى السامانيين — فبديع الزمان الهمذانى

---

(١) طبقات الشافعية : ٤/١٦ .

(٢) انظر الحكاية بطولها فى ابن خلكان : ٢/١١٦ .

ينشئ القصائد فى مدح محمود بن سبكتكين ، كالتى يقول فيها :

تعالى الله ما شاءَ   وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج   أم الإسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت   إلينا بسليمان
أظلّت شمس محمودٍ   على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام   عبيداً لابن خاقان[1]
إذا ما ركب الفيلَ   لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا   على منكب شيطان[2]
فمن واسطة الهند   إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند   إلى أقصى خراسان
على مقتَبل العمر   وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاهِ   ويوما رسل الخان[3]
فما يعزب بالغرب عن طاعتك اثنان
أيا والى بغدادٍ   ويا صاحب هَمْدانَ
تأمل مائتى فيلٍ   على سبعة أركان[4]
يقلبن أساطين   ويلعبن بثعبان[5]
ويأجوجٌ ومأجوجٍ   من الجند تموجان

---

(١) يريد بآل بهرام السامانيين لأنهم يقولون إنهم من نسل بهرام جور كما تقدم ؛ ويريد بابن خاقان السلطان محوداً لأنه تركى ، وخاقان لقب لملك الترك .

(٢) يريد بالشيطان الفيل لشكله الهائل .

(٣) أى يوما عنده رسل ملوك العجم ، ويوما عنده رسل الترك .

(٤) يريد أركان الجيش ، وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .

(٥) الضمير للفيلة أى يتنقلن على قوائم كالعمد ، ويلعبن بخرطوم كالثعبان .

وكذلك أنشأ أبو منصور الثعالبى القصائد فى مدحه كقوله :

يا خاتم الملك ويا قاهرِ الـ ـأملاك بين الأخذ والصفح
عليك عين الله من فاتح للأرض مستَوْلٍ على النُجح
راياته تنطق بالنصر بل تكاد تملأ كتب الفتح
فاسعد بأيامك واستغرق الـ ـأعداء بالكبح وبالذبح

إلى كثير غيرهما من الشعراء .

واختص به أديبان كبيران ناثر وشاعر ، أولهما أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندى ، وثانيهما كاتبه أبو الفتح البستى .

فالأول (الميمندى) : كان وزير محمود بن سبكتكين ، واشتهر بفصاحة العلم ، وعلو الهمم ، وسعة النظر ، وحسن السياسة . « وكان الوزير الذى قبله «أبو العباس» قليل البضاعة فى الصناعة ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الإجادة والإحسان ، ولما سعدت الوزارة بأبى القاسم رفع ألويه الكتاب ، وعمر أفنية الآداب ، فأمر الكتاب أن يتحاشوا الفارسية إلا عن ضرورة من جهل من يُكتب إليه ، وعجزه عن فهم ما يتعرّب به إليه[1] — فطارت توقيعاته فى البلاد ولا شوارد الأمثال ، وأبيات المعانى من القصائد الطوال ، ففى كل ناد نداء بألحانها ، وفى كل مشهر شهادة باستحسانها الخ »[2]

وأما أبو الفتح البستى ، فكان كاتب محمود بن سبكتكين وموضع سره ، ومستشاره فى أمره — وهو أديب كبير له شعر جيد ، ونثر جيد ؛ فأما شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها إلى المعنى الدقيق ، فيصوغه فى لفظ رشيق ، وأما نثره

---

(١) أى فهم ما يكتب إليه بالعربية . (٢) العتبى ٣ / ١٧٠ .

فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره ، وهو فى نثره يكثر من الأمثال ، وفى نظمه يكثر من الحكم . وقد قال الثعالبى : إن له طريقة خاصة به ، فهو « صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة » تتجلى هذه الطريقة فى أمثاله من مثل قوله : « عادات السادات ، سادات العادات — الخيبة تهتك الهيبة — من كان عبد الحق فهو حرّ ، المنية تضحك من الأمنية — معنى المعاشرة ترك المعاسرة الخ ، وله فى هذا الباب الشىء الكثير .

كذلك تظهر طريقته فى شعره من دقة المعنى وأناقة اللفظ ، مثل قوله :

لا يغرنك أننى ليّن المـس فغربى إذا انتضيت حسام
أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكام

وقوله :

وقد يلبس المرء خز الثيا ب ومن دونها حالة مُضنيهْ
كمن يكتسى خدُّه حمرة وعلّتها وَرَمٌ فى الريَهْ

وقوله :

تحمّل أخاك على مابه فما فى استقامته مطمع
وأنَّى له خُلُق واحد وفيه طبائعه الأربع

ويظهر أن له ثقافة واسعة فى علم النجوم استخدمها كثيراً فى شعره .

وعلى الجملة فشعره ونثره يدلان على رقة ذوقه ، وسعة ثقافته فى فروع من العلم مختلفة ، إلى استفادة كبيرة من مزاولته الكتابة للسلاطين والأمراء ، واحتكاكه بالأحداث السياسية ، والمشاكل الاجتماعية ، وأكثر ما يتجلى ذلك فى أمثاله وحكمه .

وقد غضب عليه ابن سبكتكين أخيراً فنفاه إلى بلاد الترك ، ومات بها سنة ٤٠٠ .

ثم كان مؤرخ الدولة الغزنوية الكبير ، وهو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي . وقد سمى كتابه « اليميني » نسبة إلى لقب محمود بن سبكتكين ؛ فقد لقبه الخليفة القادر بالله « يمين الدولة وأمين الملة » . وقد ألف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الغزنوية ترجم فيه لسبكتكين ، وكيف أسس مملكته ، ثم تاريخ ابنه محمود ، والوقائع التي حدثت في أيامه الخ .

ولا يزال الكتاب يعد أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة — وقد صاغه في أسلوب أدبي مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبي ؛ ولذلك وقع بين الكتب الأدبية والتاريخية ، ولو كان نثراً مرسلا لكان أجدى على التاريخ . ومع هذا فقد حاز شهرة كبيرة في عالم الأدب ، وخاصة في الأقاليم الفارسية ؛ قال السبكي : « وكان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري »[1] ، وعني بشرحه كثير من الأدباء ، وطبع له في مصر شرح للمنيني الدمشقي .

* * *

وقد حكى الأستاذ براون في كتابه التاريخ الأدبي للفرس أن السلطان محمودا علم أن في مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيروني ، وأبو سهل المسيحي ، وابن الخمار ، وأبو نصر العرّاق ، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم ، فجمعهم مأمون بن مأمون ، وقرأ عليهم كتاب السلطان ، فأبى ابن سينا وفرّ ، وقبل البيروني ، وابن الخمار ، والعرّاق»[2] .

---

(١) طبقات الشافعية : ٤/١٣ . (٢) ٢/٩٦ .

وكان ذهاب البيرونى إليه نعمة لا تقدر ، فهو الذى استغل فتوح السلطان محمود فى الهند أحسن استغلال علمى ، وجعل ثروة الهند فى الرياضة والفلسفة والإلهيات فى يد العرب والفرنج ، ولا تزال كتبه التى ألفها العمدة الصادقة لكل من كتب عن الهند من شرقيين وغربيين ؛ وكان البيرونى هذا درة فى تاج الدولة الغزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية .

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (نسبة إلى بيرون مدينة فى السند) ولد سنة ٣٦٢ ، ونبغ فى كثير من العلوم ، وخاصة الرياضة والفلك ، وأزهر فى الأوساط العلمية ، وكانت — إذ ذاك — قصور الخلفاء والأمراء ومجالسهم تقوم مقام الجامعات اليوم . وقد عدد فى إحدى قصائده الذين أكرموه لعلمه ، فقال :

مضى أكثر الأيام فى ظل نعمة ... على رتب فيها علوت كراسيا

فآل عراقٍ قد غذونى بدَرِّهم ... ومنصور منهم قد تولّى غِراسيا

وشمس المعالى كان يرتاد خدمتى ... على نفرة منى وقد كان قاسيا(١)

وأولاد مأمون ومنهم عليُّهم ... تبدى بصنع صار للحال آسيا

وآخرهم مأمون رفّه حالتى ... ونوّه باسمى ثم رأّس راسيا(٢)

ولم ينقبض محمود عنى بنعمة ... فأغنى وأقنى مُغْضِيا عن مكاسِيَا(٣)

* * *

أبو الفتح فى دنياى مالِك ر بقتى ... فهات بذكراه الحميدة كاسيا(٤)

فلا زال للدنيا وللدين عامرا ... ولا زال فيها للغواة مواسيا

---

(١) هو شمس المعالى قابوص بن وشمكير أمير طبرسان ؛ وقد تقدم ذكره .

(٢) مأمون وأولاده مأمون أمراء خوارزم .

(٣) محمود هو محمود بن سبكتكين .

(٤) أبو الفتح هو أبو الفتح البستى ، وقد تقدم .

ويعده « سخاو » المستشرق الكبير — ناشر كتبه — أكبر عقلية علمية ظهرت ، وكذلك رأى محمد بن محمود النيسابورى ، إذ قال : « إن له فى الرياضيات السبق الذى لم يشق المحضرون غباره ، ولم يلحق المضمرون الجيدون مضماره » .

وفى الحق أنه كان من خير المثل العليا للعالم المخلص للعلم ، الواهب له حياته ، يزهد فى المال إلا ما يكفيه حاجته ، صنف القانون المسعودى للسلطان مسعود فوصله السلطان بأموال طائلة فردها بعذر الاستغناء عنها[١] .

« ولا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر إلا فى يومى النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمس إليه الحاجة فى المعاش » ، لا يمل الاستزادة من العلم حتى حين يجود بنفسه — دخل عليه الفقيه أبو الحسن الولوالجى ، وهو يجود بنفسه فسأله عن مسألة فى توريث ذوى الأرحام ؛ فقال له الفقيه — إشفاقا عليه : أفى هذه الحالة ؟ قال البيرونى : أودع الدنيا وأنا عالم بها خير من أن أخليها وأنا جاهل بها ! قال الفقيه : فلما خرجت من عنده سمعت الصراخ عليه[٢] . ويقول عن نفسه : « خصصت فى غريزتى منذ حداثتى بفرط الحرص على اقتناء المعارف بحسب السن والحال » . ويتعلم لغات مختلفة ؛ ففى كتبه عن العقاقير والجواهر يذكر اسم الشىء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية ؛ ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعانى ، ويفضلها على الفارسية ، وينقد الكتابة العربية ، كما ينقدها مفكرو اليوم نقداً دقيقاً فيقول : « إن كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها ، واستعملتها فى مآربها . . . وأنا نفسى قد طبعت على لغة (يريد بها لغته الأصلية الخوارزمية) لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة فى الأكواب ؛

---

(١) ياقوت : ٦ /٣٠٨ .　　(٢) المصدر نفسه .

ثم انتقلْتُ إلى العربية والفارسية ، وأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتابَ عِلْمٍ نُقِلَ إلى الفارسى كيف ذهب رونقه ، وكسف باله واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به ؛ إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية ، والأسمار الليلية» ... ثم ينقد الكتابة العربية فيقول : « وقد حل بأرضنا رومى ، فكنت أجىء بالحبوب والبذور والثمار وغيرها ، وأسأله عن أسمائها بلغته وأحررها ، لأن للكتابة العربية آفة عظيمة ، وهى تشابُهُ صور الحروف المزدوجة فيها ، واضطرارها فى التمايز إلى نقط المعجم ، وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها ؛ فإذا انضاف إليها إغفال المعارضة ، و إهمال التصحيح بالمقابلة — وذلك بالفعل عامٌّ فى قومنا — تساوى وجود الكتاب وعدمه ، بل علْمُ ما فيه وجهله ؛ ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما فى كتاب ديسقوريدس المنقولة إلى العربى من الأسامى اليونانية إلا أنا لا نثق بها الخ[1]

لقد اتصل البيرونى بشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وألف له « الآثار الباقية » ، وهو يبحث فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ، والاختلاف فى الشهور والسنين ، والتقاويم عند الأمم وأسسها ، إلى غير ذلك مما يسميه الفرنج الآن علم الكرونولوچيا .

فلما اتصل بمحمود بن سبكتكين فاتح الهند ، وقف من الفتوح موقفاً عجيباً يذكرنا بالجمعية العلمية الفرنسية فى حملة نابليون على مصر ، ولكن البيرونى كان جمعية وحده ، فعكف على الهند يدرسها من جميع نواحيها : جغرافيتها وعلومها

(١) قطعة نقلها الأستاذ كرنكو عن كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى — فى مجلة Islamic Culture : ٦/٥٣٠ .

ودينها بل وجواهرها ، وألف فى ذلك الكتب الكثيرة مثل تاريخ الهند ، والجماهر فى الجواهر الخ ، وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها إلى العربية ، ومن العربية إليها ، فنقل إلى السنسكريتية نظريات أقليدس ، والمجسطى فى الفلك ، ونقل إلى العربية من السنسكريتية « باتا نجالى » .

وربما كان أعظم كتبه القانون المسعودى الذى ألفه للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين . وهذا الكتاب يبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ، ولما ينشر بعد .

وقد عمّر « البيرونى » عمراً طويلا مباركا ألف فيه كتباً كثيرة نشرت فى رسالة له فى أول كتاب الآثار الباقية تدل على سعة آفاقه العلمية وعمقه فيها ؛ وقد مات بغزنة نحو سنة ٤٤٠ عن خمسة وسبعين عاماً .

كما كان من رجال الفلاسفة فى بلاط السلطان محمود ، ابنُ الخمار ، وكان نصرانياً ؛ وقد تقدم طرف من خبره .

كما كان فى بلاط من أدباء الفرس : الفردوسى ، والعنصرى ، والعسجدى ، والفرّخى ؛ وقد نظم له الفردوسى قسما من الشاهنامة ، كما نظم له الآخرون ، وموضع ذلك الأدب الفارسى (١) .

---

(١) انظر ذلك فى مقدمة الشاهنامه للدكتور عبد الوهاب عزام .

الباب الخامس

بلاد المغرب

لما فتح المسلمون بلاد المغرب كلها كانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : مملكة إفريقية ، وهى المغرب الأدنى ، وقاعدتها القيروان ، وسمى أدنى لأنه أدنى إلى بلاد العرب ومركز الخلافة ، والمغرب الأوسط ، وقاعدته تلمسان والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وقاعدته فاس فى مراكش .

وكان العرب يطلقون على سكان كل هذه البلاد البربر .

وقد افتتحها المسلمون من أوائل عهد الفتح ، ولقوا فى فتحها عناء كبيراً ، وبذلوا فى ذلك ضحايا كثيرة من سنة ٢٦ إلى سنة ٨١ .

وكان أهل هذه البلاد لسذاجتهم مرتعاً خصيباً للدعاة الخارجين على الدولة ، ولكل داع بمذهب دينى جديد . قال ياقوت : «البربر أجفى خلق الله ، وأكثرهم طيشاً ، وأسرعهم إلى الفتنة ، وأطوعهم لداعية الضلالة ، وأصغاهم لنمق الجهالة ، ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ... وكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدىّ الموعود به فأجابوا دعوته ، ولمذهبه انتحلوا ، وكم ادُّعى فيهم مذهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا » ، وقامت به دول مختلفة متعاقبة ؛ فقد خرج إلى المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩ ، ونشر الدعوة به وأسلم على يده خلق كثير ، فبويع له بالخلافة سنة ١٧٢ ، وأسس دولة تسمت دولة الأدارسة استمرت إلى سنة ٣٧٥ فاكتسحتها دولة العبيديين (الدولة الفاطمية) .

وقام بنو الأغلب بتونس ودولتهم تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمى حكمت من سنة ١٨٤ . وقد عظمت دولتهم وأنشئوا أسطولا قوياً فى البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينيا ، وكان عهدهم عصر سيطرة قوية على البحر ، واستمروا فى الحكم إلى ٢٩٦ حيث استولى عليهم العبيديون أيضاً .

ثم جاءت الدولة الفاطمية ، وكان منشؤها بالمغرب ، فبسطت سلطانها على جميع بلاد المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلنطى مضافا إليها صقلية وسردينيا ؛ وقد بدأ ملكهم على يد أبى محمد عبيد الله المهدى سنة ٢٩٦ ، واستمر الملك فى أولاده حتى تولى منهم المعز ؛ فلما انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ ، وتتابعت فتوحهم فى الشام والحجاز واليمن ، وقوى سلطانهم فيها ، ضعف سلطانهم فى المغرب .

فجاء بنو زِيرِى الصنهاجيين بتونس والجزائر ، وأصلهم من البربر ، وكانوا عمالا للفاطميين ؛ ولما سار المعز إلى مصر استعمل على تونس يوسف بن بُلُكِّين ، ثم استفحل أمر يوسف واستقل بمملكته ، وأسس دولة نسبت إليه استمرت من سنة ٣٦١ — سنة ٥٤٢ ، واشتهر من رجالها باديس بن يوسف ، وابنه المعز ، وهو أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك ، وكانوا قبلُ على مذهب أبى حنيفة ، ثم ابنه تميم بن المعز الشاعر الكبير ، وسيأتى ذلك .

* * *

ومن أول الفتح والمسلمون يعملون أقصى ما فى وسعهم لإدخال البربر فى الإسلام ، وتفقيههم وتحضيرهم ، وتوالى على بلاد المغرب أمراء عظام عملوا فى هذه السبيل أعمالا جليلة ، فحسان بن النعمان الغسانى عامل عبد الملك بن مروان على إفريقية هو الذى دوّن الدواوين بها باللغة العربية ، وغزا موسى بن نصير المغرب ،

وكان معه سبعة وعشرون ألفاً من العرب ، واثنا عشر ألفاً من البربر ، وأمر موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه . . . ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١ أيام عمر بن عبد العزيز[١] . . . وقد أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى الدين .

وفى أيام هشام بن عبد الملك فرّ قوم من خوارج العراق إلى المغرب ، وبثوا فيه مبادئهم ، فسرت دعوتهم فى البربر ، وأعجبهم من تعاليمهم أن الخليفة ليس يجب أن يكون قرشياً ، فانتقض البربر على العرب يريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم ، وساعد على ذلك ما لقيه البربر أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب من الظلم والفساد ، وكان خوارج المغرب على مذهب الإباضية والصفرية ، وكان لدعوة الخوارج أثر كبير فى المغرب فى إيجاد عصبية بربرية ضد العصبية العربية ، وكثر عدد الخوارج من البربر حتى بلغوا فى الثورة أيام عمر بن حفص عامل الخليفة المنصور أكثر من أربعين ألفاً من الصفرية ، وخمسة وعشرين ألفاً من الإباضية[٢] .

وفى أيام هارون الرشيد ولى على المغرب يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبى صفرة . قال ابن خلدون : « وفى أيامه انخضدت شوكة البربر ، واستكانوا للغلب وطاعوا للدين ، فضرب الإسلام بجرانه ، وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها » .

وفى عهد العباسيين أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق (مذهب أبى حنيفة) فى الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق ، والناس على دين ملوكهم ، قال القاضى عياض : « ظهر مذهب أبى حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب سنة أربعمائة ثم انقطع منها » ، وللمعز بن باديس الصنهاجى المتوفى فى أواسط المائة الخامسة أثر كبير فى ذلك ، فقد كان هو وأصحابه على مذهب الشيعة

(١) تاريخ ابن خلدون . (٢) انظر « الاستقصاء » : ١/٨٥ .

أخذاً من أسلافهم الفاطميين أيام استيلائهم على المغرب ؛ ثم قطع المعز دعوة الشيعة ، ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك ، وكان مذهب مالك معروفا فى هذه البلاد من قبل ، ولكن أهله كانوا فى محنة حتى نصرهم المعز هذا[١] .

وانتشر مذهب أهل السنة يزاحم الشيعة والخوارج .

هذه الأحداث العظمى من دخول العدد الكبير من العرب ، وفتح البلاد ، ونشر الإسلام واللغة العربية فيها ، وتثقيف الناس بالدين الإسلامى والأدب العربى ، وجعل البلاد جزءاً من المملكة الإسلامية يدخلها التجار من جميع الأجناس ، ويتبادلون مع أهلها المعاملات والسلع ، واختلاط العرب وغيرهم من المسلمين بأهل البلاد بالتزاوج والتوالد ، ووقوعها بين البلاد المتحضرة ، وخاصة بين مصر والأندلس ، وكثرة العلاقات والرحلات بين هذه البلاد بعضها و بعض ، كل هذا نقل بلاد المغرب من برابرة جفاة — كما يعبر ياقوت — إلى أمة لها مدنية ولها حضارة ولها ثقافة ، فلا عجب بعدُ إذا رأينا فى البلاد حركة عقلية تؤرخ . ويكون لها شأن يذكر .

وقد اشتهرت بلدان فى المغرب بتقدمها فى الحضارة والعمران والعلم والأدب كالقيروان والمهدية وتاهرت وسجلماسة وفاس .

فأما « القيروان » ؛ فقد أسسها عُقْبة بن نافع سنة خمسين ؛ قال ابن خلدون : « اختط عُقْبة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وكملت فى خمس سنين ، وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب ، ودخل أكثر البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، ورسخ الدين » ، وهى عاصمة إفريقية[٢] ، وفى القرن

(١) انظر الاستقصاء : ١/٦١ .

(٢) إفريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الأدنى والأوسط فيشمل طرابلس وتونس والجزائر .

الرابع كانت « مصراً بهياً عظيما قد جمع أضداد الفواكه ، والسهل والجبل — مع علم كثير — لا ترى أرفق من أهلها — ليس بينهم غير حنفى ومالكى مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية — فهى مفخرة المغرب ، ومركز السلطان ، وأحد الأركان ، أرفق من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان . . . جامعها بموضع يسمى السماط الكبير . . . وهو أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ، ومفروش بالرخام[1] .

والمهدية وهى مدينة من أعمال تونس اختطها المهدى رأس الفاطميين ، بينها وبين القيروان مرحلتان ، أسسها سنة ٣٠٠ ، وفرغ منها سنة ٣٠٥ ، وهى على ساحل البحر الأبيض داخلة فيه كهيئة كف متصلة بزند ، وسوَّرها سوراً محكما بأبواب من الحديد المصمت ، وجلب إليها الماء من قرية على مقربة من المهدية ، وجعل لها مرسى يسع ثلاثين مركباً .

وبنى على المرسى برجين بينهما سلسلة من حديد ؛ فإذا أريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفى السلسلة حتى تدخل ثم يمدونها كما كانت ، ولما أتم ذلك قال المهدى : « اليوم أمِنت على الفاطميات يعنى بناته ، وارتحل إليها وأقام بها ، ثم عمّر فيها الدكاكين ، ورتب فيها أرباب المهن ، كل طائفة فى سوق ، فنقلوا إليها أموالهم . . . وينسب إلى المهدية جماعة وافرة من العلماء فى كل فن[2] ، وكان من إحدى قرى المهدية هانئ أبو ابن هانئ الأندلسى ، وفى المهدية هذه ولد المعز فاتح مصر ، ومؤسس القاهرة .

وتاهرت بلد كبير من أعمال الجزائر قد أحدقت بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، ينتعش فيها الغريب ، ويستطيبها اللبيب ، رشيق الأسواق ، جيد

---

(١) المقدسى ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر معجم ياقوت فى مادة المهدية .

الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف[١] . . . وكانت قديماً عش الإباضية ؛ وقد أخرجت كثيراً من حفاظ الحديث ، وثقات المحدثين[٢] .

وسجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها ، شديدة الحر والبرد جميعاً ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمور والأعناب والفواكه والحبوب ، كثيرة الغرباء . . . وهم أهل سنة . . . بها علماء وعقلاء[٣] . . . ولنسائهم يد صنَاع فى غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب من الأُزُر تفوق القصب الذى بمصر . . . وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد « غابة » التى هى معدن الذهب ، ولأهلها جرأة على دخولها[٤] .

وفاس بلدان جليلان كبيران ، كل واحد منهما محصّن ، بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية قد استولى على أحدهما الفاطمى ، وعلى الآخر الأموى ، وكم ثم من حروب وقتال وغلبة ، كثير الخيرات ، قليل العلماء ، كثير الغوغاء[٥] ، وقال أبو عبيد البكرى : « مدينة فاس مدينتان : عَدْوة القَرَويين ، وعدوة الأندلسيين ، وعلى باب دار الرجل ، رحاه و بستانه بأنواع الثمر . . . وهى أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق »[٦] .

ولما وصف المقدسى إقليم المغرب جملة عند زيارته فيما يهمنا من الناحية العلمية ، قال : « إنه إقليم كبير طويل ... أهله لا يعرفون مذهب الشافعى إنما هو أبو حنيفة ومالك ، وكنت يوما أذاكر بعضهم فى مسألة ، فذكرت قول الشافعى فقال : اسكت من هو الشافعى ، إنما كانا بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب أفنتركهما ونشتغل بالساقية ؟ . . . وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ .
(٢) معجم ياقوت فى مادة تاهرت .
(٣) المقدسى : ٢٣١ .
(٤) ياقوت فى مادة سجلماسة .
(٥) المقدسى : ٢٢٩ .
(٦) ياقوت فى مادة فاس .

تعصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب أبي حنيفة إليكم ، ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك ، وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن عبد الله أن يدرُس عليه ، لجلالته وكبر نفسه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا ؛ فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمى ، وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد ، ثم سأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فدُل على محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فرحل إليه ، وأقبل محمد عليه إقبالا لم يقبله على أحد لما رأى منه من فهم وحرص ؛ فلما رأى محمد أنه قد بلغ مراده سيّبه إلى المغرب ، فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم ، ودقائق عجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب ، ففشا مذهب أبي حنيفة بالمغرب . . . وهناك القسم الثالث المذهب الفاطمى ... ولهم تصانيف يدرسونها ، ونظرت فى كتاب الدعائم ، فإذا هم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول ، ويقولون بمذهب الإسماعيلية ، ولهم فيه سرّ لا يعلّمونه لكل أحد إلا من وثقوا به بعد أن يحلفوه ويعاهدوه ، وإنما سموا باطنية لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن وتفاسير غريبة ، ومعان دقيقة ، وهذه الأصول مذاهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى[١] .

* * *

وقد اشتهرت بلاد المغرب بالعناية بالحديث والفقه ، وتقصيرها فى العلوم النظرية من الفلسفة وفروعها ؛ قال المقَّرِى التلمسانى : « وأما ملكة العلوم النظرية فهى قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق القَرَويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط ، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون[٢]

---

(١) المقدسى : ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) هو أبو القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون عاش من (٦٦٦ — ٧٣٠) .

إلى المشرق ، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها »[١] .

وقد اشتهر من المغرب كثير من الفقهاء وخاصة فى الفقه المالكى من أشهرهم وأولهم أسد بن الفرات ، وهو نيسابورى الأصل قيروانى الدار ، أخذ عن مالك موطأه فى المدينة ، ورحل إلى العراق فأخذ من أبى يوسف ومحمد صاحبى أبى حنيفة ، وأخذ عن أبى يوسف الأسئلة التى كان يثيرها الحنفية ، ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم ، فجردها أسد بن الفرات من أحكامها ، وعرضها على ابن القاسم ، وتلقى منه أحكامها على مذهب مالك ، أو اجتهاد ابن القاسم نفسه ، أو اجتهاد أشهب ، ودوّن ذلك كله فى الكتاب المشهور المسمى بالمدوّنة ، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية ، والأحكام أحكام مالك وصحبه ، وتشتمل على نحو ستة وثلاثين ألف مسألة .

وقد حمل أسد بن الفرات ذلك كله إلى القيروان ونشره بالمغرب ، وتولى القضاء بها زمناً ، كما تولى قيادة الجيش الذى فتح صقلية لبنى الأغلب ، وقد قتل وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ .

ثم سُحْنون وهو عبد السلام بن سعيد ، عربى من تنوخ ، كان أبوه من العرب الذين نزلوا القيروان ، تعلم على علماء القيروان ، ورحل فأخذ العلم عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم .

وقد أخذ مدونة أسد بن الفرات التى ذكرنا ، وأعاد قراءتها على ابن القاسم وصححها عليه ، وعاد بها إلى القيروان ، فأقبل عليها الناس فى المغرب والأندلس

---

(١) أزهار الرياض : ٣/٢٦ .

وتولى قضاء إفريقية ، وجدّ فى نشر مذهب مالك ، وتعلّم عليه كثيرون حتى عد العلماء الذين تخرجوا عليه بنحو سبعمائة .

قال ابن حارث : « قدم سُحنون (إفريقية) بمذهب مالك ، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والورع والعفاف والانقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، ومالت إليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد امحى ما قبله ، فكان أصحابه سُرُج أهل القيروان ... ابنه عالمها وأكثرهم تأليفاً ، وابن عبدوس فقيهها ، وابن غافق عاقلها ، وابن عمر حافظها ، وابن جبلة زاهدها ، وحمديس أصلبهم فى السنة وأعداهم للبدعة ، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث ، وأشدهم وقاراً وتصاونا — كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم »[(١)] .

وتوفى سنة ٢٤٠ عن ثمانين عاما ، ولما مات رجت القيروان لموته . واشتهر ابنه محمد بن سحنون بالتآليف الكثيرة فى الحديث والفقه ، ومات سنة ٢٥٦ .

ثم أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللّبّاد اشتهر بالحفظ والإتقان وسعة العلم ، وسعيه لنشر المذهب المالكى فى المغرب ، وتكوين علماء حملوا علمه ، وأفادوا به الناس . وقد اضطهده الفاطميون أيام سطوتهم لأنه لم يتابعهم فى آرائهم ، فسجنوه ومات سنة ٣٣٣ .

ثم أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الحراوى الفاسى ، وهو الذى أدخل فقه مالك فى المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب أبى حنيفة ، وكان من الحفاظ المعدودين ، والفقهاء المشهورين مات بفاس سنة ٣٥٧ .

ثم أبو محمد عبد الله بن أبى زيد النفزى القيروانى ، إمام المالكية فى زمنه

---

(١) الديباج ص ١٦٢ .

كثير التأليف واسع الفقه حتى سمى « مالك الصغير » . رحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به ، له كتاب الزيادات على المدونة ، وله مختصر المدونة توفى سنة ٣٨٦ .

وأبو عبد الله بن محمد بن محمود الهَوّارى قاضى فاس و إمامها يضرب به المثل فى عدله وورعه ، له تعليقات على المدونة مات سنة ٤٠١ الخ .

والقابسى على بن محمد المعروف بابن القابسى ، كان واسع الرواية عالما بالحديث ورجاله ، فقيهاً مالكياً أصولياً متكلما مؤلفاً مجيداً ، له كتاب الممهد فى الفقه ، والمنقذ من شُبه التأويل ، وكتاب المعلمين والمتعلمين ، وكتاب رتب العلم وأحوال أهله الخ ؛ مات بالقيروان سنة ٤٠٣ .

واشتهر من فقهاء الحنفية محمد بن عبدون ، ولى القيروان بعد سحنون ، فاضطهد المالكية الخ .

ولما تغلبت الدولة الفاطمية نشرت فقهها الشيعى ودعوتها الشيعية فى المغرب ، كما نشرتهما بعد فى مصر ، واضطهدت الفقهاء السنيين ؛ وقد عرضوا التشيع على كثيرين منهم فأبوا فعذبوهم « وقد قتلوا فى وقعة أبى يزيد مُخَلَّد بن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان »[1] .

على الجملة فقد كانت الحركة الدينية الفقهية فى المغرب حركة قوية نشيطة . أكثر ما خدمت فقه الإمام مالك .

* * *

والعلم النظرى أو الفلسفة — و إن لم ينم كثيراً فى بلاد المغرب — لم يخل ممن عكف عليه ، فيذكر ابن أبى أصيبعة أن إسحاق بن عمران ، كان بغدادى

(١) انظر الحجوى فى تاريخ الفقه الإسلامى ، ومخلد هذا ثائر بربرى هاجم إفريقية سنة ٣٣٣ ، وأخذها من يد الفاطميين ؛ ثم ظفر به المنصور بن القائم العبيدى سنة ٣٣٦ .

الأصل مسلم النحلة ، ودخل إفريقية فى دولة زيادة الله بن الأغلب ، وكان قد استجلبه (وإنما دعاه لحاجته إلى الطب ، والطب كان دائماً مقرونا بالفلسفة) ، وبه ظهر الطب بالمغرب ، وعرفت الفلسفة ، وكان طبيباً حاذقا متميزاً بتأليف الأدوية بصيراً بتفرقة العلل ، أشبه الأوائل فى علمه ، وجودة قريحته ، استوطن القيروان حيناً ؛ وقد ألف كتباً كثيرة كلها فى الطب .

وقد تتلمذ له فى القيروان إسحاق بن سليمان الإسرائيلى ، وأصله من مصر . ثم سكن القيروان ، ولازم إسحاق بن عمران ، وكان إسحاق بن سليمان مع فضله فى صناعة الطب بصيراً بالمنطق . متصرفاً فى ضروب المعارف ، وعمر عمرا طويلا إلى أن نيف على مائة سنة ، وقد ألف فى الطب والحكمة والمنطق ، وقد خدم الأغالبة والفاطميين ومات نحو سنة ٣٢٠ .

وأنجب هؤلاء الوافدون من الأطباء أطباء من أهل البلاد نفسها ، مثل أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار من أهل القيروان ، وقد اشتهر بالطب وخدمة العامة به . قالوا وكان عنده نحو خمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها ، وكان إلى اشتغاله بالطب وتأليفه فيه مؤلفاً فى التاريخ ، فألف فى علماء زمانه ، وفى أخبار الدولة الفاطمية الخ .

* * *

ثم كان حظهم من الأدب كبيراً ، وقد مر المغرب بالدور الذى مرت به مصر عند اختلاط العرب بسكان البلاد . من وقوف الشعر إلا القليل الضعيف حتى إذا زالت روعة الفتح وكثر دخول العرب واتصالهم بالبربر ، وانتشرت اللغة العربية ، ووجد جيل نشأ فى المَرْبَى العربى أخذ الشعر يجود وربما كان خير موطن له دولة الأغالبة ، ودولة الفاطميين ، ودولة الصنهاجيين (بنى

زيرى) . فنى دولة الأغالبة كان كثير من أمرائهم أدباء ، فإبراهيم بن الأغلب نفسه كان شاعراً ، فمن شعره يفخر بانتصاره :

ما سار عزمى إلى قوم وإن كثروا   إلا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا أقول إذا ما الأمر نازلنى   يا ليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى أجلِّيَه قهراً بمعتزمٍ[1]   كما يجلِّى الدجى بدرٌ إذا طلعا
قوما قتلتُ وقوماً قد نفيتهمُ   ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا
كلاًّ جزيتهمُ صَدْعا بصدعهمُ   وكل ذى عمل يجزَى بما صنعا

وكذلك حفيده أبو العباس بن أبى عِقال بن إبراهيم ، وهو الذى ولّى سحنونا الفقيه قيادة الجيش الذى فتح صقلية ، ومن شعره يقول فى الفخر أيضاً :

أنا الملك الذى أسمو بنفسى   فأبلغ بالسمو بها السحابا

* * *

أُظل عشيرتى بجناح عزى   وأمنحها الكرامة والثوابا
وأصطنع الرجال وأطَّبيهم   وأغفر للمسىء إذا أنابا

* * *

أنا ابن الحرب ربتنى وليداً   إلى أن صرت ممتلئاً شبابا
لعمر أبيك ما إن عبت قومى   وما أخشى بقومى أن أُعابا
بنيت لهم مكارم باقيات   إذا ما صارت الدنيا خرابا

وقد اشتهر من شعراء هذه الدولة بكر بن حماد الزناتى ؛ وقد رحل إلى المشرق فدخل البصرة والكوفة وبغداد ، ولقى بعض كبار شعرائها كدعبل الخزاعى وأبى تمام ، وعاد إلى القيروان ، وغلب على شعره الوعظ والزهد كقوله :

---

(١) يريد بالمعتزم الفرس الجامح .

قف بالقبور فناد الهامدين بها   من أعظُم بليت فيها وأجساد

* * *

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا   هيهات هيهات يا بكر بن حمّاد
بينا ترى المرء فى لهو وفى لعب   حتى تراه على نعش وأعواد

* * *

فكلنا واقف منها على سفر   وكلنا ظاعن يحدو به الحادى
فى كل يوم ترى نعشاً نشيعه   فرائحٌ فارقَ الأحباب أو غاد[1]

* * *

أما الدولة العبيدية فكان فيها الشعر أرقى وأضخم للأسباب التى ذكرناها عند الكلام فى الأدب الفاطمى فى مصر ، وحسبها أن أنجبت فى الشعر ابن هانئ الأندلسى ؛ وقد نسب إلى الأندلس لإقامته هناك بعض الوقت وإلا فهو إفريقى من قرية من قرى المهدية ، وكان فى شعره للمعز ، كما كان أبو الطيب لسيف الدولة يصف حروبه وأسطوله ، ويدون وقائعه ، وينشر دعوته ، ويمجد خلاله ؛ وقد تقدم ذكر طرف عنه ، وكان كذلك حوله شعراء ابتلعهم كما ابتلع المتنبى من حوله ، فكان فى بلاط المعز بالمهدية من الشعراء أبو الحسن على بن محمد بن الأيادى التونسى ، وقد كان شاعراً كبيراً اتصل بالفاطميين أيام القائم والمنصور والمعز . وكذلك على بن عبد الله التونسى ، ومقداد بن الحسن الكتامى ، وابن هانئ نفسه يفخر على هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ويستصغر منزلتهم منه فيقول :

أرى شعراء الملك تنحت جانبى   وتنبو عن الليث المخاضُ الأوارك[2]

---

(١) انظر المنتخب المدرسى من الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب .

(٢) تنحت جانبى : تطعن فى ، والمخاض : الحوامل من النوق ، والأوارك التى ترعى الأراك ، ورعى الأراك من دلائل الضعف ، يقول إن الشعراء يطعنون فى ، وهم أمامى كالنوق الضعيفة أمام الأسد .

تخب إلى مَيْدان سَبقٍ بطاؤُها ... وتلك الظنون الـكاذبات الأوافك
رأتنى حماما فاقشعرت جلودها ... وإنى زعيم أن تلين العرائك
تسىء قوافيها وجودك محسن ... وتنشد إرْنانا ومجدك ضاحك[1]
وتُجدَى وأُكدى والمناديح جمة ... فما لى غنىّ البال وهى الصعالك[2]
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة ... طموح ونفس للدنية فارِك[3]

وفى الدولة الصنهاجية كان العمران قد استحكم ، والصلة بين المغرب وبين الأندلس ومصر والعالم الإسلامى كله قد تمكنت ، والحضارة قد ازدهرت .

قال ابن خلدون : « كان ملكهم أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه » ، فرقيت العلوم والفنون ، ومنها الأدب .

ومن أشهر ملوكهم المعز بن باديس قالوا : « إنه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد » وذكر أكثرهم ابن رشيق فى كتابه « أنموذج الزمان فى شعراء قيروان » .

وكان من الأمراء الصنهاجيين شعراء مجيدون من أشهرهم تميم بن المعز بن باديس — وهو غير تميم بن المعز المصرى — مَلَكَ إفريقية وما والاها ، وكان محباً للعلماء والشعراء مقرباً لهم ، ومن شعره :

إن نظرت مقلتى لمقلتها ... تعى ممـــا أريد نجواه
كأنها فى الفؤاد ناظرة ... تكشف أسراره وفحواه

وكان من شعرائه الحسن بن رشيق وغيره .

وقد نبغ فى هذه الدولة كثير من الشعراء والأدباء مثل عبد الـكريم النهشلى ،

---

(١) الإرنان : رفع الصوت بالبكاء ، وهذا علامة الضعف .
(٢) يقول : يعطون الكثير وأعطى القليل ، ومع ذاك أنا غنى القلب ، وهم صعاليك .
(٣) فارك : كارهة .

وكان شاعراً أديباً ناقداً ، عارفا باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها . مات سنة ٤٠٥ ؛ وقد أكثر ابن رشيق من النقل عنه فى العمدة ، وذكر أن له كتابا فى الشعر .

ومثل علىّ بن أبى الرِّجال رئيس ديوان الإنشاء فى الدولة الصنهاجية ، واشتهر بالكرم وتشجيع الأدب ، وهو الذى ربّى المعز بن باديس وحبب إليه الأدب ، وهو الذى ألف له ابن رشيق كتاب « العمدة » ، وألف له ابن شرف « رسائل الانتقاد » . مات سنة ٤٢٥ .

ومثل أبى عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيروانى كان إماماً فى اللغة ، ألف كتاب « الجامع » فى اللغة ، وهو يقارب التهذيب للأزهرى — وهو شيخ ابن رشيق ، وهو ينقل فى كتابه العمدة أقواله وما جرى له فى مجلسه من أدب ، وكان يطرح على تلاميذه عويصات المسائل ويكلفهم حلها . مات سنة ٤١٢[1] .

وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى الضرير ، وهو كذلك من شيوخ ابن رشيق فى الأدب . قال عنه : « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقَراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . وكان شاعراً مطبوعا سلك طريقة أبى العتاهية فى سهولة الطبع ولطف التركيب ، ولا غناء لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه . مات سنة ٤٠٦ ، وقد زاد على السبعين »[2] .

ومن كبار المؤلفين فى الأدب إبراهيم بن على الحُصْرى القيروانى ، وهو صاحب كتاب زهر الآداب ، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون ؛ قال فيه ابن رشيق : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورؤس عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تأليفاته ، وانثالت عليه الصلات من الجهات وله ديوان شعر[3] . مات سنة ٤١٣ .

---

(١) ترجم له ياقوت وابن خلكان .   (٢) انظر ابن رشيق للميمنى .
(٣) ابن خلكان .

وكتابه زهر الآداب يدل على ذوق فى الأدب رقيق ، واطلاع واسع على ما أنتجه الأدباء من الجمل الروائع ، والرسائل البليغة .

وله ابن خالة هو أبو الحسن علىّ بن عبد الغنى الحصْرى القيروانى ، كان عالما بالقراءات ، وشاعراً ظريفاً ، وهو صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

رقــد السمّار فأرقه أسف للبين يردده

وقد حازت شهرة كبيرة ، وعارضها كثير من الشعراء فى مختلف الأمصار إلى عصرنا هذا .

وظهرت فى المغرب حركة جيدة فى النقد الأدبى ، وردت أول الأمر نتفاً فى كتب الأدب عندهم كقول عبد الكريم النهشلى : « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً فى غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم الخ » .

ومثل قول إبراهيم الحصرى : « الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول فى السمع ، قريب المثال ، بعيد المنال ، أنيق الديباجة ، رقيق الزجاجة ... يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن فى صفحاته ... وحمل الصانع شعره على الإكراه فى التعمل بتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى ، يعفى آثار الصنعة ، ويطفى أنوار الصبغة ، ويخرجه إلى فساد التعسف ، وقبح

التكلف . . . وأحسن ما أجرى إليه ، وأعول عليه هو التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة » .

ثم ارتقى هذا حتى صار موضوعاً قائماً بنفسه ، وتوجت هذه الحركة بكتاب العمدة لابن رشيق ، وأعلام الكلام لابن شرف[1] ، وهما من خير الكتب فى النقد الأدبى .

وقد نقل ابن رشيق فى كتابه العمدة فن النقد من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين — كما فعل صاحب الموازنة والوساطة — إلى نقد للشعر عامة ؛ وقد قال فيه ابن خلدون : « وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » .

و بعد العمدة ألف ابن رشيق كتابه « قراضة الذهب » ، وأكثر ما يتعرض فيه للسرقات الشعرية ، ومتى تجوز ، ومتى لا تجوز ، وأين تحسن وأين لا تحسن[2] ، كما وضع ابن شرف كتابه « أعلام الكلام » ، وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريرى ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه فى قول قصير ، و يبين مزاياه وعيو به فى إيجاز[3] .

وقد كان كلاهما من القيروان ، وكانا من ندماء المعز بن باديس وشعرائه وجلسائه ؛ ولما أغار الهلالية القادمين من مصر على القيروان فرا وقالا القصائد فى رثاء القيروان . وذهب ابن رشيق إلى صقلية حيث مات بها سنة ٤٥٣ ، وذهب ابن شرف إلى الأندلس ومات بها سنة ٤٦٠ .

وقد كانا صديقين ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا فى الأدب كتلك

---

(١) نشر الأستاذ عبد العزيز الميمنى كتاب النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ، كما وضع رسالة قيمة فى ابن رشيق ، وابن شرف فانظرهما .

(٢) وقد طبع فى مصر . (٣) طبع كذلك فى مصر .

المساجلة التى كانت بين الخوارزمى، و بديع الزمان الهمذانى .

* * *

وعجيب أمر المسلمين فى هذه العصور، فما استقر قرارهم فى المغرب حتى أنشئوا أسطولا قوياً فى البحر الأبيض فتحوا به صقلية وسائر الجزائر حولها، وكان فتح صقلية على يد الأغالبة؛ وقد كان بها ثلثمائة ونيف وعشرون قلعة، ولكنها لم تثبت أمام قوة المسلمين .

قال ابن خلدون : «كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا . . . ثم قال : وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على بحر الروم (البحر الأبيض) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشىء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم؛ فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل : ميورقة ومنورقة وسردانية وصقلية ومالطة وأقريطش وقبرص . . . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة لا يعدونها — وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته» .

ولما فتحوا صقلية فسرعان ما نشروا دينهم وعلمهم ولغتهم؛ بل إن قائد الجيش فى الفتح كان هو أسد بن الفرات العالم المالكى المشهور ومعه جماعة من وجوه أهل العلم فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل، وما زال يفتتح فى قلاعها

حتى أصيب بجروح بالغة مات متأثراً بها ، فأتم خلفاؤه الفتح . ثم « صار أكثر أهلها مسلمين ، و بنوا بها الجوامع والمساجد »[1] ، وانتشر بها العلم ، وأصبحنا نسمع عن كثير من العلماء ينسبون إليها ؛ فيقولون : فلان الصقلى ، يرحل إليها علماء المسلمون يعلمون الدين واللغة ، والأدباء يشعرون ، والخليعون يقولون فى الخمر ورهبان الأديار و بناتها . فنجد المقريزى — مثلا — يقول : محمد بن الحسن بن على الكَرْكنتى الفقيه المالكى تفقه بصقلية و إفريقية ؛ وقدم الإسكندرية — وكركنت مدينة بصقلية .

والعماد الأصفهانى يعقد باباً طويلا فى القسم الثانى من الجزء الحادى عشر فى ذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية ، ويروى فيه شعراً صقلياً بعضه على أوزان جديدة ، كقول أبى الحسن بن أبى البِشْر فى راقصة :

وغزالٍ مشـــنَّفٍ قد رثى لى بعد بُعْدى

لمّـا رأى ما لقيت

مثل روض مفوَّفٍ لا أبالى وهو عندى

فى حبـــه إذ ضنيت

وجهه البدر طالعاً تاه لمـــا حاز ودى

فإننى قد ســـقيت الخ

ولا ننسى القائد الكبير جوهراً الصقلى فاتح مصر ، و بانى الأزهر ، ومدوخ المغرب كله لمولاه المعز ، وهو غلام رومى الأصل من مواليد صقلية ، صار مولى للمنصور ثم للمعز ، وكان من أكفأ القواد الذين عرفهم التاريخ . بل نجد من النحاة محمد بن خراسان الصقلى ، كان مولى لبنى الأغلب ، ورحل إلى مصر ،

(١) معجم ياقوت فى صقلية .

وتعلم النحو على أبى جعفر النحاس ، وروى عنه مصنفاته ، وعاد إلى صقلية يدرس النحو ، ومات بها سنة ٣٨٦ عن ست وسبعين سنة[١] .

ومحمد بن على بن الحسن بن عبد البر الصقلى التميمى اللغوى ، ولد بصقلية ، ورحل عنها فى طلب العلم ثم عاد إليها ، وكان موجوداً سنة ٤٥٠ ، وهو أستاذ ابن القطاع الصقلى .

وفى العصر المتأخر عن عصرنا هذا أخرجت صقلية ابن حمديس الصقلى الشاعر المشهور والإمام المازرى المحدث الكبير صاحب كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وهو منسوب إلى مازَر Mazzard بلدة بصقلية ، والإدريسى الجغرافى الشهير ، وابن ظفر الأديب مؤلف كتاب سلوان المطاع ، وابن القطاع أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض ، ومؤلف « الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة » الخ .

(١) انظر بغية الوعاة للسيوطى .

الباب السادس

جزيرة العرب

أسلفنا فى « فجر الإسلام » ما كان فى الحجاز من علم وفن وأسباب ذلك .

والحجاز قطر قلما يعتمد على نفسه فى العيش لقلة زرعه ونتاجه . فلما كان موطنَ الخلافة أيام الخلفاء الراشدين كانت تأتيه الأرزاق من البلاد المفتوحة كمصر والعراق ، ولما انتقلت الخلافة إلى دمشق فى العهد الأموى ظلت الخيرات تنهال على الحجاز لكثرة الفتوح وكثرة الغنائم ، وكانت عصبية الأمويين عصبية عربية تقر بالسيادة للعرب ، فكانت ترعى جزيرة العرب وسكانها ، وكان الفاتحون من العرب ، وكثير من غنائمهم يتسرب إلى بلادهم ، ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم وعطاياهم . لذلك سعدت الجزيرة وأنتجت علماً وفنا .

فلما جاءت الدولة العباسية تغير الوضع فأصبح زمام الأمور أكثره فى يد الفرس ، والعمال أكثرهم من الفرس .

وزاد الأمر سوءا فى الحجاز خروج العلويين به والتفاف الناس حولهم و إرسال الخلفاء العباسيين من ينكل بهم ؛ ففى عهد المنصور خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ومعه أشراف بنى هاشم وأعيان «المدينة» فعزَل عاملها من قبل المنصور وولى عليها عاملا من قبله ، فبعث إليه المنصور جيشا كبيراً قاتله وقتله ، وقتل كثيراً ممن معه .

وفى أيام الهادى خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واجتمع حوله آل أبى طالب وكثير غيرهم ، وأرسل الهادى جيشاً فكانت

وقعة « وجّ » بين مكة والمدينة ، ثم قتل الحسين وكثير ممن معه . وهكذا تتابعت حوادث خروج العلويين ، وثورات الحجاز ، وفى كل مرة ينكل العباسيون بهم وتزيد كراهيتهم وقبض يدهم عنهم .

فأخذت جزيرة العرب يقل شأنها شيئاً فشيئاً بغلبة العنصر الفارسى ، وإبعاد العنصر العربى وقلة المدد الذى يرسل إلى الجزيرة .

ولما جاء المعتصم وتغلب العنصر التركى كان الأمر أسوأ ، فقد « كتب إلى عماله فى الأطراف بإسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وانحط شأن العرب من ذلك الحين .

واستمر هذا العبث بالجزيرة ، ففى خلافة المستعين أحمد بن المعتصم تغلب إسماعيل بن يوسف من أولاد على بن أبى طالب على مكة فهرب عاملها من قبل الخليفة ، وقتل إسماعيل هذا الجند وجماعة من أهل مكة ونهب منزل العامل ، ومنازل أصحاب السلطان ، وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار وأخذ كسوة الكعبة وما فى الكعبة وخزائنها من الأموال ، ونهبت مكة وأحرق بعضها ، ثم خرج منها إلى المدينة فتوارى عنه عاملها ثم رجع إلى مكة فحصرها حتى مات أهلها جوعا وعطشا ، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم ، ولقى أهل مكة منه كل بلاء . ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ الأموال التى للتجار وأصحاب المراكب ، ثم وافى الموقف بعرفة فأفسد فيه كثيراً ، وكان ذلك سنة ٢٥١[٢] .

وجاء القرامطة فأفسدوا فى البلاد ، وزحفوا على مكة واستولوا عليها وارتكبوا أشنع الفظائع ، ونهبوا الحُجاج ومنعوهم من زيارة البيت الحرام ، وفى سنة ٣١٢ نكلوا بالحجاج أعظم تنكيل ونكبوا العرب أعظم نكبة شهدتها الجزيرة ،

---

(١) خطط المقريزى .   (٢) المنتقى فى أخبار أم القرى ص ١٩٥ .

وكان عدد الذين قتلهم القرامطة فى تلك السنة من الحجاج وفى بيت الله وشوارع مكة وضواحيها ثلاثة آلاف غير الذين ماتوا جوعا ، ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف .

وفى سنة ٣١٤ وسنة ٣١٥ وسنة ٣١٦ لم يحج إلى مكة من العراق أحد للخوف من القرامطة[1] ، وكان أبو طاهر القرمطى يقول :

أنا بالله و بالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ونزعوا الحجر الأسود ، و بقى فى إحدى زوايا « الاحساء » إلى سنة ٣٣٩ حيث رده القرامطة بأمر المنصور الفاطمى — والخلافة فى بغـداد عاجزة عن إخضاعهم .

كل هذه الأحداث وأمثالها أضعفت شأن جزيرة العرب وجعلتها فى شبه عزلة وأخرتها ماديا وعلميا ، حتى إن المقدسى لمـا زارها فى القرن الرابع وصفها بالفقر وقلة العلم .

ووصف مذاهبهم الدينية فقال : « إن مذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سنة ، ونواحى صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة (خوارج) غالبة ، وهَجَرَ وصعدة شيعة . . وشيعة عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة . . . والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبى حنيفة ، والجوامع فى أيديهم ، وفى نواحى نجد اليمن مذهب سفيان . . والعمل بهجر على مذهب القرامطة ، و بعُمان داودية (على مذهب أهل الظاهر) لهم مجالس .

ووصف لغتهم فقال : وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس . . وأهل عدن يقولون

(١) أخبار مكة طبعة وستنفيلد : ٢/٢٤٥ .

لرجليه رجلينه ويديه يدينه وقس عليه . . . وجميع لغات العرب موجودة فى بوادى هذه الجزيرة ، إلا أن أصح لغة بها لغة هذيل ، ثم النجديين ، ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش »[1] .

ومع هذا فقد كان فى الحجاز حركة دينية فى الفقه والحديث لا بأس بها بفضل تتابع المحدّثين الذين كانوا يروون أقوال النبى وأعماله محدثا عن محدث ، وقد كان هذا الإقليم أخصب الأقاليم فى هذا الموضوع فظل علمه يتوارث ، ثم كانت هذه البلاد المقدسة تأوى إليها أفئدة كثير من العلماء يحصّلون العلم ويفيدونه ويعتزون بجوار الحرم المكى أو قبر الرسول ، ويفضلون الإقامة فيهما فيكونون مصدر علم . وقد رأينا فى تراجم كثير من المحدثين أن كان فى برنامجهم الرحلة إلى الحجاز ورواية الحديث عن ساكنيه ، وإطالتهم الإقامة فيه ، وكان للإمام مالك وتلاميذه من بعده فضل كبير فى الحركة الفقهية .

فكان فى مكة أمثال أبى بكر عبد الله بن الزبير الحميدى الأسدى المكى أحد شيوخ البخارى الذين أخذ عنهم فى مكة . قال يعقوب بن سفيان فيه : ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه . مات بمكة سنة ٢١٩ وكثر تلاميذه فى مكة ممن رووا عنه وأخذوا علمه .

كما نبغ بالمدينة أبو إسحاق إبراهيم بن المنذر بن عبد الله الأسدى ، أحد كبار علماء المدينة ومجتهديها مات سنة ٢٣٦ . وتتابع بعده تلاميذه . ويطول بنا القول لو عددنا المحدثين المكيين والمدنيين فى القرن الثالث والرابع الهجرى فهم كثير ، منهم من كان من الحجاز نفسه ومنهم الراحل إليه المتوطن فيه .

ثم انتشر فى اليمن فقه الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على زين العابدين

---

(١) أحسن التقاسيم : ٩٤ وما بعدها ، والعبارة فى بعض المواضع مضطربة .

ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومذهبهم فى الأصول قريب من مذهب الاعتزال ، فهم يقولون بالعدل والتوحيد كالمعتزلة ، و بوجوب الخروج على الظلمة كالخوارج ولهم فى الفقه اجتهاد يخالفون فى بعض الأحكام المذاهب الأربعة ، وقد اشتهر منهم أئمة فى اليمن ، اجتهدوا على أصول مذهبهم كالإمام يحيى بن الحسين الزاهد الرسى المتوفى سنة ٢٩٨ ، والإمام الناصر للحق ، ألف كتبا على مذهب الزيدية والقاسم بن إبراهيم العلوى صاحب صعدة المتوفى سنة ٢٨٠ ، وأبو الحسن الصليحى ملك اليمن سنة ٤٥٥ ، وكان فقيها زيديا كبيراً ، وقتل سنة ٤٧٣ . وعلى الجملة فهم من قديم كان كثيراً ما يجمع ملكهم بين تولى أمور الدولة والاجتهاد الدينى على المذهب الزيدى .

* * *

وقد بقيت الأندلس وسنفرد لها جزءاً خاصا بها إن شاء الله .

* * *

وقد كان من أهم مظاهر الحركة العلمية التى تدعو إلى الإعجاب فى هذا العصر الرحلات ، فقد أصبح تقليدا للعالم أن يرحل و يلاقى العلماء و يأخذ منهم و يروى عنهم مع عناء الأسفار وفقر العلماء غالبا .

وقد بلغ الغاية فى ذلك المحدّثون ، فقد كانوا حركة دائمة يرحلون من أقصى الأرض إلى أقصاها لطلب الحديث وجمعه . وما يشتهر عالم فى بلدة بالحديث وضبطه وجمعه حتى يرحل إليه العلماء من كل صوب . خذ لذلك — مثلا — محمد بن إسماعيل البخارى يرحل من بخارى إلى مدن خراسان إلى الجبال إلى العراق ومدنه كلها إلى الحجاز إلى الشام إلى مصر ، وفى كل مدينة يتحرى حالة علمائها ، و يأخذ عمن وثق بهم ، وليس البخارى إلاّ مثلا واحداً من أمثلة كثيرة لا تحصى ،

فقلّ أن تجد محدثاً كبيراً إلا رحل هذه الرحلات وأمثالها حتى قد يقطع المحدّث المسافات الواسعة لرواية حديث واحد وضبطه . وتقرأ تراجم العلماء فى كتاب كتاريخ بغداد ، فيأخذك العجب من نشاط العلماء ورحلاتهم واحتقارهم لمشاق السفر ومتاعب الفقر فى سبيل العلم ومعرفتهم كل مصر وكل بلدة ومن فيها من العلماء وما فيها من حديث .

وليس الأمر مقصوراً على المحدّثين ؛ فهكذا كان الشأن فى كل علم وكل فن . فأبو جعفر النحاس يذهب من مصر إلى العراق ليأخذ النحو عن أهلها ، وابن بابشاذ المصرى يذهب إلى بغداد فى تجارة الجواهر ، ويأخذ النحو عن رجالها ، ومن بالقيروان يذهب إلى المدينة ليأخذ عن تلاميذ مالك وإلى العراق ليأخذ عن تلاميذ محمد بن الحسن ، ويسمع الأدباء والشعراء بسيف الدولة فيكون فى بلاطه الخوارزمى وأبو على الفارسى وابن جنى الموصلى ؛ والمتنبى يوما بحلب ويوما بمصر ويوما بالعراق ويوما بشيراز ؛ وابن بطلان الطبيب البغدادى يناظر ابن رضوان المصرى فإذا طالت المناظرة رحل إليه من بغداد إلى مصر .

وإذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب إليها العلماء فى الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب ، حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الإنتاج العلمى كالذى رأينا فى صقلية ، تُفْتح فيرحل إليها العلماء وتدوّى فيها حركة العلم وبعد قليل نراها مركز إنتاج علمى وأدبى عجيب .

والحكومات من جانبها تنشىء الطرق ، وتقيم الرباطات والمخافر لحاجتها الشديدة إلى تنظيم البريد ، وتسهيل التجارة ؛ فكان العلماء فى رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا ، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل إلى الحج ، فينتظمون فى سلك الحجاج ، ويرحلون إلى البلدان التى يريدونها .

وكانت الرباطات كثيرة فى مراحل المسافرين ، ويذكر الأصطخرى أنه كان فى بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، فى كثير منها إذا نزل النازل قدم له طعامه ، وعلف دابته إن احتاج لذلك .

وقد زودت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر إليه ، وعُدَّت إقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التى يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم .

وفى بعض المراحل تقوم الأديار مقام الرباطات ، فينزلها بعض الراحلين ، ويجدون فيها راحتهم ومطالبهم ، وأكثر ما استغلها الأدباء لمرحهم وشغفهم بخمورها المعتقة ، وولوعهم بالجمال .

كل هذا جعل المملكة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبئون بالحدود التى ترسمها السياسة ، ويرون أن اللغة والدين تكسر حواجز السياسة .

وكان لهذا أثره الكبير فى العلم والأدب ، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الإقليمية ، فليس علم مصر وأدبها متميزاً كثيراً عن علم العراق وأدبه ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند وأدبها ، كلها متقاربة لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق ، وما يظهر امتياز فى ناحية إلا استمدته الناحية الأخرى وحذقته واستغلته ، فالفقه المالكى فى المدينة ، والفقه الحنفى فى العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن إدريس الشافعى ، وأسد بن الفرات المالكى ، والنحو العراقى يحمله إلى مصر وإلى المغرب الراحلون إلى العراق والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه ، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج النَّظْم ، والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغانى ورسائل إخوان الصفا من العراق إلى الأندلس ، ومكاتب مصر ومكاتب

الأندلس ، والقيروان ، والمهدية ، وفاس ، وخراسان ، وغزنة تضم لى خزائنها أهم ما أنتجه العالم الإسلامى بقطع النظر عن إقليمه .

بل والعلماء أنفسهم نرى شطرا من عمرهم قضوه فى بلد وشطرا فى بلد آخر ، شطر فى مصر وشطر فى الشام ، أو شطر فى الشام وشطر فى العراق ، أو شطر فى العراق وشطر فى فارس ، وهكذا حتى ليصعب فى كثير من الأحيان عدّ العالم مصريا أو شاميا ، وعراقيا أم فارسيا . ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى فجمع أكثرهم علماء العالم الإسلامى على اعتبار أنهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد .

نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم كالأدب المصرى والشامى والعراقى والفارسى ، والطب المصرى والشامى والعراقى والفارسى وهكذا ، ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل . وأكثر ما يظهر هذا فى منبع الظاهرة العلمية والأدبية حين تظهر ، فظهورها فى إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية فى هذا الإقليم كظهور المقامات فى إقليم فارس والموشحات بالأندلس ، والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع فى الرى وما حولها ، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة — كرسائل إخوان الصفا — فى البصرة ؛ كل ذلك له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ، ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلَّد فى سائر الأمصار ، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة ، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار ، وتختفى الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة .

و بعد — فهذا عرض سريع للحركة العلمية والأدبية ، يتلوه إن شاء الله البحث التفصيلى فى تاريخ كل علم ومدى تقدمه ، ومركز هذا التقدم ، وهذا هو موضوع الجزء الثانى من « ظهر الإسلام » أعاننا الله على إتمامه .

فهرس الأعلام

(باب الألف)

(باب الباء)

(باب التاء)

(باب الثاء)

(باب الجيم)

(باب الحاء)

(باب الخاء)

(باب الدال)

(باب الذال)

(باب الراء)

(باب الزاى)

(باب السين)

(باب الشين)

(باب الصاد)

(باب الطاء)

(باب الظاء)

(باب العين)

(باب الغين)

(باب الفاء)

(باب القاف)

(باب الكاف)

(باب اللام)

(باب الميم)

(باب النون)

(باب الهاء)

(باب الواو)

(باب الياء)

فهرس أسماء الأمكنة والبقاع والبلدان

(باب الألف)

(باب الباء)

(باب التاء)

(باب الجيم)

(باب الحاء)

(باب الخاء)

(باب الدال)

(باب الراء)

(باب الزاى)

(باب السين)

(باب الشين)

(باب الصاد)

(باب الطاء)

(باب العين)

(باب الغين)

(باب الفاء)

(باب القاف)

(باب الكاف)

(باب اللام)

(باب الميم)

(باب النون)

(باب الهاء)

(باب الواو)

(باب الياء)